مكتبة نوميديا

نجاة عبد الصمد

لا ماء يرويها

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

رواية

منشورات ضفاف
Editions Difaf

لا ماء يرويها

طبع في لبنان

لا ماء يرويها

رواية

نجاة عبد الصمد

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-1528-3

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

أن تكوني امرأة، هذا ألم.

تتألمين حين تصيرين صبيّة

وحين تصيرين حبيبة تتألمين

وحين تصيرين أمّاً...

ولكن ما لا يطاق على هذه الأرض

هو أن تكوني امرأة

لم تعرف هذه الآلام كلها

بلاغا ديمتروفا – شاعرة بلغارية

وليس آخراً..

لم تصدق بشارةُ أمي.

كنا أطفالاً نلعب الغميضة في عمرة الجيران، دفعني أخي ممدوح إلى عامودها، فجّ العامود رأسي، وركضتْ أمي على صراخي:

«هصصص. بدل أن تبكي هاتي البشارة، كلّ أرضٍ يسيل عليها دمُك يُكتَب لكِ فيها موطئ قدم».

أربعون عاماً و لم تصدق بشارتها. و لم تكذب كذلك. خطأٌ صغيرٌ في القياس أزاح مصيري بضعة أمتار، من صدر بيت الجيران إلى غرفة الكَرَش في قعر بيت أهلي.

تلكّأتُ في انحداري إليها عبر الدرج الداخليّ شبه المهجور، لا ضوء يكفي لأرى حواف الدرج المفتّتة، ولا درابزين يُسوّرها لأتكّئ عليه، عند الدرجة الخامسة نزولاً توقفتُ لأشدّ حمّالة الجراب لكزني عكّازُ أمي في ظهري، وصلتُ الدرجة السابعة، العاشرة، ترجرج من تحتي الباطون وضاق نَفَسي، واشتبكتْ بربساتُ أمي في مسمعي بالضجيج الطالع من رأسي.

أسندتُ يدي إلى الجدار وقطعتُ الدرجاتِ الثلاثة الأخيرة بالبطء الممكن قبل دنوّ القاع.

لاقاني الباب الخشب، مفتوحاً على وسعه لاستقبالي، لونه رصاصيٌّ مطفّى، لحق أبي قبل أن يموت أن يطلوه بلون الوحشة التي أخاف.

انغلق البابُ عليّ، أقفلتْه أمي من الخارج ودسّت المفتاح في عبّها، قرب قلبها الأبعد من أن يصغي إليّ.

صرتُ في انفراديّتي الواسعة. ليس حولها سوى الردم والتراب. يعلو جدارها الغربي سبعين سنتيمتراً عن سطح الأرض، تشغله نافذةٌ مسوَّرةٌ بقضبان حديدٍ مدهونٍ بالقرمزيّ الكامد. سندتُ كرسيّاً مخلوع الرجل ببلوكةٍ ثقيلة واعتليتُه لأفتحها. صرّ مزلاجها قبل أن يستجيب ويأتيني بالهواء والضوء وأصوات بشرٍ بعيدين.

عزّلتُ غرفتي من فوضاها ومن أنين أشيائها ومن خرائب الماضي إلى أن استويتُ فيها مرتاحةً كأنني كنتُ على سفرٍ وعدتُ إلى هُناي.

تمدّدتُ على الأرض، أرخيتُ أذني على خدّها أصغي إلى عزلتي وأتعلّم الصمت.

ثم نهضتُ. رتقتُ سجادةً قديمة، أعدتُ للكرسيّ رجله المخلوعة، استوى التلفزيون الأسود والأبيض على الطاولة. لم يجذب الأنتين الداخلي سوى محطتين سوريتين أرضيتين. لا أسمع الأخبار ولا مسلسلات السهرة. أرصد البرامج المنوّعة. منها قد يطلّ بيل كلينتون، وسامته الباذخة، روماريو، رشاقته المدوّخة، عبد الحليم حافظ، شجنُه العالق في صدري كزفرةٍ حارّة. بهم أوقد لجمر الرغبات وأُعيد نسجهم بخيطان الكركر السهران معي حتى مطلع الفجر.

في الصبح أتنصّت إلى خطو أمي أو أختيّ على أرض طابقهم فوقي. هذه دعسة أمي الثقيلة يسبقها عكّازها إلى الحمّام، وهذا المشي السريع هو حوَمان ختام بين طاولة زينتها وباب خزانتها

المفتوح أبداً، وهذا صراخ منتهى تستعجل أمي التي طال مكوثها في الحمّام. وهذا السكون يعني أنهما راحتا إلى الشغل وعادتْ أمي إلى جلسات بحلقتها في صور ممدوح وعناد.

في الليل تحلّ فيّ طاقةٌ عالية ويغدو الله أكثر قرباً. الليل أنيسٌ طالما أنا صاحية. ضوءُ لمبة النيون الوحيدة يكفي لأرى كل ذرة غبارٍ تشاركني سكني، نسيجَ العنكبوت عند حافّة النافذة، بقعَ العطن على السقف والجدران، أنظّفها وتعود كالذكريات العاصية. من الجدران يأتي هسيسٌ ناعم، أخاله سرب نملٍ يحفر طريقه بين شقوق التراب، لو تُعرّج النمال وتزورني لألقّمها من طعامي. أغفو فوق قصائد قباني، في الحلم أكون سمراءَهُ وشامَه وأندلسه. أفيق لأتريّض بين كتابين لجبران خليل جبران وطاغور عثرتُ عليهما وسط أنقاض غرفة الكرش، أوراق الكتابين مفرفطة، لا بدّ أنهما كانا لأخي ممدوح، لم يكن أحدٌ يقرأ في بيتنا سوى ممدوح.

من نافذتي ناديتُ ابنة الجيران؛ صبيّةٌ بعينين كالعسل، وصوتٍ كهديل حمامةٍ كسلى، سألتُها أن تشتري لي أيّ كتاب رائجٍ هذه الأيام. ناولتني روايةً من بين القضبان. قرأتها بضنىً مرّةً واثنتين، رافقتُ ذلك الراعي في رحلته من أرضٍ لأرض، تمدّدتُ معه على فرشة التراب، تحت نجوم المدن الغريبة، وصل الراعي إلى حيث قصد، وانكشفَ عن عينه أنّ كنزه الذي غامر ليعود به مدفونٌ هناك تحت الشجرة التي نام في ظلّها لسنين.

لو كان الراعي يعلم؛ لو كنتُ أعلم...

***

أشتهي أن يلفحني بردُ الشتاء، أو تُبقّع وجهي شمسُ الصيف. صيفان مرّا، وشتاءان، ولم أغادر غرفتي. أحال عشباً ينمو بمشقّةٍ خلف قضبان الحديد، أشمّ رائحته، عطشَه، أمدّ يديّ خارج القضبان، أنكشُ التربة، أعيد زرع الحبق والقرنفل، أسقي شتلاتي، أُناغيها وأُطلِق عبر ضوعها سبعين مرسالاً إلى جهات الأرض الست.

سنتان، ولم يعد من مراسيلي أحد. سنتان وأنا أتعلّم كيف أبدأ حياةً واعية، أن ألحق في منتصف العمر ما ضاع في أوّله..

أشتهي تمشايةً في المدينة القديمة لأعاتب أحجارها، لأحمي ذاكرتها من الهرم أو الخربطة، لأشدّها من أذنها كي لا تشي بالبنات الهاربات إلى العشق، ولا تستّر على الصبيان الهاربين من المدارس.

أشتاق لأخبار الناس، أشتاق حتى لنمائمهم. أنفض رأسي وأتمشى في غرفتي حتى التعب، أو أُعيد ترتيب أحجار الشطرنج فوق الطاولة.

أنا لا أتقن لعبة الشطرنج، وليس في مصيري وضوحٌ كرقعةِ مربعاتِها البيضاء والسوداء، وليس عندي طاقمٌ كاملٌ من الجنود إلى الملك، عندي منها بضعة أحجارٍ رأيتها يوماً تتساقط من بين قضبان نافذتي. يومها ارتختْ يداي عن سنارتي وخيطاني وانشغلتُ كلّي برصد هذا الغزو اللطيف. توالى انهمار الأحجار، كلّ حجرٍ يستقرّ قرب النقطة التي سبقه إليها أخوته، كأنّ راميها يجتاز امتحاناً في رياضة الرماية بعد طول تدريب. حين توقّفت المقذوفات، علتْ أصوات الأولاد من جديد. كمشتُ من علبة الملبّس الحلو ملء يدي،

ووقفت على الكرسيّ لأواجه النافذة وأنثر الملبس بين أقدامهم. ارتعب الفتيان الصغار حين رأوني. لم تشفع لي لديهم لا سكاكري ولا ابتسامتي الطالعة من قلبي المشتاق لأولادي حتى التلف، تراكضوا هاربين مني، من جنيّة تطلع لهم من قبوٍ مهجور. الصغير بينهم يركض وينظر إلى الخلف، شعره قصيرٌ وعيناه لامعتان بدمعة رعب، كم يشبه ولدي سلطان حين كان في عمره!

تفقّدتُ حصيلة الغزو الأنيس، أحجار شطرنجٍ من البلاستيك المضغوط: لا أميرَ بينها ولا ملك، بل سبعة جنودٍ أغبياء، وحصانٌ مكشوط الغرّة، وقلعةٌ مثلومةٌ من خاصرتها، والنصف السفليّ لما أعتقد أنه الفيل، وكان بينها أيضاً: حجرا نرد.

انتظرتُ أن يعود الأولاد في طلب الأحجار ولم يعودوا. صفّفتُها على الطاولة، وأنفقتُ أوقاتاً كثيرةً ألعب بالنردَين، أهزّهما بين كفيّ وأرميهما على الأرض، على انتظار أن يستقرّ نرداي، ولو مرّةً على سبيل التعاطف، على وضعية «دوشيش».

***

أنشغلُ بحياكة المفارش، أحوك أغطيةً لوسائد الليل، كنزةً تدرأ برد الروح، أو شالاً يسافر إلى أحبةٍ تاهت عني مصائرهم منذ انتهيتُ إلى غرفة الكرش.

بموجٍ يدي مع الخيطان أقتل شياطين عالمي الجوانيّ، أركنُ إلى أنّ الله يحبني هكذا كما أنا؛ يدين يجلوهما عرقُ العمل.

صرتُ أعشقُ كل منسوجةٍ حين تكتمل، وأحزن عليها حين أسلمها لأختي منتهى لتمضي بها إلى بائع المشغولات التراثية، وأفرح

حين تعود إليّ بأثمانها الكافية للزوم حياتي القليلة.

«الأسعار في ارتفاعٍ يا حياة، أصبح سعر كبّة الخيطان الواحدة 200 ليرة»

أهمّ أن أسألها: وعلبة الكولا؟!

ولن أطلب الكولا، فقط لو رشفةٌ ماءٍ من خابية العمّة «زين المحضر».

***

وجعلتُ مهنتي انتظار ناصر، الشوق لندبة الجرح الفدائي فوق خدّه، غنّيتُ له كي يعود!

يا بو كذيلة منشّرة/ حاجة دلال وغندرة/ بليتني بمحبتك/ ما لي عليها مقدرة

بليتني برمش الهدب/ يا زين يا حلو الأدب/ ما ربي مثلك بالعرب/ ولا بقصور معمّرة

الآن، تخذلني الذكريات، لا تأتيني مرسومةً على البيكار، تهطل مشتتة وغاضبة، ومتزاحمةً وعاثرةً وملحاحة.

ناصر؛ لو كنت أعلم أنني، في كل الليالي التي جافاني النوم كنت أحيا صاحيةً في حلمك؛ لربما لم أنتهِ هنا. ناصر؛ قد كسرتَ حياتي مرتين: تواريتَ حين كان عليك أن تعود، وعدتَ حين كان عليك أن تتوارى.

وما أزال أنتظرك، أُنادم وحدتي وأنتظرك، أتشوّى بجمار الندم وأنتظرك، كما انتظرتْ أمي حسنَ الغريب أنتظرك، أُشيح الطرفَ عن أنّ حظّ البنت مثل حظّ أمها وأنتظرك.

وإلى أن تعود مراسيلي بخبر، أدّخر اسمك كصلاة، أستكثره على النطق، أحتفظ به كمفتاح الحكايات الندّية، أعفّ عن لمسه كي لا ينفرط عقد البهجة بين حروفه، أخاف أن يطفو اسمه على وجهي أو جلدي أو لساني، أو يفلت منّي خارج هذي القضبان في لحظة أسىً جارف.

1

من مرويات المدينة الشفهية

للمرأة في حياتها مآتم سبعة:

أولها سواد وجه أهلها يوم ولادتها أنثى

ثم بكاء فرجها دماً يوم طمثها الأول، وفي سائر الأيام التي يتدفق منها الدم شامتاً

والثالث ليلة دخول عريسها فيها

والرابع موصولٌ من يوم حملها إلى مخاضها، وانفراج معبرها عن مولودٍ حيّ، وحتى بعد الولادة السالمة، يظل قبر النفساء مفتوحاً أربعين يوماً...

ومأتمٌ خامس عند فطام كل ولد

والسادس يوم موت زوجها أو يوم طلاقها باستحقاقٍ أو بابتلاء.

والسابع هو العلني، آخر الميتات، يوم إسلامها الروح إلى بارئها.

أُسمّيها ليلة النواصة الحمراء...

لا أعرف إن كانت مصاريني تقرقر جوعاً أم رهبة. خليل يمضغ قرشةً كبيرة من الكبة المقلية، أسمع صوت انسحاق البرغل تحت مطحنة أسنانه، أرى حنكه يلتوي لينقل اللقمة إلى عناية الحنك المقابل

بينما تلمع عيناه بآيات الرضا. يعاود ملء كأس النبيذ الذي فـــرغ، يضرب بأصبعيه على ظهر علبة السجائر لتخرج من بطنها واحـــدة. تقع عينيّ على الحروف الإنكليزية الطويلة: «Pall_Mall». «هـــل قرأتِ جيداً، هذا دخان مهرّب، غالي الـــثمن..». يشـــعل خليـــل سيجارته بالولاّعة الأجنبية المذهّبة ثم يأخذ رشفة نبيذٍ طويلة؛ «وهذا من دوالي البيت، بيديّ هاتين خمّرتُه».

علتْ عيناي إلى السقف وفي بالهما الدوالي، أمهاتُ النبيـــذ. لم تريا فوقنا سوى قنطرة حجر. ارتدّتا إلى أرض الغرفة. لـــيس عليهـــا السرير الذي به أحلم. عدّلتُ جلستي على فراش الصـــوف المنجّـــد وانشغلتُ بالنظر إلى صينية الألمنيوم، لا تبدو نظيفة، غداً ســـأفركها بالليفة الخشنة وصابون (زهر الزيتون) ليلمع سطحها كبرق النجـــوم في ليالي الصيف.

لم يلقّمني خليل لا قرشةً كبيرةً ولا صغيرة، ولم أمدّ يـــدي إلى الكبة وبالطبع لن أمدّها إلى كأس النبيذ، فالمشاريب المنكرة عنـــدنا حكرٌ على الرجال وحدهم، يتعاطونها في السرّ خلف ستر البيـــوت، ويستعينون بالكتمان على رذيلة شربها.

لوهلةٍ تفاءلتُ أنّ خليل سيسقيني رشفةً من كأسه، ثم داهمـــني الغثيان حين أدخل خليل أصبعه في منخاره، كان فمه أيضاً مفتوحـــاً تبان منه لمعةُ السنّ الذهب وتوجّ تحت الضوء الفوسفوريّ لعقـــارب ساعته. خرج أصبع خليل بفتيل مخاطٍ لزجٍ دفنه في المحرمة ولم يقـــم بعدها لغسل يديه.

في ليلة النواصة الحمـــراء هـــذه كـــأني في منـــام، أو كـــأنني فأر التجارب الذي رأيتُ صورته علـــى جـــدار مخـــبر المدرســـة،

مخدّراً مستسلماً كفتى حربٍ جاؤوا به إلى الميدان قبل اكتمال تدريبه.

أمس، تبرّعتْ خالتي بتلقيني ما يجب عليّ فعله بالحرف كي لا يُهان مجدُ أسرتنا: تستلقين، تسترخين، تفتحين رجليك، وتنتظرين. حين ينتهي تنتظرين أيضاً حتى ينهض عنك. حينها تتشهّلين ليرتدّ الدم إلى «القميص» المثبّت على الفراش تحتكِ. حين يرى خليل البقعة الحمراء سيضّمك ويقول: «مبروك».

بالحرف اتبعتُ وصية خالتي، بالحرف حدث ما وصفته كأنها ثالثتنا تحت عين النواصة، ما عدا الضمّة، ما عدا (مبروك).

مضى أسبوعٌ على عرسنا. طلب خليل أن آتيه بلكن الماء الساخن. قال: «هاتي المنشفة واركعي». قلت: «لا». حطّتْ كفّه كالمخباط على وجهي بضربةٍ مثلثةٍ أو مخمّسة. مخباطُ يده كان بسرعة الـ (لا) من فمي.

ربما كانتْ يده مدرّبةً على الصفع، وربما صدمَهُ نشازي عن سرب أسلافي من النساء الصالحات. كذلك أنا لم أُفكّر قبل أن أجيبه: (لا)؛ خزينُ ذاكرتي طافحٌ بصورة أمي تركع كلّ يومٍ لغسل رجلي أبي حتى في العطل الرسمية، تُحلص لفرضها كأنه خلاصٌ من غضب شيخٍ غير مرئيٍّ يلوّح فوق رأسها بعصاه: (ردّدي خلفي يا امرأة: غسلُ رِجلي الزوج من طاعة الله)..

أحفظ طقوس الظهريات الصارمة في بيت أهلي. أمي تراقب تكتكات ساعة الجدار في الليوان، حين يرسم عقرباها شكل أصبعين، الأطول بينهما عامودياً تماماً والقصير يتقدّم على أخيه الأطول بنمرتين، ما يعني الساعة الثانية، وأنّ جميع الموظفين غادروا، وأبي

في هذه اللحظة يقفل بوابة المديرية؛ تكون أمي أنجزتْ مهمتها المقدّسة الأولى: ذاقتْ طبختها لتتأكد من استوائها قبل أن تطفئ تحتها النار وبدأتْ تستعدّ للثانية: تُسخّن الماء في سطل التنك (فراغة سطل السمن)، تُنزل اللّكَن الحديد المعلّق بمسمارٍ على حائط الحمّام وتنتظر وصول فحلها. تضع المنشفة الحائلة السُّمرة على فخذيها السمينين، وتُركي جسدها على الأرض، وتسرح. سرحانُها كله في مرج العكوب. أكثر من عشرين عاماً في المدينة لم تخطف منها لا المزار ولا شجرة التوت ولا الحبّ القديم النافق كنعجةٍ بائسة. يلوح أبي من بوابة الدار، نركض نحن البنات إلى المطبخ أنا أفرد شرشف المائدة ورجاء تضع عليه سدر الأكل وصحن المكدوس وأرغفة الخبز. لا تسكب عفاف البرغل في الصينية الوسيعة إلا بعد أن تنجز أمي غسل رجلي أبي وتدليكهما وتنشيفهما بلطفٍ، بكل لطف. يقوم أبي عن كرسيّه منتعشاً، وتلقي أمي بالمنشفة على كتفها وتنهض بتثاقل، تشكل ذيل تنورتها الطويلة تحت دكّة خصرها وتنزل باللكن سبع درجاتٍ توصلها إلى حاكورة الدار، تدلق الماء تحت ورود الختمية والعطرة والشب السهران. تحمد الزريعة ربّها على الماء المعمّد بأوساخ الرجلين. أيّ ماء أفضل من العطش المعشش. تلهث أمي في طريق عودتها، تعيد تعليق اللكن بمسماره وتنضمّ إلى حلقة جلوسنا حول الطبق. في أول الأمر كانت تغسل يديها بعد مهمة غسل الرجلين، ثم بدأت تنسى، ولاحقاً لم تعد تكترث.

***

مضى أسبوعان. ساومني أن أغسل رجليه مرّةً واحدة، وتلقّيتُ المخباط حين قلتُ: (لا).

صبر حتى الليل، لكزني، تلكّأت، حين أدارني إليه غصباً عني فهمتُ أن غضبه استوى، أخلعني ثيابي، ولجني وأفرغ وأدار لي ظهره. من تقلّبه في الفراش عرفتُ أنّه مثلي لا يأتيه الغفو. هبّ واستدار كالممسوس نحوي، قلبني على ظهري وهاجمني من الخلف. صرختُ. سدّ فمي بيده كي لا يسمع أهله صراخي من غرفهم المجاورة، وبيده الأخرى ثبّت مقعدي بقوّةٍ أسكتت مؤخرتي عن عنادها.

في الليالي اللاحقة، وكلما اقتحمني خليل غازياً كقرصانٍ إفريقيّ، ستؤلمني معدتي، وتنبت على جلد بطني فقاقيع هشّةٌ كالزجاج، رخوةٌ كالعنب المسلوق في حرّ آب، تحكّني كرمد العين، وتنمو وتستشري وتراها عين النواصة الحمراء، عينها الشاهدة الوحيدة المتواطئة.

***

صباح أولى لياليّ الحمراء كنتُ ما أزال في بيت أهلي. احتقن بيتُنا ببشرٍ لا نعرفهم جاؤوا إلينا في باص السكانيا. رجالٌ ونساءٌ وأولادٌ تدحرجوا من بين أهاليهم كما تكرج أزرارٌ فالتةٌ من أثوابها، انتشروا في مدخل البيت وعلى السور وتحت مطلع الدرج وفوق شجرة المشمش وقرب خمّ الدجاجات، واختفى اثنان منهم في بيت الخلاء في أقصى الحاكورة. توزّع الرجال في المضافة، والنساء في غرفة العائلة، رأيتني أنصمد في صدر الغرفة كإحدى كراسي البيت، لا أبيض حولي سوى ثوبي، وباقي الكون أسود.

أختي عفاف على يساري، تضم ركبتيها بحرصٍ كأنّ بينهما مـــاءً تخشى إن باعدتهما أن يسيح. على كتفيها شالُ صوفٍ أسمر حاكته على عجلٍ ليصير زينتها لمناسبة اليوم. لم أقل لها أنّ غرزَه رخوة، غير مهيوبة، ولم تنتبه هي إلى خيطٍ أجعّدَ كصوف الخاروف يتدلّى مـــن زاويتـــه. عفاف تلفّ الخيط حول أصبعها ويداها في رجفة، يتقلّب وجهها مـــن ارتباكٍ إلى خجلٍ إلى حنق. تتفقّد بعينيها أصابع يديها ثم أصابع قـــدميها النافرة من مقدمة صندلها الأسود. لو انتبهتْ للخيط، لكانت قصّته، ولو لم تكلّفها أمي بفرك قماش الفرشات بشقفة قماشٍ مبلولةٍ بالماء وقليـــلٍ من زيت الكاز، للحقتْ أن تُلوّن أظافرها بطلاءٍ محتشم.

لم يمنحني أبـــي الإذن بالذهاب إلى صالون الكوافيرة في وسط السوق لأنّ بيتنا ما يزال في حـــداد. وحـــدي صـــفّفتُ شـــعري، وخطّطتُ عينيّ بكحلٍ كثيف، وفرشتُ خـــديّ بـــالأحمر الفـــاقع، وحدي لبستُ ثوب العرس، وحدي شبكتُ الطرحة البيضاء علـــى رأسي، ووحدي أُربّت الآن بالمحرمة الكلينكس علـــى وجهـــي، ولا ينشف عرقي ولا يختفي كمدي، وكالرجفة تسري فيّ وصيةُ أمـــي: «ابتلعي لسانك، لا تضحكي، الجمي حركاتك المائعـــة، أخفضـــي بصرك طيلة الحفل..».

لا زغاريد، لا غناء. ضيفاتنا متجهماتٌ كالمدعوّات إلى عـــرس أرملة، عيونهن تسبرني من فوق لتحت ومن يمين لشمال، يبحلقن في البقعة الكالحة على صدر ثوبـــي الأبيض، يتهامسن، يختلقن أحاديث مع نساء حاراتنا الفضوليات عن الحرّ وعن موسم الحصـــاد الـــذي تعطّل اليوم بسبب العرس. أخواتي يدرن بينهن بإبريق الماء والمحـــارم ليشربن ويمسحن عرق الوجوه والصدور.

أطلّ رجلٌ بعمامةٍ بيضاء، كلّم أمي الواقفة عند الباب، أخفضتْ أمي رأسها وأنبأ وجهُها بكدر. غابتْ وعادتْ بمنديلٍ لا أُخطئه. منديل حريرٍ أخضر مطرّزٌ بزهورٍ كوبيّة ينام مطويّاً في رفّ خزانتها العلويّ منذ أيام عرسها. دارتْ عيناها بين الحاضرات تبحثان عن خالتي. نهضتْ خالتي إليها، همستْ لها أمي فخلعتْ خالتي إسوارتها وأعطتْها لها. جاءتْ أمي إليّ، سحبتْ يدي اليمنى، أدخلتْ فيها الإسوارة حتى معصمي ثم انتزعتها منه. الأسوارة الضيقة كشطتْ جلدي. أمي لم تنتبه إلى أنين يدي، ولا إلى أن خليل لم يفتح مغاليق قلبي بأساور من ذهبٍ أو من فضّة. لفّتْ أمي الإسوارة في حرير المنديل الأخضر وأسلمتْها إلى الرجل الذي حملها إلى المضافة، والذي عرفتُ فيما بعد أنّه وكيلي.

جلس وكيلي على بساطٍ ممدودٍ في أرض المضافة يقابله وكيل خليل، بينما توزّع باقي الرجال على الطواطي حولهما. سأله السايس: «هل تقبل أن تزوّج موكلتك حياة بنت مرهج أبو شال وذهبية أبو شال إلى خليل أبو شال على سنة الله ورسوله، وعلى مهرٍ معجّلٍ ومؤجّلٍ متفقٍ عليهما؟»

شبك الوكيلان يديهما اليسار كالمتصافحَين، رفعا إبهاميهما إلى أعلى متلاصقَين وأنزلا الإسوارة حولهما ثم غطّيا يديهما بمنديل الحرير. بسط الحاضرون أياديهم وأنصتوا إلى خطاب السايس: (الزواج سنّةٌ من سنن الأنبياء وشرعةٌ من شرائع البقاء وصونٌ عن الفحشاء ووقايةٌ من ربّ الأرض والسماء...)، ثم تلا السايس الفاتحة، ثم آياتٍ خليطٍ من القرآن والحكمة أعلنتانا أنا وخليل زوجاً وزوجة.

النساء حولي أيضاً صمتن. فردن كفوفهن على ركبهن كأنهـا أزواج حمامٍ نائمة. لو شبكتْ إحدى الحاضرات أصابع يديها وقـت التلاوة عن قصدٍ أو عن سهو، فقد يشبك النحس زواج العروسـين ويُعقّده.

طلعت من حلق أم خليل زغـرودةٌ وحيـدة، ودارت تـوزع البقلاوة. حانت إذاً لحظةُ ارتحالي.

قادني أخي ممدوح من صدر الغرفة وأسلمني عند بابها إلى خليل، ابن عمّ أبـي، الرجل الأربعينيّ الطويل، الجهم، ذي البذلـة البنيـة الحائلة والحذاء الملمّع، الذي التقيته ثلاث مراتٍ في مضافة بيتنا خلال الشهر الماضي، وجاء اليوم ليأخذني عروساً إلى بيته.

لو يقول لي أبـي لا تروحي معه..

(قولوا لابوي الله يخليلو ولادو/ استعجل عليي واطلعـني مـن بلادو..)

***

تركني خليل أرفع طرف ثوبـي وألملم طرحتي عـن الطريـق التراب أمام بيت أهلي، انثنيتُ لأدخل سيارة مرسيدسٍ بيضاء مدعبلة استأجرها لتزفّني إلى بيته في «مرج العكوب». أخيراً سـأرى مـرج العكوب، قرية أهلي، التي لم أرها يوماً، لكنّ اسمها طاف كل يومٍ في بيت أهلي كشبحٍ غامض.

خلف شباك السيارة تلوح سهولٌ مكشوفة يطفو فوقها عشبٌ يابس، وخلفها مروجٌ صخريّة وبعض أشجار السنديان، وكثيرٌ مـن كروم العنب. يغشاني غثيانٌ خفيفٌ كلما ارتفعـت الأرض ونحـن

نوغل في ابتعادنا جنوباً شرقا. يؤلمني ظهري في مكاني الصغير محشورةً بين خليل وخالتي. يدها الثقيلة على فخذي تطمئنني أنها سترعى ليلتي الأولى في وحشة مرج العكوب، وأنّ قماشة الخام الأبيض تنام بين أغراضها على انتظار أن تعود بها إلى أمي في صباح الغد ملطّخةً بالأحمر.

قطعنا حتى الآن قرىً خمس. اختفت الأشجار والكروم، وامتدّتْ مساحاتُ التراب الأحمر حتى لمعة الأفق، تحطّ عليها الطيور لتنقر بقايا سنابل غفل عنها الحصّادون ثم ترتفع لتطير في عكس اتجاهنا. لو تعيدني معها إلى مدينتي التي لم أغادرها من قبل، ولم أحسب أني سأغادرها إلا إلى بيروت.

خليل يعصر بيديه الخشنتين يدي، يسألني إن كنت بخير، أرفع عينيّ نحو السماء أستجدي هواءً نقيّاً. أحرّر يدي منه، آخذ من جيب جزداني الصغير منديلاً لأمسحها؛ هذي الدمعة بنت الكلب التي انحدرت أخيراً، وكم جاهدتُ لأحبسها منذ اختفى ناصر!

خلتُ أننا صرنا في الضفة الأخرى من الكون حين بشّرني خليل: «وصلنا». انفتق أطفال مرج العكوب من مدخل البلدة وحاوطوا سيارتنا والباص الصغير الماشي خلفها ببطء، ثم ركضوا أمامنا يصفقون ويهتفون: عروس، عروس...

لم أكن أريد أن نصل، أن يطفئ السائق محرك السيارة، أن تصمت الأغنية من مذياعها:

ناتالي/ انقطعت اخباره../ ما تشوفه عين...

2

أنا لا أعرف لون عيني أبـــي. مات أبـــي بعد زواجي بسنواتٍ طويلةٍ كنهر النيل، مات حين كان يمكن أن يعيش بعد ونجلـــس إلى كأس شايٍ يمدّ بين أعيننا حبال البوح فأسأله: هل عيناك ســـوداوان كالظلم، أم بنيّتان كالأمان، أم رماديتان غامقتان كالأسى؟

ذلك اليوم، في عامي الرابع عشر، طلبتُ من أمي الشادر السميك المخطّط بالأزرق والأبيض لأبني خيمةً لي تحت شـــجرة المشـــمش في حاكورة بيتنا. كنا، لسنين، نمدّ الشادر تحت طبق الطعام ليحمي فرشـــة الأرض مما تهرهره أيادينا من خبزٍ أو أدام. خدم الشادر مائدتنا فوق مـــا يطيق، وخالطته بقعٌ ورقعٌ من كل لون، وبدلاً من أن تدفنه أمي بلياقـــةٍ في سطل الزبالة، بعثت به إلى سجن غرفة الكَرَش: «بكرا منحتاجو..» أتخيّل هذا الـــ (بُكرا) الرهيب قرصاناً حليق الشعر يهدّدنا بعصاه الغليظة إذا أكثرنا من الإدام في لقمة الخبز، أو هدرنا ماء الخزان علـــى شـــطف الأرض أو رمينا في الزبالة شادراً مطعوناً بالثقوب.

قايضتني أمي؛ سأنال الشادر إن حكتُ لكتفيها شالاً كـــبيراً مـــن الصوف العربـــي، نسخةً طبق الأصل عن شال جارتنا. لم أعلم كـــم مقايضتُها ظالمةٌ إلا حين بدأت، تربّعتُ لساعاتٍ أفرد شـــلل الخيـــوط السمراء حول ركبتيّ، أعيد لفّ خيطها الرفيع على شكل كبٍ متينـــةٍ كي لا تتعربس أثناء الحياكة، ثم بدأتُ رحلة نظم الغرز. آلمتني عينـــاي

تحت ضوء اللمبة الشحيح، واختفى ألمي حين علق الهوى بيني وبين رسوم الشال. ثلاثون ليلةً من السهر والتحديق وعدّ الغرز حتى اصطفّت الحمامات على مرجه اثنتين اثنتين في منقار كلٍّ منهما غصنٌ مورق.

في خيالي ألصقتْ أمي خدها بمرج الحمام في الشال وهدهدت لي: «سأُغلّف يديكِ الصغيرتين بالحرير يا طفلتي يا كلّ ما أردتُ أن أكون ولم أكن». وأمام المرآة هلّلتْ أمي للتحفة الفريدة على كتفيها. لا شكر من فمها ولا شكران في العينين. كان في بالها همٌّ كبير: «من حاكتْ لك الشال يا أمّ ممدوح؟!». سيسألها أبي وتجيبه: «جارتنا الأرملة، وقد طلبتْ مني خمسين ليرةً». أبي أعطاها الليرات الخمسين بعد شجارٍ وقتلة. استقرّت الليرات في جزدان أميّ السريّ وكافأتني بالشادر. غسلتُه ورتقت ثقوبه قبل أن أنصبه كسطح خيمة لي وحدي. تلك كانت أولى ممتلكاتي، أجلس تحتها وأسند ظهري على جذع المشمشة، وأدلق الوقت بلا احتساب؛ أُعيد قراءة مجلّة «سمر» للمرة العشرين.

كل بنات الصف ينتظرن مجلّة «سمر»، تشتريها أرجوان وتسرح المجلّة بيننا في الفرصة كقطّةٍ مدلّلة، وتعيرني إياها إلى البيت لأنفرد في خيمتي بـ «آلان ديلون»، بطل المسلسل المصور على مساحة صفحاتٍ ستة. هل وجهه يلمع أم ورق المجلة الفاخر؟ هل جميع العيون الخضراء آسرةٌ كعينيه؟!. يشيح بهما عن الممثلة أمامه في الصورة، يغادر الورق ليعانقني فأعصر ثديي بيدي وأغيب في لذتي الحارقة. أفيق وأعود لتقليّب الصفحات: باحثٌ يكتب عن فوائد دودة الأرض لتهوية التربة، خبرٌ مصوّر عن فراغ لبنان من شبابه إلى المهاجر، هناك في الصفحة قبل الأخيرة مقالٌ عن جولة سفينة الفضاء الروسية حول كوكب الأرض لرصد حركة البحار من الفضاء. من قد يهتمّ لهذا الهراء؟!. يهمس آلان

الوسيم لي: ما أجملك! تنبسط الأرض من حولي حتى سهول حوران. ما أجملك! تقولها أيضاً عيون أساتذتي في المدرسة، والشباب على موقف باص البلدية، وسالم الأخوث، وبائع الألبان في حارتنا، وراضي الزبّال وجارنا أبو إبراهيم الذي يمرّ قدّام بيتنا عند المغيب راكباً حماره، أخطف إبريق الفخار من على دكّة الإسمنت وأقفز هابطةً درجات بيت أهلي لأسقيه شربة ماء. أعود فتلقاني أمي بكفّها اللاذع على خدي: «تأدّبي يا بنتُ، اثقلي، سيشرب حين يصل بيته». «لكنه عطشان يا أمي». «وما أدراكِ أنه عطشان؟».

مرّةً؛ وأنا أهبط من غيمتي العالية، فتحتُ عينيّ أستعيد صلتي بما حولي فلاقاني رمحان مسمومان من عينيّ أبي. اخترقتني نظرته، من على بُعد شجرتين مني، بعينين حمراوين كالبندورة. حين تلاقتْ عيوننا ارتعب أبي، انطفأت نظرته وأرخى يديه وغادر. يومها تمنيتُ لو أموت، أو يموت أبي، أو لو أعرف إن كان رأى أين كانت يدي الثانية، أو لمح سمار فخذي المكشوف تحت فيء المشمشة، أو لو أن لديّ أباً آخر، غير هذا الذي لم يكن يفعل في حياته شيئاً سوى الذهاب إلى عمله، موظفاً من الدرجة الثالثة في دائرة (النافعة)، والعودة منها حاملاً في يديه أكياساً هزيلة، والشجار مع أمي وضربها وحدها أو ضربنا جماعةً، يخرج بعدها ويتركنا ضائعين بين ألم الصفعة وآلام التفسير لغضباته الطارئة.

ومثلما يفسح الألم الأصغر مكاناً لسطوة أخيه الأكبر ذابت ندوب الصفعات القديمة وسط زلقة أبي تحت المشمشة، زلقةٌ هيّلتْ رداً بين روحينا وسرقت مني الأب السند.

من يومها لم أرفع عينيّ إلى وجهه، من يومها أضعتُ لون عينيه.

3

ربما كنتُ في الخامسة من عمري حين نبتتْ أعمدةٌ من الإسمنت شرق بيتنا. قبلها كان بيتنا مستوحداً في العـــراء، وفريـــداً برســـوم الباطون النافرة على جدرانه الخارجية. دهنها أبـــي بـــاللون الأزرق الغامق، وبه دهن بوابة البيت وأحجار مدخله حتى الطريـــق التـــرابيّ الصاعد شرقاً باتجاه المدينة. تشطف أمي مدخل الدار وتقتلع العشب النامي حول وروده وترميه على الأرض غربـــي بيتنا، وعند حـــدود أرضنا الشمالية يُفرِغ بوري الصرف الصحي مجاري مطبخنا وحمامنا فتحوم حولها أفواج الذباب والبعوض والهوام الغريبة، وينمو النجيـــل البري وسيقان «شوك الجمال» و«الخرفيش» والفـــرفحين والنعنـــع البريّ كثيفاً وطويلاً على ضفتيها، وتستفيد أمي مما يؤكل من هـــذه الأعشاب في تحضير السلطة. أما الأرض شرق بيتنا فقد كانت مكبّاً لزبالتنا قبل أن تبدأ فيها ورشة عمارة الجيران.

صرتُ ألعب الغميضة مع عفاف ورجاء بين أعمـــدة العمـــارة الناشئة وينضمّ إلينا أخي ممدوح حين لا يستدعيه رفاقـــه للّعـــب في الساحة البعيدة. ممدوح يسخر من ألعابنا البنّاتية الرخوة، ويعرف أنه الغالب فيها، يختبئ خلف الأعمدة الأبعد، ثم يسبقنا راكضاً برجليـــه الطويلتين إلى نقطة التجمع. مرّةً واحدةً سبقته فغضب، دفعـــني إلى العامود فنفر الدم من رأسي. حين فزعتْ أمي على صـــراخي كـــان

ممدوح قد هرب. كبستْ جرحي بأصبعها وأسكتتني:

«هصصص. لكِ البشارة، كل أرضٍ سال عليها دمك تمنحكِ موطئ قدمٍ فيها»

صار للعمرة سقف وسكنَها ناطورٌ كرهتُه لأنه حرمني من اللعب في مكانٍ صرتُ اعتبرتُه مُلكاً لي وحدي، وكرهتْهُ أمي حين جاء إلى بيتنا يطلبُ منا أن نبحث عن مكبّ زبالةٍ خارج أرض العمرة، فقد بعث مالكُ البيت من لبنان شتول صنوبرٍ ليزرعها الناطور على مدار سورها.

«وما دخل الناطور؟ يلعن أبوه على أبو صحاب البيت. كنا مرتاحين وحدنا في البرية، وصار علينا أن نمسح مخطة جيراننا اللبنانيين حتى قبل أن يسكنوا بيتهم»

«ابلعي لسانك هذا الذي لا يلفظ إلا الخراء». أجابها أبي.

جاء طمثي وانتهتْ فرحة اللعب في عمرة الجيران وفي سواها. كانت عفاف امتثلتْ للحرمان من اللعب قبلي بعامين، والتهتْ رجاء بأكوام مقتنياتها الغريبة فلم تكترث حين جاء دورها. نأيتُ عن أهلي وسرحتُ في سماءٍ بعيدة وتولّعتُ بشتول الصنوبر التي كبرتْ مثلي وانحنتْ أغصانها على سور بيتنا، قطفتُ أوراقها الأبرية وشابكتُها على شكل أرزةٍ أربط نهايتيها بشرائط ملونة وأصمدها على رفّ أغراضي وتسخر أمي من شراطيطي التافهة.

حارتنا أيضاً كبرتْ، ملأتها بيوتُ موظفين هجروا الريف مثل أبي واشتروا أراضي رخيصةً على أطراف المدينة وبنوا فوقها حزاماً من منازل عشوائية غير مرخّصة، حيطان بلوك فوقها سقوفٌ بلا أعمدة، وجروا إليها عائلاتهم. اكتظّتْ أطراف المدينة بهم وبأطفالهم

ودجاجهم وأغنامهم، طوّقوا بيوت البازلت القديمة حيث يسكن أبناء المدينة الأصلاء الذين بدورهم استثمروا أثمان أراضيهم المباعة وفتحوا ورشاتٍ شغّلوا أبناء الريف عمالاً فيها، أو محالّ تجارية لا تختص ببيع أشياء بعينها ولا تكلّ من تبديل بضاعتها بين يومٍ وليلة. من محلات الكاسيتات إلى الخرداوات إلى نوفوتيهات الملابس والأحذية النسائية، وانطلقت البنات للشغل فيها بياعاتٍ أجيرات.

وفي البيت ضاقتْ بنا الأمكنة. ازدحمتْ غرفة العائلة بأجسادنا وبفرشاتٍ للجلوس في النهار وللنوم في الليل وبطاولة التلفزيون وخزانةٍ من الحديد نتقاسمها نحن البنات الستّ. في ركنها خصّصتْ عفاف رفّاً للراديو الذي لا تطيقه صامتاً ولا أعرف من أين تأتي بثمن البطاريات. ووضعتْ رجاء مقتنياتها ورسومها في كرتونةٍ فوق الخزانة. في ركني ألصقتُ صورة لعبد الحليم حافظ مع كلمات أغنيته «قارئة الفنجان»، كلما مرّتْ عفاف أمام الخزانة تشتم: «يلعن أبو عبد الحليم». وحين اكتشفتُ أنّ عفاف تتلصّص على دفتر خربشاتي، صرتُ أخفيه في أماكن متنقّلة مثلما أخفي مجلّة سمر والعقود والأساور والخواتم المستعارة من رفيقاتي. تخاف أمي أن تكبر الصغيرات ويضيق بأغراضهن شحُّ المكان قبل أن تُخلي الكبيرات لهن الأمكنة بالزواج. إن نسيتْ أمي خوفها تُذكّرها الجارات: «ألم تنخطب إحدى بناتك يا أم ممدوح؟! على الأقل حياة؛ حياة جميلة لا كباقي أخواتها».

لا تردّ أمي على غمز الجارات ولا على شتائم أبي الصريحة: «يا بهيمة، لا تعرفين حتى كيف تملّحين الكشك». قد تجيبه بذلّ: «لم أقصد، غلبتني يدي»، وقد تُعيد تدوير غضبه برميه علينا: «الست

حياة تحبّ الاستحمام كل يوم، يخلص ماء الخزّان ولا ينتهي حمّامها». «حياة هذا الصباح تركت جلي الصحون». أنا لا أهمل الجلي، فقط آخذ فاصلاً لأرقص حين تغني صباح أو نجاح سلام من راديو عفاف. يفكّ أبي حزامه، يجلدني ببرود كأنه يشرب كأس شاي. جسده معنا ورأسه هائمٌ في عوالم أخرى، «كان عليكِ أن تربيها جيداً يا ست الحسن». تخفض أمي بصرها وتكتفي بالسلامة الشخصية لأن ابنتها التي تُضرب الآن لا هي، يرتجف فمها الكبير كأن دبابير غير مرئيةٍ تلسعه، تربدّ بشرتها المثقبة بآثار حبوب شباب ربما عاشته في عهدٍ سحيق. خدّاها صامدان في اكتنازهما، بينما تنزمّ عيناها الصغيرتان كحبتي حمّص في موسم جديب. أغمض عيني فيأتيني وجهها كاملاً، كصورةٍ التقطتها كاميرا بدائيّة بإهمال، صورةٍ غادرتها الحياةُ على دفعات بطيئة منذ غادرها الحبيب الطريد والزوج البغيض والجارات اللواتي تخشاهن والعطر الذي لم يضمّخ عنقها والهدايا التي لم تهدِها و لم تُهدَ إليها.

حتى خزانتها محنّطة. مناديلُ رأسها مصفوفةٌ على الرفّ العلوي، حائرةٌ بين سمرةٍ طارئةٍ وبياضٍ أصيل، على العلاقة بدلةٌ عربيةٌ للمشاوير، لكنها لا ترى شمساً ولا هواء، وفستانان منزليان بألوانٍ كابية ولطخ، تلبس أمي أحدهما ويبقى الآخر واقفاً في الخزانة كشرطي سيرٍ كسول، وعلى أرض الخزانة صررٌ تنكمّ فيها ثيابُ أمي الداخلية.

لم تفطن أمي إلى إعلان نفسها ميتة، تكتفي بغسل وجهها مرة في اليوم، والاستحمام مرة في الأسبوع، في ذات اليوم الذي نسمع فيه لهاثهما السعيد هي وأبي بينما يظناننا نائمات.

أُغمض عيني فأرانا مجموعة غرباء ساقتها بومةٌ عمياء إلى هـــذا الدغل، وأجبرتنا تحت تهديد اللعنات أن نعيش معاً وأن نألف هـــذا الهدوء الحذر الذي قد تقوّضه زلّةٌ طارئة.

***

لم أرتقِ في مدرستي إلى عداد من تفخر بهنّ المؤسسة التعليميـــة. عبرنا معاً أنا وأرجوان وغادة من مدرستنا الابتدائيـــة في الحـــارة إلى المدرسة الإعدادية البعيدة وسط السوق حيث انضمّتْ سحر ونجوى إلى ثلتنا وإن احتفظتْ سحر لنفسها دوماً بمسافةٍ لم تستطع إحـــدانا اختراقها.

أمشي فوق طريق التراب ربع ساعةٍ صعوداً حتى أصل حارة غادة لنكمل معاً الكيلو متر الباقي للوصول إلى مدرستنا. حارة غادة أعلى من حارتنا وبيوتها أحلى كساءً وذوقاً والطريق أمامها مزفّت. أحياناً أستريح في بيتها في طريق العودة من المدرسة، تبتسم لي صورة مريم في الصالون، وتبعث رائحةُ البخور فيّ رهبةً لم تنكسر رغم دخولي المتكرّر إلى بيـــت غادة، ولا أتآلف مع منظر السيجارة في يـــد أمهـــا ولا مـــع رأســـها المكشوف وتنورتها البيضاء القصيرة، ولا مع أريحية الحديث بين غـــادة وأمها كأنه سيالةُ حبٍّ تنثال من روح إلى روح.

غادة أصلاً لا تشبهني. تدرس طول الليل وكلّها رعبٌ مـــن أن ترسب، فعلى الجميع في بيت غادة أن يتشرّبوا العلم حـــتى الثمالـــة. وتلتزم غادة بطواعيةٍ لافتة بزيّنا المدرسيّ الموحّد؛ حذاء الفتوة الأسود الثقيل كصخرة، البدلة الكالحة بلون سخام البترول طوال مرحلتنـــا الإعدادية، وتحتها فورما من القطن الصناعي يخزُ جلودنـــا الطريـــةَ

وأثداءنا التي ما تزال تتدرّب على النهود. تتحوّل ألوان الفورما من الأصفر في صفنا السابع إلى الأحمر في الصف الثامن ثم الأخضر سنة الشهادة الإعدادية، ومثلها ألوان شريطةً الشعر المعتمدة لكل صف: أصفر أحمر أخضر. تربط غادة شعرها بإحكامٍ كذيل حصان، تشدّه من جذوره حتى تكاد فروةُ رأسها تنقلع، وتخفي السلسال الذهبي حول عنقها تحت قبة الفورما كيلا تُصادر مدرّبة الفتوة أيقونة الصليب المعلّقة فيه.

سحر كانت رقيقةً كعود ريحان. تمشي بعرجها البادي وجديلتها الذهب الوحيدة على كتفها الأيمن. اختارت مكانها الدائم في المقعد الثاني قرب الحائط. لا تشاغب مثلنا في الفرصة بين الدروس، وتقضي فرصتها برفقة كتاب المطالعة المجلّد بأناقة. كنت أراها أجمل بنتٍ في العالم حين ترفع عينيها برقّة، تبتسم أولاً ثم تجيب على سؤالي عن حالها: «أنا بخير»، وإن كانت ملامحها كثيراً ما تقول عكس ذلك. تغيب سحر عن المدرسة كل ثلاثاء إلى جلسات العلاج في مركز المعوقين في دمشق. وكما يشغر مقعدها في يوم غيابها، كذلك تعتمُ مساحةٌ صغيرةٌ في صدري ريثما تعود وتمتلئ بها في صباح اليوم التالي.

أرجوان لا تشبه أحداً ولا يشغلها إلا جمالها. يُرضيها هذا الاشتهاء الفصيح في نظرات البالغين وتُضجِرها مطاردةُ فتيان الثانوية لها بحذرٍ وخوف. «أغرار»، تقول عنهم أرجوان. تغنّج خطاها كأنها ناديا الجندي في زقاق شعبيّ، تكشف عنقها الأبيض كالحليب وتفرد شعرها الأشقر الجعد لشعاع الشمس وهبوب الريح وأنظار بياعي الجملة وأصحاب الدكاكين الهزيلة وسائقي سيارات الأجرة،

وسيارات المغتربين العائدين في إجازاتٍ قصيرة، والعساكر المجنّدين من كل البقاع السورية، وندرةٍ ممن نضجوا باكراً على مقاعد مدرستي التجارة والصناعة، هؤلاء لفظتهم الثانويات العامة لسوء علاماتهم في الشهادة الإعدادية.

على باب المدرسة يصافحها سالم الأخوث، لا تجفل أرجوان من ندوب عميقةٍ ترقّش وجه سالم بألوانٍ من الأحمر المنطفئ إلى الرمادي الكابي حتى الأسود، كأنما خلّفتْها نقاطُ زيتٍ حارٍّ ما يزال يغلي تحتها. يستبقي سالم يد أرجوان في يده وهو يتلو عليها حكمة الصباح: «اسمعي وعي يا حلوة: رُفِع الحَرَج عن ثلاثة: الولد حتى يحتلم، والمجنون حتى يعقل، والنائم حتى يفيق...». تضحك أرجوان: «عُلِم يا معلّم سالم». تستأذنه بسحر ضحكتها أن يعيد إليها يدها لتلمّ بها شعرها وتحبسه بربطةٍ خضراء نظامية وتهرول لتلحق الاجتماع الصباحي وتحية العلم، يتبع سالم حجل خطواتها حتى يُخفيها السور، يُخرج من جيبه مرآته الوهمية، وبالضوع الباقي من كفّ أرجوان على كفّه، يسند قلبه الطفل لئلا يسقط عند بوابة المدرسة وتدوسه أرجل العاقلين.

مدرستنا في قلب السوق. إلى الشرق منها الجامع الوحيد في المدينة. حين يرتفع الآذان لصلاة الظهر يُبشّرنا أن درس الرياضيات اليومي سينفق بعد عشر دقائق، وسألتهم في الفرصة لقمتي باللبن من دون زيت، بينما تنزل البنات إلى الباحة لشراء سندويش الفلافل والكازوز من كشك العمّ أبو سمير على يمين مبنى المدرسة.

يقولون أن فرنسا حين احتلّتْ بلادنا عمّرتْ لخيولها اصطبلاً بطابقين على شكل جناحين يتصلان فيما بينهما بزاويةٍ منفرجة

وحولهما حديقةٌ فسيحة. لا بدّ تدلّلت الخيول بالسرحان في ممرّاته الواسعة والنوم تحت الشبابيك العالية في غرفه الوسيعة. بعد الاستقلال أعيد ترميم الحجر العتيق بالباطون ليصلح مدرسةً للبنات. استُبقيَ الطابق الأول للإدارة والموجهات وأمانة السرّ والمدرسين والمخبر المعتم والمهجور، وأُعطي الطابق الثاني لطالبات الثانوية. لاحقاً اقتُطِع جزءٌ من حديقة الإصطبل القديم وبُنِي فوقه ملحقٌ بليدٌ بعتمته ورطوبته ونوافذه الضيّقة، حُشِرنا فيه نحن طالباتُ الإعدادية. فُرش الجزء الباقي من الحديقة بالإسفلت وزُرعتْ على حوافه شجيراتُ دفلى تجلس البنات تحتها في الفرصة لروي الأسرار والنمائم.

تجلس نجوى على مقعدها أمامي، تصغي إلى الأستاذ حسين يسمّي رموز المعادن على جدول مندلييف. يقول الأستاذ أنّ هذا الدرس هو الأهم في علم الكيمياء: «ليس أقلّ من جداول الضرب في الرياضيات». تغرق نجوى في إصغائها، لا تزعجها الذبابة الحائمة حول زجاج عدستها السميك، تثير حنقي هذه المهبولة. لكزتها من مقعدي خلفها، تجاهلتني مرتين بهزّةٍ من ظهرها، التفتتْ إليّ غاضبةً عند اللكزة الثالثة. وشوشتها بكلّ جدّ: «أنا أشفق على الأستاذ حسين. المسكين، شفتاه تذكّراني بمؤخرة الدجاجة وهي تبيض، ليتني أليّنهما بلساني!». احتاجت نجوى إلى ثانيتين أو أقلّ كي تستوعب ما سمعت، فغرتْ عينيها وأطلقتْ قهقهةً غريبةً عن صوتها. حين استعادت وعيها لم تملك نفسها عن الضحك. أخفتْ رأسها بين ذراعيها المعقودين على خشب المقعد، واستمرّ جسدها يهتزّ، ولم يسعفها النفس العميق في أن تهدأ أو تتوازن.

تسمّرتْ عيون بنات الصفّ كلهنّ على نجوى. هذه البنت التي تصهصل كما لا يليق بآداب المدرسة لا تشبه صورة نجوى المكينة بأدبها ورزانتها وذكائها في أذهان الطالبات والإدارة. وقفت نجوى مخزيّة وغادرت الغرفة، وجمد الأستاذ حسين في مكانه بين مقاعدنا ولوح الكتابة. صار وجهه، وليس شفتاه وحدهما، مزموماً ومحتقناً حقاً كمؤخرة الدجاجة وهي تبيض. مسلوباً دار بعينيه بيننا كأنّه يسأل نفسه ويسألنا: هل هذه البنت قليلة الأدب هي نفسها نجوى التي تنعقد آمال مديرية التربية عليها لتنال الدرجة الأولى في مدينتنا أو تكون من الطلاب العشرة الأوائل في سوريا؟

حين وصلت نظراته إلى مقعدي كنتُ قد أعددتُ له غمزةً من عيني. غمزةً شوارعيّة أسقطتْ آماله كلها. لا يريد تصدّيق ما رأى، فهو لم يفق بعد من حماقة نجوى. استدار نحو الشباك ربما ليفكّر بمخرجٍ لائقٍ لا يضطره إلى الشكوى لإدارة المدرسة كما يفعل المدرّسون الضعفاء.

سكن الصف كله كمقبرة. حزم أستاذنا أمره وقرّر أن يكمل الدرس. غمغم ببعض حروفٍ غصّ بعدها وانعقد لسانه. ذابتْ من فمه الكلمات. جاهد ألا ينظر إلى أي اتجاه، لكنّ عيناه قادتاه إليّ، وكنت مستعدةً بكل خفةٍ لأصعقه بغمزتي الثانية. بدا أستاذنا الآن أصغر من دجاجة، صوصاً صغيراً للتوّ فقس، يبهره الضوء خارج حضن قشرته. تطلع حوله وسار بركبتين متقصفتين ليسند ظهره إلى الجدار ويستردّ أنفاسه واستسلم الصفّ كله لجنيّ الصمت.

بيأسٍ لا رجاء بعده ألقى الأستاذ قلمَي الطبشور الأبيض والزهريّ على الطاولة، لمّ عنها دفتر تحضيره وقلمه ونظارته وخرج. كان ذاك آخر درسٍ له في مدرستنا.

احتفيتُ يومها بأولى انتصاراتي الشريرة، أخرجتُ نجوى الأفلاطونية عن طور كمالها، جنّنتُ أستاذنا الشاب الذي جاؤوا إلينا به معلّماً بديلاً مؤقتاً وهو لا يزال بعد في سنته الجامعية الثانية، لا يكبرنا إلا ببضعة سنين حتى أنني أجزم أن أضراس العقل لم تنبت في حلقه بعد. المسكين لن ينام هذه الليلة لا بسبب نجوى، بل بسببي أنا. هو ذنبه لا ذنبي أنّه أوحى إليّ في أول دخولٍ له إلى صفنا أنه يصلح لأن يكون حبيباً لا أستاذا!

قبل أن يُغيّبوه، كان أستاذنا الأصيل يلقّمنا الكيمياء بطلاوةٍ رغيف الخبز المغمّس بالسمن والسكّر. كان صديقاً لوالد نجوى الذي شرح لابنته أنهم أخذوه خوفاً على التلميذات منه، كي لا يخترق بجاذبيته عقولهن الفتيّة ويأخذهن تابعاتٍ له في حزبه الضالّ وأحلامه الواهمة عن دولة العدالة والأطفال السعيدين.

***

من أوراق نجوى:

في سبعينات القرن العشرين طاف المدّ اليساري كثيفاً وغزيراً بين المعلّمين والمحامين والمهندسين والأطباء الشباب وطلاب الجامعات والمدارس وحارات وبيوت الفقراء الطامحين، انتشروا بينهم جماعاتٍ يلهبها الحماس وتجمعها الكتب الحمراء ومحاضرات التثقيف ومسابقات القراءة، احتفى فتيانهم وفتياتهم حدّ الوَلَه بأدبيات غيفارا وبالروايات الرخيصة السعر والأنيقة التجليد والمتفاوتة بين أدبٍ رفيعٍ أو ركيك عن الحرب الوطنية العظمى السوفييتية، حفظوا عن ظهر قلب (كيف سقينا الفولاذ)، ولم تندُر بين مُنظّريهم خياراتٌ عُليا في قراءة تولستوي

وشولوخوف.. تنقضي سهراتهم حتى الفجر في النقاش والأغاني والغرام الإيديولوجي الفرديّ أو الجماعيّ، والعلاقات النارّية المكتفية بنفسها أو المفضية إلى زواجٍ فكريٍّ واجتماعيٍّ في آنٍ معاً، يُسلِمون إليها عطشهم المزمن وآمالهم الوفيرة بدولةٍ يسود فيها المنجل والشاكوش. سريعاً انقسموا فيما بينهم، تاهوا بين يسارٍ متطرّف، ويسار إكسترا ويسارٍ معتدل وطفولةٍ يسارّية، وبين تأييدٍ أو تبريرٍ أو إدانة لما يروق لهم أو لا يروق. هلّل بعضهم لسيطرة الفكر الإقصائي الشموليّ، وسخّف الداعين إلى الديموقراطية أو العلمنة. وتسابقتْ فصائلهم إلى تخوين الآخرين ووسمهم بالبرجزة، بينما عيون السلطة تتبعهم جميعاً وتصطادهم أفراداً وتلوّح بالتنكيل بهم جميعاً إن لم يعودوا إلى حظيرتها.

***

حين وصفتُ لنجوى شكل مؤخرة الدجاجة وهي تبيض كنت أستعيد مشهداً يوميّاً محفوراً في عيوننا نحن بنات الصف. كنا خمساً وأربعين طالبةً وجميعنا نسكن في البيوت العربية (فيما هياكل الشقق الإسكانية الحكومية، تتوزّع عشوائياً في قلب مدينتنا وعلى أطرافها، و لم يكتمل أيٌّ منها للسكن بعد). تُحيلُ النساء فسحة الأرض حول البيت إلى مزرعةٍ مصغّرة للخضرة الموسمية بينما يهتمّ الرجال بالشجر. وتربّي النساء خلف البيوت الدجاج والحبش والبطّ، وعنزة أو غنمة أو بقرة أو قبيلة أرانب شرهة لا تتمنّع عن قضم قشور البطاطا والباذنجان والكوسا حين لا تطال الجزر.

في بيتنا كنا نربّي الدجاج. نتناوب بالدور نحن البنات على إطعامه. ندلق الفائض من طعامنا في (سطل الجاجات) المركون

خصّيصاً لهن في زاوية مطبخنا، نضيف إليه الخبز الجافر وبقايا الماء في إبريق المتّي، نمعس الخليط حتى يلين كالعجينة ونحن نكبت شعوراً فائضاً بالقرف والغثيان. في الخمّ نعيد تفتيت الخليط إلى كراتٍ صغيرة تتسابق الدجاجات على التهامها، ومع أنهنّ كلهنّ أخواتٌ بالحضانة فلن تتورّع إحداهنّ عن نقر أختها حتى الأذى إن اقتربت من الكرة التي سقطتْ أمامها.

يوم دوري في جمع البيض أجلس القرفصاء لأرقب مؤخرة الدجاجة تتقلّص وتتمدد وتتشقّق وتتجرح، أعينها بعينيّ وانتظاري ودهشتي وتعاطفي، أُكوّر يديّ صحناً تسقط البيضة فيه ساخنةً وموشّحةً بلطخات الدم. بحذر العميان أصعد بالصحن عبر الدرجات الستّ لتصل الغلّة سالمةً إلى أمي التي تُخفيها في دخاشيق سريّةٍ في غرفة الكرش تحسبًّا من أن يكتشفها أبي إلى أن تبيعها للتاجر الجوّال وتُخفي ثمنها في جزدانها السريّ. لا تنسى أمي أن تشيل خمس بيضاتٍ تصمدها في صحنٍ مطعَّجٍ في (نملية) المطبخ لتكون فطورنا الاحتفاليّ صباح الجمعة أو حين يأتي ممدوح من دمشق. وفي باقي الأيام نشتهي أن يزورنا ضيفٌ طارئ لنأكل ما تبقّى في قلاية البيض بعد أن يشبع.

أبغَضُ الأيام كان يوم تعزيل الخمّ من قاذورات الدجاج، نقتلعها بالمشحاف ونحن نتقيّأ، وتفتتها أمي وتوزّعها حول جذوع الشجر كسمادٍ بيولوجيّ وبالضرورة صحيّ وإن كانت لا تأبه كثيراً لهذا الأخير، ثم نُعفّر أجنحة الدجاجاتؤد.د.ت لنقتل النَّمَس السارح في ريشها.

الديك الوحيد الملوّن الريش فخر مملكة الدجاج تلك، صياحه أعلى من قوقأة دجاجاته، وحصتّه من كرات الطعام أكبر من

حصصهن بما لا يُقاس، ولن تمانع إحداهنّ حين يحلو له أن يركبها وإلا فإنه سينقدها بمنقاره من عُرفها الأحمر الهشّ ويُخضعها بضربات قدميه إلى أن تربض وتنكّس عرفها الدامي وتُدني إليه مؤخرتها باستسلام.

تحرص أمي على إغلاق الخم قبل حلول العتمة، فقد يتسلّل الحصيني ليلاً من بين رجوم السهول الغربية، ينقضّ على عنق الدجاجة، يخطفها ويجري بسرعة الطير ليخفيها في وكره ويعود في هجماتٍ لن تنتهي قبل أن يعقر أعناق جميع الدجاجات ويسحبهنّ إلى وكره قبل طلوع الصباح.

ليس ديكنا وحده، كل الديوك لا تحمي الدجاجات الضحايا من أنياب الحصيني إذا هجم.

(بعد سنوات ستعثر أمي على شبهٍ بين هذا الديك القليل الخير وأخي ممدوح: «ممدوح مثل الديك، تتعب عليه كل السنة، ولا يكفيك عشاء ليلة»).

إرقاد الدجاجة على بيوضها مطلع كل ربيع كان أحد أعياد أمي. جدّتُها أورثتها علوم إنتاج الصيصان، فالدجاجة لا تربخ إلا إذا كان عدد البيوض تحتها فردياً لا زوجياً، وأفضل الأعداد هو سبع عشرة بيضة، و(القُرقة) الرابخة فوق بيضها تتوحم مثل النساء، وتشتهي مثلهن، وتُكرم نفسها بأكل بيضها حتى لو أسرفت أمي في تدليلها بالقمح البلدي. تُميّز القرقة باحترافٍ في أي البيوض تحتها قد انعقدتْ روحٌ صغيرة، هذه لن تنقرها بقصد الأكل حتى لو فاض بها الوحام، تعرف أنّ صوصاً سيفقس منها حالما تنتهي مدة حضانته البالغة واحداً وعشرين يوماً منذ بدء الإرقاد. غير أنّ أمي التي تحفظ

طباع الدجاج وهواياته وأهوائه وتقلباته ووحامه وأمومته، لم تكن تفقس من بيوض دجاجتها السبعة عشر إلا ثلاثة أو أربعة، وفي كل موسم تندهش: لماذا لا تفقس صيصاني كلها؟!

4

أوّل بنتٍ خُطبتْ في صفنا كانت أرجوان. رأتْ صورة «صقر» يقف أمام واجهة متجرٍ ضخمٍ للألبسة والسيجار في فمه، مكتوبٌ على قفا الصورة بخطٍّ مريض: «الملك لله/ هذا مخزني». حملتْ أم صقرٍ إلى بيت أرجوان صورةَ ابنها المسافر إلى البرازيل منذ دستةٍ من السنين، كم عددها بالضبط؟ تذكر أنها كانت نفساء بأخيه نمر يوم ودّعته، وصار نمر بطول أبيه وهي لم تزوّج صقر بعد. انشرحتْ أرجوانُ وأهلُها للعريس ومتجرِه، وألبسها أخوه نمر خاتم الخطوبة بالإنابة عن أخيه في حفلٍ باذخ، على أن تسافر إلى عريسها صقر في مطلع هذا الصيف.

الخاتم، الحلقة المشتهاة، زنّار الأصبع والمصير، بالدّور استعرنا في الصف خاتم أرجوان بمن في ذلك نجوى، واحتفينا ببناصرنا تتوهُّج وسط استدارته. إلّا سحر؛ في دورها تأملّته وقلبته بين كفّيها ثم أعادته إلى أرجوان.

أقمنا لأرجوان عرساً مدرسيّاً أجمل من حفل خطوبتها المطنطن. زغردنا، رقصنا، حين انتهت وصلةُ رقصي فككتُ الشال عن خصري وربطته حول خصر نجوى، استحتْ نجوى أولاً، ثم أخذتها الحميّة مع نقرات أصابعي على خشب المقعد وتصفيق البنات. نزلتْ (طبيبةُ المستقبل) من هودج تفوّقها، شلحتْ حذاء الفتوّة وأحالتْ

أرض الصف مدرجاً لاهتزاز خصرها وموج رجليها، ثم ذابتْ معنا في حلقة الدبكة:

ثوبك يللي تحرّينو يالله يالله.. طيّر عجاج القاعِ دخيل الله/

ولفك يللي هويتينو يالله يالله.. راح وخلاّكي بساعِ دخيل الله/

قرع الجرس وأخرس حفلنا، كانت نجوى تضحك، وأرجوان تبكي.

لم تغادر سحر مكانها القصيّ لصق حائط الصفّ أثناء حفلنا المدرسيّ، اكتفتْ بأن ركنتْ كتابها وفردتْ يديها جناحين يرفرفان وحدهما بعيداً عن جوقتنا. كانت في مكانٍ ما بعيدٍ عن الضحك وعن البكاء، تتشمّس بدفء أحلامها الأبعد من أن نراها نحن اللواتي لا تعرج أقدامنا في المشي ولا تعاندنا في الرقص.

من قبل أن تُخطَب، تعلّمتْ أرجوان كيف تشذب حاجبيها بالملقط وتفرش خديها بطبقة من أحمر الخدود أرقّ من أن تكتشفها موجّهة المدرسة، وكيف تلحس قرن البوظة بإغواءٍ في ساحة المدينة وتستلم رسائل الغرام من شباب الثانوية وتروي النكات البذيئة بلا حرجٍ مثلما تروي حِكم سالم الأخوث: (سئل السيد سقراط: لماذا لا نراك محزوناً؟ فأجاب: ما عندي شيء لأخاف على فقده، ولا أنوي امتلاك شيء يحزنني فقده).

وشغلتنا أرجوان بجهاز عرسها؛ الدانتيل المزهّر على قمصان نومها، دوخة العطور الأجنبية، نعومة الطواويس على شرشف السرير، علب الماكياج ذات الطبقات الثلاث، رهافة شراشيب الريش على مشايات البيت، تشوبر أرجوان بيديها كشجرةٍ ثقلانةٍ بثمرٍ برّاق، برق الخواتم في أصابعها وأساور الذهب الستّة حول زندها

وسلسال الذهب بليرته العصمليّة حول عنقها. التقطتْ لنفسها صورةً في الاستوديو بكامل زينتها، وبعد أن أضاف المصوّر طوقاً من الريش الصناعي حول كتفيها. طلبتْ منه أن يطبع لها منها نسخاً على عدد بنات الصف. في بيتنا مرّرتْ أميّ يدها بحسرةٍ على طوق الريش الأزرق حول عنق الصورة: (البنت تحلو حين تُخطَب).

قبل امتحانات ذلك الصيف حملت الطيارة أرجوان إلى البرازيل، إلى البلاد التي تسقي زائريها شراب النسيان، وأبقتْ لي منها ديوان نزار قباني «قالتْ لي السمراء» وبعض فساتينها القديمة. لاحقاً ستجبر أغراضُ أرجوان خاطري المكسور وتعينني على الهندام كامرأةٍ مكتفية.

كل بكاءٍ قبل غيابها كان مطر صيف.

5

كلما ارتقى ممدوح عاماً في دراسته الجامعية، شحّت زياراته إلينا، وتقصقصتْ أطرافها. في عامه الأول في جامعة دمشق صعُب على أبي فراقُه. رجاه أن يعود كل أسبوع. في العام الثاني بدأ ممدوح يتملّص: «يتعبني الطريق، يُعمي عينيّ غبارُ التحويلة على طريق الشام»، ويعده أبي أن يشكو لرئيس دائرة (النافعة) هذا المتعهّد (الواطي) ليكمل تعبيد الطريق. ولم يكتمل زفتُ الطريق وصار ممدوح يغيب شهراً، يأتي من الشام في العشية ويغادر في الصباح مُزّوداً بمصروفه وكراتين محشوّةٍ بالمؤونة، وبالغلّة التي تدسّها أمي خلسةً في جيب بنطاله. تلك الخمسون ليرة، حصتي من حياكة الشال، حطّت في جيب ممدوح..

يوم بشّر ممدوحُ أبي أنه ترفعّ إلى السنة الثالثة في كلية الهندسة المدنية، حمل أبي البقلاوة إلى الجيران، وإلى مدير دائرته ليحلّي اضراسه، وليذكّره، بالمناسبة، أنّه أبو «ممدوح» الذي قارب يصبح مهندساً.

وُلد ممدوح في مرج العكوب، طبطبتْ العمّة زين المحضر على البندول بين ساقيه وأعلنتهُ ذَكراً سنداً لأبيه، فمنذ ولادته سيتعدّل اسم أبي من مرهج أبو شال إلى: «أبو ممدوح». بعدها بسنةٍ انتقل مرهج – أبو ممدوح إلى المدينة وتقاطرت على بيته ست بنات،

تبحث الدايةُ عن بندولٍ فلا ترى بين ساقيّ المولود سوى خطين كئيبين بينهما فرجةٌ لامعة، تلطم البنتَ على قفاها وتبربس: «انقلعي. الله يعين بيّك عليكِ». زعقتْ تذيع البشارة المتأخرة يوم ولادة عناد، آخر نتاج أمي، ببندولٍ ضامرٍ كأنه يخجل ببروزه وسط جوقة البنات. كنا كبرنا وملأنا البيت كذباباتٍ عملاقة، وكان ممدوح يتجهّز لبدء حياته الجامعية في دمشق، فلم ينعقد بين أول العنقود وآخره أدنى وصال.

***

شيءٌ ما تغيّر في ممدوح الكئيب والباهت كعودٍ جفّ منه النسغ. كأنّ عشباً تعمشقَ على كتفيه ورشّ الندى على وجهه وأرسله إلينا عصر هذا الخميس. هتف قلبي من غير صوت: «أخي عاشق»! قّبل ممدوح يد أبي بوقار وعانق أمي مثلما يدفن الأبناء البررة وجوههم في أحضان أمهاتهم في مسلسلات السهرة، وأبقى حقيبته معلّقةً في كتفه وهو يوزّع علينا علكة البالون. نفختُ بالون علكتي فأطفأته أمي بكفّها على وجهي. لملمتُ نتف العلكة عن شفتيّ وعدتُ أعلك.

«ووجع! ابصقيها. لستِ طفلةً لتتشدّقي بها، كان أولى أن تعطيها لعناد...». «بماذا أذنبتْ حياةُ لتضربيها؟». «الأدب زينة البنت، ما كان عليك أن تجلب العلكة لأخواتك يا ممدوح. هاتِ ثيابك لتغسلها حياة». «سأغسل ثيابي بنفسي..».

قبل اليوم كان ممدوح يرمي حقيبته عند البوابة، مخموصةً كبطون عارضات الأزياء على القناة الإسرائيلية، ليس فيها سوى

ثيابٍ مدعوكةٍ بلطخات الحبر وفتائل الممحاة وزيت المكدوس وعرائس الزعتر، تنتشلها أمي وتحشر عينيها في قعرها: «أين سطول الفراغات؟ نصف أغراض مطبخي صارت في الشام». لا يجيب ممدوح ولا يعتذر، ليس في هذه السطول الصدئة ما يستحقّ مشقة حملها من العاصمة. تومئ أمي لعفاف: «قومي اغسلي ثياب أخيكِ». تسد عفاف خشمها قرفاً من زنخة العرق والزيت والبقع الغامضة، تأتيها فرصةً لشتم جنس الرجال من أبي إلى أخي إلى العريس الذي لا يريد أن يأتي، تفرك ثياب ممدوح بحنقٍ فيطرطق اللكن الحديد ويطرطش منه الماء كأنّ سيارةً مسرعةً عبرت فوقه، تمسح عفاف دمعتها بطرف كمّها، تقف، تسند ظهرها المغلول وتمشي بشحاطتها البلاستيك لتنشر غسيلاً ما يزال الماء يشرشر منه، تنقطع الشحاطة ويطير صواب عفاف. لن تهدأ قبل أن ترقعها أو تنقّ على شراء جديدةٍ من شارع الصرامي.

***

سوق مدينتنا صغير، شوارعه قصيرةٌ وعددها أقل من أصابع اليد، وليس فيها واحدٌ يختص ببيع أشياء بعينها سوى شارع الصرامي. تتدلّى الصناعة الوطنية من سقوف محلاته كذبائح مستسلمة. صرامي كاوتشوك، بلاستيك، كنادر للسهرة وجزمات لرحلات الصيد وخفوف قماشٍ مطرّز لحديثي الولادة، وجلدٌ صناعيّ رديء من كل لونٍ وموديلٍ ومقاسٍ. تحفظ عفاف موديلاتها عن ظهر قلب، وحين تهترئ شحاطتها تشتري نسخةً طبق الأصل عنها: سوداء، ملساء، بلا رتوش تدسّ رجلها فيها وتتطلّع فيّ: «جميلة؛

أليس كذلك؟»، أنحمق: «غيّري ولو مرّةً ذوقك الجامد كصبّة الباطون يا عفاف». تمطّ بوزها: «وليش التغيير؟ أنا هيك مرتاحة».

لا أحد يعرف لماذا تباعُ الشموع أيضاً في شارع الصرامي! منه تشتري عفاف لأمي شموعاً بيضاء ثخينةٌ وقصيرةٌ ورخيصة لتفي بها نذورها لمقام (عين الزمان) ليسعفنا بالعرسان ويُعِين ممدوحَ على التخرج وعنادَ على النجاح من صفٍّ لصفٍّ ولو شحطاً. تكتفي عفاف بالفرجة على الشموع الطويلة المطعّمة باللون الزهريّ الغامق والنقوش الذهبية. هذه غالية الثمن ومعدّلُ بيعها أدنى بكثيرٍ من البيضاء القزمة، وهي حكرٌ لقائمة النذور الفخمة، للذّكر الذي آنس بيت أهله بعد سبع بنات، أو لذكرٍ تأخر ختانه أربع سنين حتى يعود أبوه من مغتربه، أو لدغته أفعى ولم يمت أو صدمته سيارةٌ ونفذ من تحت عجلاتها بأعجوبة. ينتقون لكل صبيّ شمعةً بطوله، (على الميللي)، وإلاّ فقد يهدّد الوليُّ برفض النذر. لا تُنذَر الشموع للإناث، الأنثى غنيّةً عن شفاعة الشمع لأنها بسبعة أرواح وستنجو حتى لو دقّوا رأسها بحجر.

***

على العشاء بالغ ممدوح في إطرائه على أكلة المغربية.

«كان ينقصها القليل من السمنة البلدية» – ماءت عفاف بحذر أمٍّ تخشى أن يفيق رضيعها، فلا أحد سوى ممدوح يجرؤ على التوسط لدى أمنا بمطالبنا الصغيرة دون أن يثير غيظها: «أليس في هذا البيت قليلٌ من السمن؟!». تزمّ أمي شفتيها وعينُها على أبي الذي سيقذفها حتماً بشتيمةٍ من قاموسه الثريّ: «ليس بيدها يا بني، حطوا

ذيل الكلب أربعين سنة بالقالب...» تتمترس أمي خلف جسد عناد، ترفع أصبع يدها اليمنى بحيث لا يراه أبـــي، وتفهم عفاف أن عليها أن تقوم وتسخّن ملعقة واحدةً من السمن.

ناداني ممدوح بعد حفل العشاء إلى غرفته التي يحتلّهـــا وحـــده. «أيهما برأيك أجمل: لون أحمر الشفاه الفاقع أم الهادئ؟». أجبتـــهُ أن الفاقع موضةُ هذه الأيام، وفهم ممدوح أنّ عليه أن يضحك. كان جرّ حقيبته معه إلى حصن غرفته، أدار لي ظهره وأخرج منها محفظة يـــدٍ من الجلد الأنيق حاول إخفاءها بكفّه، بالكاد ميّـــزتُ رأس الوعـــل المطبوع على جيبها: «دعي الأمر سرّاً بيننا. اشتري لي بهذه الـــ 200 ليرة أشياء تراثيّةً من محلات أبو وليد، أعني شالاً أو جـــزدان. أريـــد كذلك مشطاً وقلم حمرة، و.. ماذا يمكن أن أشتري بها بعد؟»

(مائتا ليرة يا ظالم؟ أحتاج ربما عامين، أتوسّل خلالهما لأمي، أو أسرق أرباع وأنصاف الليرات من جيب أبـــي كي أجمع نصـــفها، وأنت تبذل 200 ليرة بشجاعة من يرمي قشور البطيخ في الزبالة).

«يمكنك أن تشتري بها أيضاً قميص نومٍ حريـــر، و... كيـــف أقول؟، هذه التي نسمّيها ثياب داخلية، ستيانة وكلسون مثل بعض، يعني طقم.».

كنتُ أُسمّي له ما أشتهي، وفي السوق شممتُ عطر أحمر الشفاه، مرّرتُه على ظاهر كفي لأرى لونه قبل أن يسافر إلى صـــبيّةٍ أخـــرى هناك في الشام حيث استبقى أخي قلبه، و لم أسأله ماذا كان ســـيفعل لو درى أنّ أخته عاشقةٌ مثله.

«هل ستقنع أبـــي أن يســـمح لي بـــدخول الجامعـــة بعـــد البكالوريا؟»

«ولَمَ العجلة. لا أعرف إن كنت ستنجحين. لماذا نفتح قبل الأوان جبهة مع أبي أو أمي؟».

منذ بزغ ثديي كنت أريد أن يكون ممدوح صديقي، أن أصحبه إلى الشام، يأخذني تفاحةً جبليّةً تتقشّر في الشام، أذوق طعم العرقسوس في سوق الحميدية، أشمّ بخار الكمون والليمون فوق عربات الفول والترمس، آكل البوظة العربية بالفستق الحلبيّ في محل بكداش، أكشّ أرتال الحمام الناعس في ساحة النبي يحيى. أو لو يدعوني للخروج معه هنا إلى سوق مدينتنا، أشبك يدي بذراعه وأمشي قربه، على حافّة قلبه، نثرثر ونحن نأكل العوامة في محل سرايا، وأختلس النظر إلى الشباب حولنا، أقول لهم بعينيّ أنني مثلهم أضيق بهذا الزمن البذيء، أننا، كلنا، ننتظر سراباً يهطل علينا من سماءٍ خرافية.

لكن ممدوح يخرج وحده، ويعود في آخر السهرة، وأبي ينتظره وأمي تحاول استثمار حضوره لتتوسّل إلى أبي للمرة الألف أن يسمح لها بزيارة أهلها في «مرج العكوب»، وترى الوعيد في عينيه فتخرس.

«لا تسافر غداً، ابق معي لنزرع الغراس الجديدة. لم تعد الخوخة تثمر، ولا الجارنكة ولا المشمشة.، لا أقدر وحدي على قلعها».

«لستُ فهيماً في علوم الشجر يا أبي».

لا يصبر إلى أن يلفظ أبي من بطنه كلَّ مشاريعه الشُّجاعة حول الشجر والزواج وبناء طابقٍ عُلوي فوق بيتنا يهديه لممدوح فور تخرجه من كلية الهندسة. يدلّي ممدوح رقبته وينعس.

جالساً تحت صورة أبي في المضافة بشعره الممشط إلى الخلف والمغمّس بالبرينطين، بدا ممدوح شديد الشبه بأبي، بجبينه العريض،

بنظرته المخاتلة، بسرٍّ غائرٍ خلف البسمة الشاردة. لربما كان نسخةً طبق الأصل عن أبي لو لم يقصّ أخي شعره، ويجعل مفرقه إلى اليسار لتأخذ ملامحه نسقاً بعيداً عن أبي وعن حياتنا.

أخي يكذب على أبي، وأنا أكذب على أمي وتدير أمي وجهها عني إلى أخيلتها. صدّقتْ أنني في تدريب الفتوة الإجباريّ بعد الظهر بينما كنتُ أصحب أرجوان في مشاويرها إلى العساكر الغرباء. واعدتْ أرجوان المجنّدَ الحلبيّ في غرفته، وانتظرتها في المطبخ الملحق بالغرفة، أحرس لها الطريق ومن خلفي روائح مغرية. خرجتْ أرجوان برقبةٍ محمرّة وشفاهٍ منتفخة وكيسٍ برائحة الغار: «تستحقين نصف هديتي، صابونة من ريف حلب».

عبقُ الغار طيّب. كيف هي إذاً رائحة الحب؟

انكمشتُ، وضحكتْ أرجوان: «تذكّرتُ عمّتي..». من عمّتها تعلّمتْ أرجوان معنى الستر، كانت كلما ساعدتْ عمّتَها في فرك كنبايات الصالون حتى تلمع كأثاثٍ طازج، تُدهِش عمتها بيديها الرشيقتين كمغزلٍ يدور، تحضنها العمةُ وتدعو:

«يستر على نُصّك يا بنت خيّي..»

لم تكن أرجوان تعلم وصارت تعلم:

«السترة في صون نصفك التحتانيّ، تحت الزنار.

تمتعي ما شئتِ فوق حدود الزنار على أن تصوني ما تحته».

6

على مدار العام تغفو مدينتنا كقطةٍ ضجرانة، وفي مطلع الخريف يصحّيها مهرجان الكرمة والتفاح. من ساحاتِها وكراجها وعلى بوابات مدارسها والمتاجر والدكاكين تطلُع صورُ ملكاتِ جمال الكرمة، خلفهن أعمدة بازلتٍ بتيجان منقوشة وأمامهنّ تلال التفاح والعنب، وعلى أكتافهن جرار الماء كما جدّاتُنا العائدات من طريق النبع.

مهرجانُ الكرمة والتفاح صحّاني..

قادتنا الموجهة في رحلةٍ مدرسيّةٍ إلى معرضه في الملعب البلدي. جرّاراتٌ زراعية، مرشّات المبيدات الحشريّة، أسماء مزارعين فازوا بتقديرٍ على أكبر عنقود أو تفاحةٍ منحتها كرومهم. ضعنا بين تلال الثمر قبل أن نصل صدر القاعة حيث ملكة جمال هذا الموسم بطربوش الرأس المشنشل بالذهب، بالبدلة العربية الملونة، بخصرها المكروب بالمملوك فوق التنورة الطويلة حتى الأرض. وصيفتاها حولها بزيٍّ شبيهٍ وبسمةٍ غائرة، لا تجزمان هل هما أقل من الملكة جمالاً أم حظّاً أم واسطة!

لم يسمح لي أبي أن أنقر باب حظّي بينهنّ. قال لي وقت التسجيل في مسابقة الملكات: «ذاك العالم ليس لنا». هذا العالم ليس لنا، ينسكب صوتُ فيروز من مكبرات الصوت في سقف القاعة (يا جبل اللي بعيد، خلفك حبايبنا، بتموج مثل العيد، وهمك متعبنا).

كلفحٍ ناعمٍ حطّتْ أصابعه على كتفي، بالكاد، كالعبير، لمسني وانسحبْ. جفلتُ، استدرتُ واستدارت معي الشريطة الخضراء على كتف بدلتي المدرسيّة، واستدارتْ عناقيد العنب البلدي والسلطيّ والعجلوني والحلوانيّ والزينيّ والأسود. وتلقّى شهقتي بعالي قامته وملاحة قدّه، بصوته، جرسِ اللهفة الذي يا ما انتظرتُ. تبعثرت القاعة والتفاح الأخضر والأحمر وجمهرة الناس والملكات وصوت فيروز.» يا جارتي الصغيرة: في قلبي أنتِ الملكة».

هو ناصر، ابن جيراننا الذي طاردني بعينيه من شبّابيك بيتهم إلى مطبخنا إلى الغرفة إلى البرندا إلى أرض الدار، وصلّيتُ كل يومٍ ألا يكفّ عن طراده. كنت أظنه يشبه محمود ياسين، هو في القرب أجمل؛ أسمر بسالفين عريضين وشعر (خنفس) وصدرٍ فسيحٍ وذراعين مفتولين، يخصر خنصره بحجر فيروزٍ على خاتم فضة، أظفر خنصره طويلٌ وناصع، تحت قميصه الأبيض المكويّ مرجُ شَعرٍ أسود، وعلى الأرض التي مادتْ تحت قدميّ وقعتْ عيني على خفافته الرياضية البيضاء المعقودة بإتقانٍ وليس عليها ذرّة غبارٍ ولا لطخة وسخ.

تلاشى كالبخار كل ما نسجتُ في خيالي للقائه، وجافتني جسارتي التي تُعيّرني بها أمي.

كان الهرج علا في حارتنا مع قدوم عائلة «أبو كمال». لم تغفر لهم أمي أنهم حرموها مكبَّ الزبالة، وأنّ عمارتهم حجبتْ عنها فضاء بيتنا الشرقي، كانت ترقب منه رسولاً يأتي بخبر عن أهلها في مرج العكوب، وتطمر حروق انتظارها الخاوي بتراب الكتمان، وترفض التعاطي مع أية جارة جديدة ستحاول كالعادة نكش ماضيها في لقائهما الأول.

في بيت أم كمال شربت الجاراتُ المتي بالقرعة المنقوشة في لبنان، وتفرّجن على منديل رأسها المطرز بالإبرة وعلى التلفزيون الملون المهرّب من لبنان، وأعفتْ أمي نفسها من رفقتهن: «لماذا عليّ أن أُكرِمها بزيارة؛ ابنة خربة الذياب هذه التي تطرطن باللهجة اللبنانية؟!» وعادت الجارات من عند أم كمال يحملن إلى أمي جواب نميمتها طازجاً: «قالتْ أنكِ قبيحة، ومقطوعة من شجرة، وأنك أم البنات»، وسرى النمل تحت جلد أمي ينبئها بسوء طالعٍ آتٍ مع أم كمال. زرعتْ شجيرات صبّار على الحدود الساخنة بين بيتينا، وأزهرتْ صبّاراتنا بورودٍ صفراء تشمتُ بصنوبراتهم وغرستْ أشواكَها في كلّ غصنٍ مالَ من بيت «أبو كمال» إلينا. كلُّ هذا و لم تدرِ أمي بعدُ أن ابن الجارة العدوّة يغازل إحدى بناتها من خلف شبّاكه ولا يراعي آداب غض البصر بين الجيران.

من خلف الغصون يحوم وجه ناصر كطائرٍ ملتاع، وأنا خلف شبّاكي أتظاهر بالحياكة وأشرب نظراته بفرحٍ لا تعقبه ندامة، أتلمّس ندبة الجرح القديم، لعبة الغميضة، دفشة ممدوح، ارتطام رأسي بعامود العمارة، سيلان دمي على أرضها، بشارة أمي أنني ملكتُ في بيتهم موطئ قدم.

طارت أحلامي على جناحِ ريح. تعفّر خدّاي بدحنون نيسان واستحال قلبي جمرة، فالقدَر السعيد وحده حمل عائلة أبو كمال من جنان لبنان إلى سويدائنا المغمورة فقط ليلقاني ناصر الذي لا يشبه أخي ممدوح، ولا شباب الثانوية على باب مدرستنا، ولا الرجال الواجمين في شوارع مدينتنا، نسخاً باهتةً لا إبداع فيها ولا جاذبية.

فقط لو يأتيني اليقين: هل رسائل غرامنا الشفهية هذه بين شبّاكينا حقيقةٌ أم تيه؟ أهل مدينتي كلهم هائمون بين حياةٍ مكشوفةٍ وأخرى تسري في الظل وفي العتمة، خلف الشبابيك، عبر أسلاك الهاتف، في غرف الكَرَش، عبر الرسائل اليدوية أو عبر طفلٍ ينقلها ببراءةٍ خالصةٍ لقاء حبة من الملبس أو ليرة أو نصف ليرة.

ولستُ أستطيع رؤيته متى شئتُ، وجهاز الهاتف محروسٌ بكتيبةٍ من أمي وأخواتي وأخي عناد. يهاتفني ناصر فيطير بي إلى جناح غيمة ويُطفِئ عني فتسقِط روحي إلى قاع بئر، تغمزني رجاء لأحترز حين تلوح أمي آتيةً من المطبخ، وتهمس في أذني حين أُرخي السمّاعة: «يا لهنائكِ يا حياة، ما أكثر معجبيكِ!». نبتتْ رجاء هكذا بين ليلةٍ وضحاها، طفلةً تحوّلتْ إلى صبية حليفةً لي ضدّ عفاف التي تعلن أنّ الحبّ تفاهةٌ كبرى.

«هل عيبٌ يا رجاء أنني وقفتُ مع ناصر في مهرجان الكرمة؟!»

«لا يمكن أن يكون ما فعلتِه سيئاً».

لا يمكن أن يكون ما أفعله سيّئاً. أبي يسهر خارج البيت، وتنعس أمي وباكراً تنام، وعفاف تغفو في موعدها الصارم بعد مسلسل السهرة، وأنا أنسلّ إلى غرفة الكرش في بيت ناصر. يلوح تحذير أمي: «يتسلّى الشباب بكل البنات، ولا يتزوجون إلا التي (ما باس تمها غير أمها..)»، وأنسى وأتفتّح على صدره وردةً جوريّةً، وأسخن وأنساح على الأرض كالهلام، كالفضة الذائبة.

وحرصاً على السلامة المستقبليّة؛ أصون ما تحت زنّاري طاهراً بلا دنس.

أعود فألقى رجاء ساهرة، تبثّني آهةً ناعمة: «عدتِ؟ الآن يمكنني أن أنام بعمق». ولا أنام، أُقلّب في رأسي وعودَ ناصر: «أمانتي أنتِ يا حياة، سأحميكِ من هذه المدينة التي تخنق الحبّ، سأغيب لأجمع مهرك، وأنت ستدرسين وتنجحين، ونتزوج وآخذكِ إلى بيروت وأسجّلك في جامعتها»، وفي الصباح تراه أمي وتشتمه: «هذا الأزعر، ابن أمّه، يتمشّى على البرندا بالبروتيل، ويطرم بمسجلته آذان الجيران»: (يا فدائي خلّي رصاصك صائب/ يا فدائي جمّع شمل الحبايب). وأستعيذ من أمي بوعد ناصر: «لن أتركِ في هذه الغابة المظلمة، إن لم يزوّجونا برضاهم سأخطفك غصباً عن أمي وأمك». وفي المنام أراني معه، أحمل شهادة البكالوريا ودفتر خرابيشي وجديلة الصنوبر، وأبي يلاحقني إلى آخر الأرض، وناصر يحميني من شبح سكّينه.

7

من مدونات المدينة السرية

كان يا ما كان. بنتٌ قليلة الجمال وموفورة العافية، سافر أبوها إلى مغترب بعيدٍ، وتركها مع أمها وأخوتها في المدينة. فزعت أمها حين صارت البنت تتقيّأ كل صباحٍ وتنفر من الطعام وتميل إلى النوم، وتطيل الشرود تحت النافذة، ولا تنشر قطع المقصور التي علّمتها كيف تغسلها وتغليها مع برش الغسيل بعد ميعادها الشهريّ. تأكّد ظنّ الأم حين عادت البنت تأكل بنهم ويتكور بطنها تحت ثوبها الفضفاض. لا أحد تشكو إليه ولا مُعين لها سوى حكمة الأمهات في المحن. تعرف ألا أحد من أبنائها يحب فطائر اللبن والبندورة والبصل سوى هذه البنت النهمة. تخبز لابنتها فطائرها التي تحب، تضيف إليها ملعقةً من الزجاج المسحوق بإتقان. والبنت تأكل ونثار الزجاج يمزّق معدتها على مهلٍ، ولا تجرؤ على الشكوى لأمها من رعبٍ يمزّق صدرها وألمٍ وحرارة في بطنها، ودمٍ قانئٍ يُخالط برازها. اصفرّت البنتُ ونحلتْ. انقطعت عن الأكل وصار لبطنها ملمس الخشب، وملأ أنينها البيت. لم تفارقها أمها. تجلس قرب فراشها، تسقيها ماءً دافئًا وتمسح عن جبينها حبّات العرق البارد. حين تفيق البنت من غيبوبتها، ترمق أمها بعينين منطفئتين: «أعرف ما بي يا أمي، سامحيني»، وتجيبها عينا الأم المحروقتين بالدمع: «أعرف ما بك يا بنتي، سامحيني».

ناصر أوصاني: «حياتي، انتبهي لمدرِستك»، وغـــاب. أهـــداني كاسيتاً بأغنيةٍ وحيدة؛ «ناتالي.. انقطعت أخباره. ما تشوفه عـــين/ رحت أنا، رحت بصّارة، قالت برجك فين؟/ برجي بالسما، ومعلّق بنجمة..»، وغاب. أهلكني جوعي إليه وأتلفني الـــدرس، وناصـــر غائب.

في محنتي بذل قلبُ رجاء الصغير نفسه مـــن أجلـــي كنشـــيدٍ حماسيٍّ، لكنّ حضورها قصيراً كان كموسم زهرةٍ بريّة.

ولدت رجاء في بيتنا بترتيب الثالثة بين البنات، بسمرةٍ شـــديدةٍ وجاذبيةٍ قليلة. حملتْ فيروس القبح الذي ورثناه من أمي، ونجوتُ منه بطفرةٍ موفّقة بشهادة جاراتنا. أتتني رجاء بلحسة برينطينٍ من علبـــة أبـــي لأسبّل لها شعرها الخشن كمكنسة. لعلّها تصـــير أحلـــى. لم يسبل شعرها وإن صار أقلّ قبحاً. انكفأتْ رجاء عن المرآة لا راضيةً ولا يائسة: «لستُ جميلة».

انشغلت رجاء بالرسم أكثر من وظائف المدرسة، تطلب مـــن ممدوح أن يشتري لها ما ليس في السوق ولـــيس معهـــا ثمنـــه: ورق كانسون، قلم فحمٍ أجنبيّ ومبراة حادّة، يأتي ممدوح من الشام فـــارغ اليدين فتكتفي بعتبٍ رقيق: «لا تنسَ في المرّة القادمة...»، وتنصرف لتدليل مقتنياتها: تهزّ ثمراتُ بلّوطٍ جاءت بها من رحلـــة المدرســـة إلى الحُرش، وتصغي إلى موسيقا ارتطامها. تمسح أوراق جديلة الصـــنوبر التي أهديتها إليها، ترتّب أعقاب أقلام التلوين التي أفنتها في الرســـم، تطيل النظر في لوحة الأعمدة والنساء والجرار من معرض الكرمـــة، تغنّي لسنابل قمحٍ مجفّف جمعتها في إحـــدى نزهاتهـــا المســـائية إلى السهول.

تشاجرتُ مع عفاف حين لم تعرني فستانها لألبسه إلى السوق: «أنت بخيلة مثل أمي يا عفاف»، «وأنت كلبةٌ وقحة». وفضّتْ أمي اشتباكنا: «كلاكما كلبتان لا تخافان الله. نسيتما أن العرش في سمائه يهتزّ حين تتشاتم الأخوات؟». وأعطتني رجاء فستانها الوحيد: «هو لكِ، البسيه ولا تتقاتلي مع عفاف، يكفيها ما بها. ثم إن الفستان صار واسعاً عليّ»...

أستذكر كلّ هذا بعد أن رحلتْ. كنا ندرس لامتحانات البكالوريا أنا وعفاف التي رسبت في العام الماضي ويحوم البغض بيننا كالغبار، لا ننتبه لفستان رجاء الذي صار فضفاضاً عليها، ولا لغيابها المتكرر عن المدرسة، وطولِ انغماسها في الرسم. على قفا الأوراق التي يجلبها أبي من مؤسسة النافعة لتضعها أمي تحت قطرميزات المؤونة رسمتْ رجاء وجوهاً نحيلةً وغيوماً وطيورا.

أفقتُ عند الفجر على أنينها كحمامةٍ خائفة، حضنتُها وأرخيتُ كفّي على جبينها المحموم، انتظم تنفسها قليلاً وعادتْ إلى النوم. أفاقت عند الضحى بكسل، أخرجت مخدتّها إلى البرندا، نفضت عنها خصلات شعرها المتساقط وأبقتها لتجففّ الشمسُ عنها رطوبة العرق والدمع، فتحت الكتاب قليلاً، رمته ونهضت إلى المرآة تتلمّس شفوف العظمتين تحت عنقها من تحت جلدها الأصفر. رأيتُ انعكاس نظرتها في المرآة خليطاً من رعبٍ وخواء.

سألها الشيخ الذي أخذتها أمي إليه عن اسمها واسم أمها ثم قرأ في كتابه، قال أنّ نجمها خفيف، وأنّ جنيّاً شريراً يتلبّسها، نسخ لها على ورقةٍ بيضاء رموزاً لطرد الجنّ، طوى الورقة على شكل حرزٍ مثلثٍ أوصاها أن تضعه تحت ثيابها، قرب القلب.

جارتنا سعدى سكبت لها الرصاص في طنجرة نحـــاس. فرقـــع الرصاص وتشظّى، أعلنتْ سعدى انحسار أذى العين الحاسدة لرجاء، و لم تشفَ رجاء.

لم يأخذنا أبـــي يوماً إلى الطبيب، و لم تخبره أمي بحال رجاء إلا حين أصبحتْ تقضي يومها بين الفراش والنهوض البطيء إلى الحمام حين تهجم عليها نوبة الألم، تفرغ فيه ماءً ومخاطاً مدمّى، وتعود واهنةً متعرّقةً، تطوّق بطنها بيديها، تغيم عيناها فلا يبدو منهما سوى بياضٍ مشوّش.

يلزمنا في هذا البيت مَن يتقن الحنان. أبـــي ارتعب. لم يصدّق أنّ طارئاً ما قد يقوّض هذا الوئام السيّئ الذي تربى أسرتنا في كنفه. شـــتم أمي على تقصيرها، مسبّاته الكافرة طالت ربّ الكون. وبّخه الطبيـــب: «تأخّرتَ، ابنتك الآن في طور الصدمة. ربما تكون مسمومةً بطعامٍ فاسدٍ أو دواءٍ ثقيل، كبدها شبه تالف». في المشفى اشترى أبـــي لرجـــاء عصير برتقال فريش، فطن إلى أنه بإمكانه أن يطبطب علـــى خـــدّها، ويمسح جبينها السخن بكفّه الباردة. ورجاء التي، مثلنا جميعاً لم تلمـــس يد أبـــي إلا لتقبيلها كواجبٍ رهيبٍ في صبيحة عيد الأضحى، رفعـــت يدها الضعيفة لتلاقي يده بتلقائيةٍ خالصة، وببهجة طفلةٍ محبوبة، حاولت رفع رأسها قليلاً لتسرّ إليه بشيءٍ ما، انكمش وجهُها وانخطفتْ يـــدُها من يده لتحضن بطنها المتصلّب. كنا أنا وعفاف تركنا كتبنا ولازمناهـــا قي المشفى. طلبتْ منا أن نسند رأسها لتتشهّل، وضعنا خلف ظهرهـــا مخدتين، جالت ببصرها على الأسرة الكئيبـــة لشـــريكاتها في المـــرض، منحتهنّ بسمتها الراضية وعادت تنظر إلى الإبرة الحديدية الموصولة مـــن كيس السيروم إلى ذراعها، وإلى البقع المزرقة فوق جلدها.

ومض في عينيها برقٌ قصير، بدا أنها لم تعد تخاف من أبـــي، أومأتْ إليه أن يقترب. بيدها التي لا تنتهي بإبرة المصل أخذت يده، وأخذت كفايتها من الصمت قبل أن تنطق: «لم أطلب منك شيئاً في حياتي يا أبـــي. أريد منك الآن أن تعيدني إلى بيتنا».

***

برحيلها، خانت رجاء عهدنا. كنا تأقلمنا على أننا بضاعةٌ غيرُ كاسبةٍ في سوق الزواج، على أننا شوكات ستة في حلق أبـــي وأمي طالما لم يخطبنا أحد. وإذ تأكّد كسادنا اختارت رجـــاء أن تتـــزوّج الموت. رجاء، الصبية الجعداء الشعر، الملساء السريرة، خافـــتْ مـــن جعجعة الموت على سرير الحديد في مشفىً عمومي، هربتْ منـــه إلى ميتةٍ ليّنةٍ على فرشتها الرقيقة فوق أرض البيت.

لا أدري كم من الأيام انقضى قبل أن ترحل. ولا أعرف كيف أصف انقلاب حالِنا، عاث الصمتُ في بيتنا خراباً سريعاً أعنف مـــن ذاك البطيء الذي اعتدنا سريانه. في نوبة الألم تعوي رجاء كجـــروٍ يحتضر، من عوائها يهرب أبـــي إلى وظيفته ساعةً ويعود، تلقّمها أمي شوربة الأرز ومرق الدجاج، تلفظها رجاء سائلاً لزجاً ينـــداح مـــن فمها الرخو. لم تعد تحكي. طلبت بالإشارات أوراقاً، خربشت عليها صورنا وأسماءنا وتهاوت يدها. وقع منها القلم وفارقتها الحرارة.

تفاصيلُ الجنازة موتٌ آخر. مدينتنا التي تبذخ على مراسم الموت أكثر مما تحتفي بالولادة أو بالزواج أو بالنجاح؛ تستكثر على أفضـــل النساء جنازةً فخمةً كالتي تمنحها لأضعف الرجال. هنا جنازة بنـــتٍ ثالثةً بين ست بنات، وليستْ جميلةً ولا متفوقةً ولا بليغة الحضـــور،

وفوق ذلك هي بنت أبـــي ممدوح، الموظف من الدرجـــة الثالثـــة، القادم من قريته إلى المدينة إثر قطيعةٍ بائنةٍ مع أهله، الرجل الذي نادراً ما يزور أو يزار ولا يُسلسل الجيران شجرة عائلته!

وفوق ذلك رحلتْ رجاء بمرضٍ غامض.

كيف سيرتّب أبـــي جنازةً مستورةً لابنةٍ أهانته بمرضها الـــوقح وموتها الخاطف، لم تمنحه فرصةَ الرُّشد ولا مهلـــةَ الوقـــت ليجابـــه استحقاقاتٍ ربما لم تكن في حسبانه. لم ينعِ أهله وأهل أمي في مـــرج العكوب و لم يأخذ جثمانها إلى بيت الميت حيث يبكي الجميع فقداهم على الملأ.

كإثمٍ مهين دُفنتْ رجاء في المدافن العامة لبلدية المدينة.

لكنّ موتها أفاض في بيتنا حياةً مخيفة. جاءنا معزّون لا نعرفهم، معلماتُ رجاء وبنات صفها دخلن بيتنا كموجة بكاء، جلبن إكليل وردٍ بقي مركوناً في زاوية المضافة كالفزّاعة الصفراء. تشجع أصدقاء أخي ممدوح ودخلوا بيتنا كما لم يفعلوا من قبل. كانوا ثلاثة، مـــن ركنٍ في زاوية المطبخ تلصّصتُ عليهم، وسيمين كـــانوا ومُغـــوين، وكان ممدوح في حرج، يحاول الكلام ويخونه صوته. جاءت جماعـــة رجالٍ ونساءٍ لا نعرفهم، قابلهم أبـــي بوقارٍ، أدّوا واجب العزاء و لم يفيضوا في الكلام. بكت أمي أمامهم أكثر مما فعلت يـــوم الـــدفن، تخشّبنا نحن البنات كتماثيل متراصّةٍ إلى أن غادروا. أولئـــك كـــانوا أقاربنا الذين أفنت أمي في انتظارهم عشرين سنة، واستدلّوا أخيراً إلى طريق بيتنا بهدْي الموت.

وانفضّ عنا الناس بعد انقضاء العزاء. بقينا وحدنا ناقصين أختاً تنام في قبرٍ بارد. وحدنا، قافلةَ غرباء تستريح في قفرٍ لا أنس حولـــه،

نشرب عقار الكآبة، نتنفس الخواء، ننام بلا نعس، نتقلّب في الليل كمحاربين ينتظرون ساعة الصفر، نفيق واجمين، نلبث في أمكنتنا نستمع إلى أصوات تنفسنا الرتيبة، يوضع الطعام على الطبق فلا ينقص منه إلا لقيمات، يجترّ كلٌّ منا، بدلاً عن الطعام، هواجس تخصّه وحده.

ربما بفعل الموت، أو بفعل الخوف، أو بفعل الصمت الذي استعمر البيت؛ انقلب حزني حناناً فائضاً لا أعرف كيف أنفقه؛ لا يدا رجاء هنا لأسندهما، ولا قلبها هنا لأنظم ضرباته المبعثرة، ولا جسدها لأضمّه: «يا حماميّ الرقيقة نامي، فسرّك الآن في أمان».

يحوم ظلها في البيت ولا يفصح إن كان ذلك القيء الدامي تمريناً على لفظ عقربٍ يجول في دمها ولا يفلتها، أو هل تراني غفلتُ ولم ألتفتْ إلى أنّ دفاعها عن تورّطي في الحب كان دفاعاً عن لُجّة غرقت فيها قبلي، وليس حولها أختٌ حنونُ تدرّبها على السباحة الآمنة وتحميها من الحيتان والغيلان والأشرار وقُطّاع الجسد، وأنّها حين طمأنتني: «لا يمكن أن يكون ما فعلتِه سيئاً»، كان تبثّ شيفرة أمانٍ لنفسها المستوحدة كمدفأةٍ مطفأة، أنّ (شيئاً) ربما (سيئاً) ارتكبته رجاء، وبودّها لو تطمئنُ نفسها أنه ليس سيئاً؟

***

قد طمأن الموتُ رجاء، وطويلاً عضّني الحزن قبل أن أعود إلى رشدي وأُركّز في كتب الدرس. أنهيتُ امتحاناتي كلها، وناصر لم يعد. في ظلمة يأسي بدأتُ أشكّ أنّ ناصر كان هنا يوماً.

8

حين أوصاها «حياتي انتبهي لمدرستك»، كان يستأمنها على الحلم الناقص من طفولته. لم يدخل ناصر المدرسة إلا في عامه العاشر، و لم يصمد فيها أكثر من صفّين أرعبته خلالهما كعذاب القبر مثلما عذّبت أخوته الثلاثة الأكبر منه، تباعاً نفروا منها فهجروها.

كلهم ولدوا في بيروت، وانفرد من بين أخوته بألم أسنانه. تكزّ أسنانه في نومه فيصحو، وتعده أمّه بأخذه غداً إلى مستوصف الجمعية الخيرية، وفي غدٍ تنشغل بالطبخ أو بتنظيف الطراريح الرطبة ببول الأولاد فتنسى. وتنسى أمه أيضاً أن تعطيه الخرجية إلى المدرسة، أخيراً صار ناصر ينسى أن يروح إلى المدرسة.

هام يبيع التشيكلس على مفارق الطرق، يعود إلى بيته المسقوف بالصفيح في حيّ الوطا في بيروت، أمه راكعةً أمام طشت الغسيل قرب الباب، أو واقفةٌ تفرك طحالب عنيدة نمتْ فوق المجلى، يُسلمها غلّة اليوم كما أخوته، يجلس ليأكل معهم ويروحون جميعاً إلى نومهم منهكين.

باكراً يصحو ليتفرّج على رقص حبال القشّ بين يدي جارهم الأعمى. يلبث عنده ساهياً عن بيع العلكة. يقيم الأعمى تحت صفيحٍ شبيهٍ قبالة بيتهم ويشغل الزقاق الضيّق أمامه بورشةٍ لصنع الكراسي. يستدير الأعمى بجذعه يميناً أو شمالاً ليسحب من الحِزَم المصطفّة على جانبيه عددا معلوماً: أخضر، أحمر، برتقالي، أزرق. ظهر الأعمى

مشدودٌ وعيناه شاخصتان إلى أمام. تقفز أصابعه وحدها وتتكوّر لتسند بعضها ثم تشدّ لتنعقد الحبال بإحكام. يكتمل التشكيل على أرضيّة الكرسي ويشهق ناصر. «إيه يا صبيّ، تستغرب كيف لأعمى أن يضبط الألوان والرسوم؟». يفزع ناصر من أعمىً يراه ويقرأ أفكاره. «يا بنيّ، أنا أبصر هنا»، يرفع الأعمى يده إلى قلبه. «لا هنا!» يُشير بأصبعه صوب عينه، عينه الرمادية الكامدة كقعر كأسٍ عكر.

المذياع رفيق الأعمى في ورشة القشّ. يكرج مؤشّره بين المحطّات لاهثاً خلف نشرات الأخبار، يستشيط الأعمى بعد كلّ خبر: «نحن العرب جبناء وإسرائيل مجرمة، تمضي في ذبح الفلسطينيين واحداً وراء الآخر». ناصر يصغي ولا يفهم ولا يردّ.

«لو كان عندنا أبطال مثل سلطان باشا الأطرش أيام فرانسا لكانوا أبادوا إسرائيل».

في الليل يسأل ناصر أباه: «من هو سلطان باشا الأطرش؟»

ينام الأهل وينسلّ ناصر خلسةً إلى المعسكر القريب. أمام ساحته أفنى مع صبيان الحيّ أمسياتٍ بطولها يحبكون وينجزون خططاً حربية. يعود منه قبل شقشقة الفجر راكضاً كطريدة. بحمله الثقيل يدق باب الأعمى:

«صار عندي بارودة. ساعدني لأصبح ثائراً».

«كنتَ هناك إذاً؟»

يسكت ناصر. يضرب الأعمى الأرض بعصاه، ماذا قد يفعل بالحالم الصغير سارق البارودة؟

«حسابك عندي. هاتها ورح إلى المعسكر. قل للحارس محمود أن يأتي إلى عمّه الأعمى»

***

صار عمر ناصر 13 عاماً، وما يزال في صفه الثاني، ولا يطيــقُ المدرسة، ويتحيّن الفرصة لهجرها، ويتهرّب من العمل مع أبيه.

«لماذا لا تشتغل بالباطون مثلي ومثل أخوتك؟ لا أعرف مهنــةً غير هذه لأعلّمك إياها».

صادقَ فضل الله الزعفراني الباطونَ منذ وصل بيروت رفقةَ عمّه العازم أن يُدرّبه على إعالة نفسه. جاءها بيُتمِه وأعوامه العشرة. والدُه مات قبل أن ينحفر صوتُ الأب في ضمير ابنه. يــذكر فضــل الله مرويّةً عن أفعى أحالتْ شعر أبيه إلى بياضٍ خالص. أمّه أيضاً غابــتْ وغاب معها حلاوة القضامي الزهرة. أخبره أهلُ الدار أنّهــا رمتْــهُ وأخاه ورحلتْ عنهما إلى أهلها. كره أمّه وخاف جميــع النــاس إلا جدّه والد أبيه، بموت جدّه مات الحنان.

صغيراً وصل لبنان. لم تقدر كتفه على حمل تنكة الباطون. شغّله المعلّم صبيّ شايٍ في الورشة مقابل لقمته ومنامته. تــبرّع فضــل الله بالتقاط المسامير عن الأرض، اقتلع ما علق منها في الخشب التــالف، طرَقها لتجلِس ويُعادَ استخدامها، مرّةً انغــرس مســمارٌ صــدئٌ في التجويف بين أصبعيه، وشمَ المسمارُ بقعةً أبديّةً سوداء بحوافّ ميتــة. كذلك لملم فضل الله كسرات الخشب وفراغات أكياس الاسمنــت. تدفّأ بنارها في الليل لا من برد بيروت بل من صقيع الوحدة.

ما كان فضل الله يحلم بهذي النقلة الهادئة، أن يرتقي من صبــي شايٍ إلى حمّالٍ لتنكة الباطون، ولا كان يحلم أن يبعثوا له عروساً من قريته إلى بيروت، ففضل الله محكومٌ بعدم العودة إلى سوريا قبــل أن يُتمّ عامه الخمسين، السنُّ الشفيع عند الحكومة لتكف عن ملاحقــة الذكور المتخلفين عن خدمة العلم. ولا كان يحلم أن يرزق ســريعاً

بابنٍ ذكر، أراد أن يسمّيه سليمان على اسم أخيه الوحيد، وأصـــرّتْ زوجته أن تسمّي بكرها: كمال، ثم سمّتْ ولدها الثـــاني «جمـــال» ليكرج لحنُ اسمه منسجما مع اسم أخيه، وأذعنتْ لرغبة فضل الله بأن يُسمّي الولد الثالث سليمان، وانتقى جارهم الأعمى للأولاد الثلاثـــة التالين أسماء من وحي خواطره السياسية: ناصر وناجي وسعيد.

تلك الحياة القانعة، زوجةٌ وأولادٌ ستّةٌ وثباتُ الكتف المتين تحت تنكة الباطون ثلاثين سنة.

ناصر النزق لم يصبر كما أبوه لا على الباطون ولا العتالة. هام في زواريب بيروت. جلس في المقاهي حين ملك ثمن كأس الشـــاي، جرّب بيع الخضرة، أخذته دواليب عربته إلى أزقّة الحارات المكتظّـــة، قرأ على جدرانها خطوط المستأجرين والمارّة العـــابرين، وإعلانـــات الترغيب بالانتساب لجمعية خيرية أو تنظيمٍ عسكريّ. رقّ قلبه للنساء الخارجات إلى الطريق بقمصان النوم ليشترين منه الفاصوليا والخيـــار والنعنع والفرفحين، ضيّفنه الشاي وباعهنّ بخسارة.

ونام في السوق بين باعة الخضرة، دخّن النرجيلة معهم وغـــنى المواويل وأصغى إلى ثرثراتهم عن نساءٍ عابراتٍ وعـــن أشـــواقٍ إلى دفءٍ لا يُطال، ضاق أنفه بروائح أرجلهم. خرج مـــن المـــأوى إلى صريرٍ الريح وزنخة السمك آتيةً من صوب البحر. في ليلِه بين جموع الشعّيلة وهيجان البحر داخ ناصر في البرزخ بين السخط والرضـــا، ظلّ غريباً كما هو دوماً في بيته، هاجسٌ غامضٌ يكمش صدره، ولا تعثر نفسُه على نفسها، ولا يصادقه النوم، ولا يطيق أن يعود إلى بيته ليسمع تعنيف أمه ونصائح أبيه، وشكوى أخوته من ضـــيق المكـــان وعتمته.

عاد إلى حيّ الوطا، إلى جاره الأعمى لا إلى أهله. لم يجد في الحيّ لا ورشةً ولا حبالَ راقصة. قال الجيران أنّ أولاد الأعمى استعادوه إلى ضاحية بيروت. لحقه إلى الضاحية ليبكى بين يديه كما لن يسمح لنفسه أن يبكي أمام سواه. أسلمه الأعمى لجاره ذا البدلة المموهّة: «أبو حوّاس، هل تذكر الفتى الحالم بالثورة، سارق البارودة؟ هو لك!». وأسلمه أبو حوّاس إلى المعسكر بسنيّ عمره الثمانية عشر، بطوله 180 سم، بوزنه 90 كيلو، بوجهه المِثل نسمةُ جبلٍ وعصفُ بحر، بظهره المستقيم وقبضتيه المكينتين، بسجلّه المكتوب في التقرير: أبٌ سوريٌّ فقير وغير طامح، أمٌّ سوريّةٌ تُعمّر دنياها بالأولاد وشغل البيت، أخوةٌ أميّون، وهذا الابن ينغلق على نقمةٍ سوف تُروّضها المنظمة. ثلاثة شهورٍ في تدريبٍ شاقٍّ وكثيف وغير مأجور وبغيضٍ كحروف الهجاء وجداول الضرب في المدرسة وجرّ عربة الخضرة وشُربِ الشاي البارد، وناصر ممنونٌ لكل هذي المشقّةٍ التي كافأته ببطاقة فدائيٍّ في منظمة فتح. وصارتْ تلك الشهور مزحةً ناعمة حين تبعتْها ثلاث سنين في دروس السلاح التشيكي والروسيّ وفي مسير الجبال في العتمة أو تحت سياط الشمس أو أنياب الثلج وفي تطعيم المعركة وتسلّق الحبال والسباحة في البرك القذرة والتجويع وأكل لحم الأفاعي والقطط. وكان التعليم الأساسي والتثقيف العقائدي هو الأكثر عسرة، منذ مشروع هرتزل إلى نكبة حزيران إلى إعلان فتح للكفاح المسلح نهجاً لاسترجاع فلسطين.

كتب أبو حوّاس في تقريره: «كاريزما عالية، إمكانات بدنيّة مدهشة، سوريٌّ لا يقلّ حماسه عن أيّ فلسطينيّ الأبوين والجدين».

9

لكنّ ناصر سوريّ الأبوين والجدّين، يعرف أن لأهله قريةً اسمها «خربة الذياب» في جبل العرب، تزورها والدته كل صيفٍ مع بعض أولادها وفق مراسم أشبه بالعسكرية. بدايةً تعدهم أن المطيع منهم سيحظى برفقتها. يتسابق الأولاد إلى الكنس والشطف والجلي بطاعةٍ وإخلاصٍ يجبران أمَّ كمال على تنظيم جدولٍ دوريّ، أقرب إلى النزاهة، يسيّر التحاق اثنين منهم بالرحلة وفق ترتيب الولادة، (يُستثنى منه سليمان الذي لن تسمح لأهالي الخربة أن يشمتوا بعينيه الضعيفتين خلف نظّارته الثخينة). لن يتنازل ناصر لأخوته عن دوره وإن أغروه بإعفائه من حمل الفرشات على ظهره لتشميسها على سور البناية، أو أعطوه ليراتٍ تكفيه لارتكاب كل الموبقات الممكنة في غياب أمه. لو اختارته أمه للسفر معها ستشتري له ثياباً أجمل من شراطيط أبناء عمّه، وسيركب الفان ويرى إطلالة الجبل الأجرد عند الحدود، سيمسك مع أخيه بفستان أمهما ريثما يطابق موظف الجمارك اللبناني الأنيق أسماءهم مع الوثيقة في يده، وفي الكراج في الشام ستشتري أمه الكعك والبرازق بالسمسم هدايا لبيت عمّه، وقرنيّ بوظةٍ بالحليب له ولأخيه، وفي الخربة سيشتري الهريسة من دكان أبي حسين ويجلس عند جرن الحجر تحت ظلال الرمانة ليمضغها ويرقب طيور الحبش تمدّ إليه أعناقها الحمراء المتورّمة وتوقوق، سيركض إلى جبوب (الصحره) خلف الدار، يمشّطها بيديه بحثاً عن

البعجورة الكبيرة ليأكلها، والصغيرة ليلعب بها (مازات)، وتنهره زوجة عمه لأنّه أتلف زرعها: «ولد مخربانِي..»، وتُسكِتها أمه: «لابني وأخوته في هذه الدار مثلما لأولادك..»، وتندب زوجة عمه اغتراب زوجها العديم الفائدة إلى ليبيا بعد أن بزّر لها كومة أولاد نصف جائعين.

في الرحلة التالية بعد ثلاث سنين خرّش هواء الخربة أنفه، نضبتْ بركة الماء وسكت نقيق الضفادع حولها. وحين سمع من الرجوم البعيدة نباح قطعان الكلاب بدتْ له الخربة قاتمة. سكت الكلام بينه وبين أبناء عمّه. أقسم ابنُ عمه بغربة أبيه أنّ الرسدة أمّ الجنيّ الصغير تعيش في باكية دارهم، وأنها ستقلع أضراس ناصر إن لم يقل قبل الدخول: بسم الله الرحمن الرحيم. ولم يدِنْ له النومُ على سطح الدار. كان القمر بدراً فوقهم وفي السماء ربما ألف نجمة، راح يعدّ: واحدة، اثنتان، ثلاث، سبعة عشر... أطبق ابنُ عمّه بيده على فمه: «ستطفح يدكَ بالثآليل يا ناصر، مرّةً عددتُ النجوم قبل أن أنام فعاقبتني، طلع على يديّ ألف ثؤلول، صبرتْ عليها أمي إلى أن مات أحد عجائز الخربة، أبو حسين الفسّاء. عقدتْ ألف عقدةٍ في خيطٍ أسود، ودسّته خلسةً عن العيون في كفن الميت حين جاء الرجال يشيلونه إلى القبر. بعد أربعين يوماً اختفتِ الثآليل من يدي»

قبل الرحلة التالية تنازل عن دوره طائعاً.

أم كمال أيضاً صارت ترى مسقط رأسها اسماً على مسمّى.

على هامش رحلتها لرؤية أهلها وجلب المؤونة، كان رأسها عدّاد التحوّلات الطارئة على الخربة. بعينيها ترى كيف تفرغ خزائن

المؤونة، وكيف، من عامٍ لعام، ذوى حلم أهلها بقرب وصول الكهرباء وجرّ شبكة المياه وتعبيد الطرقات. ترى نساء الخربة عائداتٍ من النبع بالماء الثمين، ينقلنه فوق رؤوسهن في مناشل التوتياء في دربٍ طويلٍ وسط وعور لا تنتهي. وكي لا تخدر فروة رؤوسهن بثقل المناشل يعصبنها بقماشة خامٍ ملفوفةٌ ومبلولةٌ بالماء، وحين تنوخ رؤوسهنّ تحتها يسرّحن عن أنفسهن بالغناء.

وفيما رحل أهلها وجيرانها إلى المدينة غير آسفين، يتلهّف زوجها أبو كمال للتخلّي عن عزّ لبنان. العزّ؛ وهمها الذي صدّقته، أن يرتقي أبو كمال إلى مدنيٍّ شغّيلٍ يسكن بيت صفيح في بيروت، ويلبس البنطال، ويغدو إلى شغله بزوادة في سفرطاس بطبقاتٍ ثلاث، ويغتسل بماء يجري من صنبور. وعزّ لبنان أن تتغنّج أم كمال على نساء الخربة: «أنا لا أطيق عيشة الريف».

في ليل بيروت رفعتْ رأسها عن المخدّة وتربّعتْ بجذعها السمين على الفراش، وقعتْ عينها على الكوّة الضيقة، حيث لا يأتي أي ضوء. وشوشتْ لفضل الله: «أنت لم ترَ بعينيك كم صار العيش مرّاً في خربة الذياب». قالتْ لفضل الله: أحلم ببيتٍ تدخله الشمس، قالت: مضى العمر ونحن في العتمة، قالت: تحويشةُ العمر لن تكفي لشراء بيتٍ لائقٍ أو دكانٍ أو حتى ورشةٍ بدائية في بيروت. قالت: هكذا انكتبتْ مصائرُ الأسلاف (الرزق اللي مش ببلدك لا إلك ولا لولدك)، قالت: لو كان الأمر بيدي ما عدتُ لا إلى خربة الذياب ولا إلى السويداء ولا إلى سوريا كلها، لكنّ بيروت لا تتواضع وتُؤوينا في بيتٍ بطابو.

وقالت: أعرف أنك لن تطالب أخاك بحصتك من ورثة أبيكما. اترك خربة الذياب لعجائزها واشترِ لنا أرضاً في السويداء المدينة.

10

انطوتْ خمسون من عمر أبو كمال، وطوتْ معها التهديد بنفيرِ السّوق إلى الخدمة العسكرية. لن يصبر يوماً إضافيّاً في بيروت. أذبله الباطون و لم يذبل حنينه إلى أرض الحجار السود. ناصر وحده من بين أبنائه يرفض الرحيل إلى بيتهم (المُلك) في السويداء. لو يقدر فضل الله على فكّ عجمةَ هذا الولد العاطل، لو ينبش صدره ليفهم: هل بيعُ الشاي في الضاحية أبقى له من عائلته؟

«قد صار لي عائلةٌ. أنا فدائيّ يا أبي!»

....

.....

«وما دخلنا نحن بالفدائية يا بني؟!»

استنكار أبي كمال لن يدوم أطول من عمر فقاعة صابون، فقد يكون الخير فيما اختاره الله لولده. لكنّ أم كمال انطلقت وسط شبكة معارفها القليلة تسأل كيف يمكنها استعادة ابنها. تحت تهديد الدمع ثم الفضيحة دلّتها الممرضة الفلسطينية العجوز في مستوصف الجمعية الخيرية إلى مكان المعسكر، جرّت زوجها خلفها واقتحمت بوابته. زاد في حنقها أنّ حارس الباب لاقاها بأدب. كان عليه أن يكون فظّاً في استقبالها لترشقه بعويلٍ يقلب عالي المعسكر سافله. تمهّلتْ في هجمتها حتى وصلتْ مكتب القائد:

«أنا أم ناصر الزعفراني. ومن وين إلك حق تا تسرق ابني؟ يعني حضرتك تعبت بدقّ ريحانو لناصر لتبكي عليه إذا ضاع؟ ربّيت ابني بدموع عيوني إلي وبسّ، ولما صار شبّ سرقتوه. إذا ما رجع ابني معي راح اغضب عليه وعليكم، لا تهلك معسكرك بغضب أمّ»

أجلسهما أبو حوّاس ضيفيْن كريمين يشربان كأس شاي بالمريمية، وخرج إلى حيث ينتظره ناصر الذي يثق أنّ أبو حوّاس (أخٌ) له في المنظمة، ليستْ مهمته التدريب والتعليم وحدهما، بل معهما فرحه وحزنه وخلافاته مع الأهل وخياره في المصير. لن يعيده إلى أهلٍ لم يفهموه، ولا إلى خربةٍ لم تُولّعه بها، ولا إلى السويداء التي سيشحطه والده إليها وليس له فيها ولو باب مدرسةٍ يحنّ إليه. لكن؛ ماذا في لهجة سؤاله الغريبة هذه:

«هل أكملتَ شُربَ شايك؟»

«دايمة. بالنصر، بالعودة إن شاء الله..»

«وهل سينتصر فدائيٌّ يحرق قلب أمه أو أبيه؟! في كل إجازةٍ كنتُ أحمّلك السلام إلى والديك، وكنت تحمله. لم تقل يوماً أنهما لم يباركا خطوتك، بل لا يدريان بها. حملُ السلام ثقيلٌ على مَن لن يوصله يا أخ ناصر. هل سأثق بك فدائيّاً أو تثق بي أخاً لو أبقيتُك بيننا رغم غضب أهلك؟!»

11

كأميرةٍ ظافرة، حشرتْ أمّ كمال قبيلة رجالها كاملةً في الفـــان، وتكوّرتْ على نفسها بينهم حزينة على فراق بيروت إلى غير عودة. في بيتها (المُلك) في المدينة فردتْ صُـــررها وحقائبـــها وأملاءاتهـــا. انصاع أبو كمال وزرع غراس صنوبرٍ جديدة وشتول خزامى وزعترٍ بريّ، ونادت لجاراتها: (شوفوا هذا الخضار المعطر ما كـــان في منـــو أبداً بالسويدا قبل ما أنا جيبو)، أخبرتهنّ وهي تفرك يديها بـــأوراق الخزامى كيف أمّنتْ على ابنيها كمال وجمال بـــالتطوّع في ســـلك الشرطة، وقريباً ستزف إليهما لهما عروسين صغيرتَين وحلوتَين، بينما تفكيرها يسرح عند سليمان، ولدها الثالث، كيف يمضـــي التعـــيسُ نهاره على وقع الأغنيات الجبليّة، وعند ناصر الفالت أبداً من عيـــون رقابتها.

لم يحبّ ناصر المدينة. خنقه سكونها الكئيب قبل أن تطلع لـــه حياةُ حبّاً أوّل سكّن غضبه على أمّه التي خطفته من المعسكر، لكنـــه ضعضع قلبه بين هيامٍ بحياة وذكرى هيامٍ بالمعسكر وأهله مـــا تـــزال تنوس ولا تنطفئ. انجلى قلبه بعد طول حيرة إلى خسران كلّ مفاضلةٍ بينهما، أيقن أنّه لن يكتفي بحياة وحـــدها ولا بالمعســـكر وحـــده؛ يريدهما معاً.

«سأتزوّج حياة يا أمي».

لن تزوّجه من ابنة عدوّها، فالعرق دسّاس، هي لم تستعده من سارقيه في المعسكر لتسرقه منها بنتٌ من سلالة أم ممدوح الملعونة. و لم يقل ناصر لها أنّ عليها أن ترضى بحياة لأنه لو لم يلتقيها لما غفر لأمه، فوصايا أبو حوّاس عن البرّ بالوالدين حاضرةٌ في رأسه، دقّ صدر أمّه واعترف: «أحبها ولا أحب سواها ولن أتزوجها إلا برضاكِ، وإن لم تقبلي سأرحل عنكم إلى الفدائية». وبارداً انفتح صدرُ أمّ كمال: «لا هذه ولا تلك. سيمضي الزمن وتنساهما».

لم تجده في البيت حين أفاقتْ. غيابه طال. هذا الغياب ليس ككل غياب، يندعك قلبها كخرقةٍ في يد امرأةٍ ثكلى كلما طلبت من ابنها ناجي أن يعيد قراءة الرسالة التي ألقاها ناصر فوق مخدها حين كانت في غفلة النوم.

12

حين دخل خليل حياتنا كان قد مضى شهران على دفن رجاء.

خليل ابن عم أبـــي. جاء بشعره الدهنيّ وبدلته البنيّة الحائلـــة وسنّه الذهب وساعة يده المذهّبة ولسانه المبريّ وحذائه الملمّع. ليستِ القرابة وحدها مَن أهّلته ليدخل في حياتنـــا كالنعـــاس، ويســـتفحل حضوره ويتفاقم. كان حظّه الذي حمله ليبعث في بيتنا حراكاً نحتاجه كالهواء. ولئن كان أبـــي طلب من ربه في واحدةٍ من نوبات وحدته المريرة بأن يبعث إليه من لدنه رسولاً يشرح صدره، فلا بدّ أنه هـــو، خليل الذي حطّ في بيتنا كالشاطر حسن على بساط الـــريح. جـــاء يحمل هدية: رطل زبيبٍ وكيلو قهوةٍ مرّة؛ عربون مشروع المصـــالحة بين أهلي وأقاربنا، ومشاريع لاحقة قـــد يطـــول الوقـــت قبـــل أن تنكشف.

استرقتُ النظر إليه من ثقب الباب، لمحتُ أصبعه يخـــرج مـــن منخاره ويندسّ في محرمةٍ في يده، بدا لي وجهه دائرةً بأرصفةٍ فسيحة، ترسم عيناه وفمه حدود مثلثٍ صغير في وسطها ويبرز أنفه كســـاريةٍ كبيرةٍ في مركزها. وإن كان لمعان وجهه منفّراً إلا أنه محاورٌ مـــاهر، قسر وجه أبـــي على الابتسام، واستخرج من صـــدره ضـــحكةً لم نسمعها منذ اشتدّ مرض رجاء. ذبحت له أمي دجاجةً هرمـــة كـــان قرار اغتيالها قد صدر منذ كفّتْ عن تعذيب مؤخرتها بطرح البيض.

لم تدرِ المسكينة أنّ أمي لن تهدر بقايا طعامنا عليها دون مقابل، لكنها لن تسخو بها علينا وحدنا، تؤجل ذبحها لحين قدوم ضيفٍ طال انتظاره!

غمّس خليل لقمات خبزٍ كثيرة بفخذ الدجاج، وبصدر الدجاج، وبالرز المزيّن بمسحوق القرفة، وأتى على سلطة الخس والبندورة والخيار والنعنع، ومن حينٍ لحين كان يمسح زاوية فمه بمنديله الأبيض، ويثني على تقانة أمي في الطبخ وفي تربيتنا، ويلّوح لأبي: «إيه يا بن عمي، لا عزوة إلا في الأهل، الأهل. (أهلك ولو تهلك)».

من ثقب الباب رأيناه أنا وأخواتي، يأكل ولا يشبع، لو نهجم عليه ونربط يديه ونكمّم فمه بمنديله ذاك ونرميه في الزاوية. ضحكنا، كثيراً ضحكنا، ربما هي أول مرةٍ نضحك فيها بعد موت أختنا، وربما هي آخر مرةٍ سأضحك فيها بسبب خليل، فكما تغدينا اليوم على العظم، وعلى نسرات لحمٍ ضئيلةٍ سلمت من فيض شهيته، ستكون حياتي معه كوعود أمي لنا بأننا سنشبع لحماً حين تذبح دجاجتها الهرمة.

تحشأ خليل، سأل: أين المغسلة؟ أحنى قامته ليعبر باب الغرفة في طريقه إلى الحمام، تفتّلتْ عيناه كمغزلين على كل تفصيلةٍ في البيت كأنه ينوي أن يُحدث تغييراً في ديكوره قبل أن يغادر ويترك في البيت طعم جشأته الحامضة.

أوراقٌ وحساباتٌ، وصفنةٌ على وجه أبي، ثم غضبٌ معتدلٌ ثم متسارعٌ، وبعدها ارتياحٌ على وجه أبي وثقة المنتصر في ابتسامة خليل؛ هكذا يمكن أن أصف زيارة خليل الثالثة التي لم تطل.

«طلب خليل يدك مني».

«....»

«وأنا أعطيتُه. خليل رجلٌ مرّ. لا تحـوزه إلا مَـن (صـبرتْ ونالت)».

كنا في ظمأ إلى العرسان، قبل خليـل لم يتقـدّم إلى بيتنـا أي خاطبٍ يطلب القرب، فالبنات يُخطبن لأبناء الأعمـام والخـالات والجيرانِ، وهؤلاء كانوا عنا غائبين.

قبل ناصر كان الزواج في مخيلتي حقـلاً أخضـر كعـينيّ آلان ديلون، هلاماً لذيذاً كفرحة أرجوان بجهـاز عرسـها، كالحـبّ في قصائد نزار. وجاء ناصر وعداً أعلى من الأخيلة، عريسـاً يحتفـي بقلبـي وبرغبتي في دخول الجامعة.

جاء خليل حين لم أعد أريـد أيّ عـريس، قـد نجحـتُ في البكالوريا وما أزالُ أنتظره ليأخذني إلى جامعة بيروت. وإن لم يعـد، لن يخرج حلم الجامعة من رأسي، سيسندني ممدوح لألحـق بغـادة ونجوى إلى جامعة دمشق. لكنّ ممدوح غائب، أخبرنا أنه يشـتغل في الشام في عطلة الصيف ليحاول تأمين مصروفه بنفسه، أبـي قـال ألف مرّةً أنه يفخر بممدوح، وأردتُ أن يفخر بـي أيضاً. تبرّعـتْ نجوى أن توصي أخاها ليبحث في المدينة الجامعيـة عـن ممـدوح، سيطلب منه أن يعود إلى بيتنا اليوم قبل غد، «الأمر خطير»، رجوتها أن تضيف لطلب أخيها من أخي.

استمعتْ عفاف إلى (فجوري) بـرفض العـريس والـتفكير بالجامعة. عفاف لن تصير صديقتي على أية حال، فقد نما على السـدّ القديم بيننا طحلبُ الغيرة قبل أن يطلبني عريس. عفاف رسبتْ للمرّة

الثانية، حين علمتْ بنجاحي ورسوبها رشقتني بشررٍ يضمن إصابتي بالشلل، أو يجعلني أبول في ثيابي، أو، على الأقل، أجمد في مكاني وألوذ إلى فصاحة الصمت.

«لو لم تكوني موجودةً لاختارني خليل»

لن تصدّق عفاف أنّني حتى لو لم يعد ناصر، سأختار الكساد ألف مرّةٍ بدل هذا الخليل الحامض المتجشّئ في ذاكرتي كالأسيد، وعلى أبي وأمي أن يفهما أنّ حياة بعد البكالوريا ليستْ حياة القديمة.

«لا أريد خليل، زوِّجوه عفاف. خليل قريبنا، وهو يريد واحدةً من بنات مرهج، وعفاف ست بيت ممتازة ولائقةٌ به أكثر مني. قولوا له أيضاً أنّكم ستزوّجون ابنتكم الكبرى أولاً، أليست هذه أعرافنا؟!»

ليتَ ممدوح عاد حين طلبتُه، وعد أخا نجوى أنه حتماً سيأتي، وكذب، وأمي لا تريد أن تسمعني. رومانسها المتأخّر خبل عقلها، صلبتْ أحلامها تحت شجر التوت وتاهت بين فرحين: عريسٍ يشيل عنها أول أثقال البنات، وكون هذا العريس من مرج العكوب. كانت نذرتْ لتزويجنا ألف نذر، لكنها لم تصعد في أحلامها إلى هذي الهبات الواقعيّة.

كان أبي أكثر منها وضوحاً، كان عدوّاً ظاهراً، كائناً بعينين لا أعرف لونهما.

«هل أنهيتِ مرافعتك يا ست الحسن، يا بنت أمك؟ أنا أعطيتُ كلمتي ولن تكسريها. لا بنات عندي يدرسن في الجامعة، وخليل طلبكِ أنت و لم يطلب أختك. لو أخزيتِني برفضك سأقبرك هناك قرب أختك أو أرميكِ للكلاب دون قبر»

رأسي قافلةٌ مطارَدة تبحث عن واحةٍ تؤويها قبل حلول الغروب، خليل مستعجلٌ على العرس ومهلتي للنجاة منه قصيرة. يطلع في رأسي برقُ ضوء، لا أعرف بعد لماذا طال غياب ناصر، عذر الغائب محفوظٌ حتى يعود، سأكسر بصلةً تحت أنفي وأذهب لسؤال أمه عنه.

وقفتُ في الفضاء بين بيتينا، على حدود الصبار والصنوبر، على البرزخ الفاصل بين نجاتي أو هلاكي، يشطر قلبي ألمٌ أفدح من أن أفلح في ابتلاعه أو إخفاء مرارته. هنا على مشارف البيت الذي ملكت فيه منذ طفولتي موطئَ قدم، بأمارة ندبة الجرح القديم في رأسي، بأمارة وحيٍ يأتيني من طيف رجاء، «اذهبي إليها، لا يمكن أن يكون ما تفعلينه سيئاً»، بأمارة وعود ناصر تحت سقف غرفة الكرش في بيتهم. لا وقت لديّ للتفكير ولا للدمع ولا للتراجع عن طلب العون من المرأة التي لم تسأل عني يوماً منذ رحل ابنها ولا مَن يخبرني إن كانت تدري بسريّ.

«يا خالتي أم كمال، أريد عنوان ناصر في بيروت».

تجتاحني نظرات أم كمال صعوداً ونزولاً، تخترق عمقي، تعرّيني، تنكشف حمالة صدري الرخيصة، كلسوني الذي رتقت أربعة ثقوبٍ فيه، شلحتي، مال البالة، وتحتها شحوبُ جلدي ودويّ قلبي والتواء عظامي. تعرّيني نظراتها يا ناصر، أنا بردانة وأنت بعيد، تشعّ فوقك شمسٌ وأمامك بحرٌ ومراكب، خذني إليك، إلى بيروتك (عاصمة الحريات). هديتني إليها وغبت، لن أستبدلك أو أستبدلها بما هو أدنى، لن ترضى أنتَ لي بما هو منها أدنى.

لم يكن في عينيها تعاطفٌ ولا فهمٌ ولا عداء. كان في وجهها فراغٌ يمكن ملؤه بألف رسم. لم تدعُني أمّ كمال للجلوس، بقينا

لوقتٍ أظنّه دهراً، غريمتَين تقفان على حبل القدَر المشدود لا أعرف بمن منهما سيرتخي ويسلم عظامها لصوّان القاع. تبدّلتْ مسحةٌ ضئيلةٌ على ظلال عينيها، قرأتُها بوضوح قوس قزح بعد مطر الربيع، التقطتها قبل أن تختفي بلمح البصر كلصوص الليل: (أنت فأرة جاءت تطلب مباركتي على قضم أصبعٍ من أصابعي). وكنت فهمتُ، لكنني لن أتركها تستمتع برؤية ركبتيّ تتقصفان. تلزمني جرعةُ أوكسجين لأستطيع زحزحة قدميّ العالقتين كالصمغ بأرض دارهم، بالأرض التي وعدت بموطئ قدمٍ فيها.

وضعت أم كمال يديها تحت مملوكها. يداها ترجفان. أخيراً فتحت فمها. كم تحتاج الكلمة لتصير موجاً يحمله الفضاء فيُسمَع؟ ثانية؟ جزءاً من الثانية؟ أقلّ؟ سحرني جواب خالتي أم كمال، هبط بسرعة النيزك؛ رأيته يهوي من حلقها قبل أن يصل سمعي، تلقّيته بعينين مستسلمتين، لا رامشتين ولا مستغيثتين. تبعتُ الجوابَ، النيزك، كنعجةٍ حكيمة تدرك أنّ حدّة السكين في يد الجزار أمضى من أقدامها، تنصاع له يهوي على عنقها سريعاً وشاملاً ورحيماً كألمٍ لذيذٍ يعقبه إسلام الروح برضىً خالص.

«تزوج ناصر. وصار في ألمانيا..»

13

«ناصر في ألمانيا»

لا تعرف أمُّ كمال بالضبط ما هي ألمانيا وكم تبعد عن بيتـــها، لكنها تعتقد أنها مسافةٌ كافيةٌ لتتهاوى آمال حياة على الطريق إذا ما فكّرت في عبورها.

ببلاغةٍ كذبتْ وهي لا تدري لماذا قد يسافر النـــاس إلى هـــذه الألمانيا التي لا تعرف عنها سوى أنها بلد الفوهرر هتلر، البطل الذي تردّد اسمه في مضافات الخربة أيام الحرب العالمية الثانية.

يأتيها المشهد من قاع طفولتها، رجال القرية مجتمعون حـــول المذياع الوحيد، يطردون الأولاد من أرض الدار ليصغوا بوضوحٍ إلى نشرة الأخبار، وبينما يتجادل الرجال حول مســـتجدّات الحـــرب، ينتظم الأولاد في ساحة الخربة في لعبة (مظاهرة). يهتف الصـــبيان: «يا فرنسا يا بنت الكلب...»، وتردّ البنـــات: «الله محيّـــي فـــوهرر هتلر..». يهتف الصبيان: «بالهون طلوعك بالهون..»، تردّ البنـــات: «يا هتلر زعزعت الكون..».

حضرتها البديهة طائعةً لتصفع حياة بجوابٍ مرتجلٍ يساوي ألف خطّةٍ محكمة؛ ينتقم من إساءات أم ممدوح لها خلال جيرتهما القصيرة ويطرد من حياتها نساء عائلة أبو شال الملعونات أمّاً عن جدّة.

14

قلتُ أدرّبُ نفسي على تفريغ الذاكرة، أطرد من رأسي ناصر الكذّاب وأباشرُ عيشي في مرج العكوب بلا ماضٍ ولا أحقاد، لعلّها تبتليني بحبها حتى وإن كان مَن أتى بي إليها خليل الحامض. هنا، تحت النواصة الحمراء، أجعل قنطرة الحجر بيروتي، وليس خلفها سوى مراكبي المحروقة. سأسامح مدينتي التي لم تحبني. أعرفها مدينتي؛ تغار من كلّ هواءٍ غريب، وإن غضبتْ لا تسامح. أغضبها حسدي لأرجوان على عريس البرازيل وحلمي برفقة ممدوح إلى الشام، وأطار صوابها وعدُ ناصر بهجري إياها إلى بيروت. سأسامح الموت الذي أراح أختي ونكّل بي، وأنسى خذلان ممدوح الذي اختفى في الشام حتى ليلة عرسي، وأعفو عن تخلّي أبي وخبل أمي.

بدأ هذيان أمي بمرج العكوب وقت وحامها بأختي اكتمال: «هناك في مزار الولي الصالح توتةٌ بيضاء نبتت فوق قبره وتغذّت من ضلوعه. تعربشنا نحن أولاد عليها، شبعنا من توتها الحلو وبقي منه على الأغصان قناطير ثمر. آه، تحت سترها أيضاً شربتُ حسرتي...». ترتجف أمي محمومةً بشوقها الباطنيّ، تصمت حين نرجوها أن تحكي أكثر، تنغلق إلى داخلها وتبربس، مثلما تفعل كلما ضربها أبي وكلّما ولدت بنتاً: «أني داخلة عليك يا الولي الصالح».

حضور خليل أوقد شوقها العالق في أرض التـــوت، أســـلمها مفتاح الطريق إليها وأعمى قلبها عني. رحّلتني عن مرج طفـــولتي إلى مرج طفولتها بمتاعٍ قليلٍ وأرزاء كثيرة.

سأتدبّر أمري في بيتٍ دخلته بلا جهاز عرس. كـــل البنـــات يحملن معهن مخداتٍ وفرشاتٍ وماكينة سنجر يدويّة، إلا أنا. تشتري الأمهات لجهاز البنات بطانيات جلد النمر المهرّبة مـــن لبنـــان، أو تُخبّئها لهنّ إن جاءت هدايا مـــن الأقـــارب المغتـــربين في ليبيـــا أو السعودية، وقبل عرسي لم يعرف أقاربنا إلى بيتنا سبيلاً ولا هـــدايا. كان في بيت أهلي بطانية من صنع معامل الدفاع كوفئ بها أبـــي في عيد العمال، خافتْ أمي أن تنفق البطانية على دفئنا فرفعتها إلى سطح خزانتها. طلبتُها لآخذها إلى بيتي، «هذه لعرس ممدوح» أجابتْ أمي، وأسكتتني حين نبّهتُ خليل إلى البقعة على صدر فســـتان عرســـي المستعار وأجابني «وإن يكن؛ نظّفيها أنتِ».

ونكثتُ وعدي لنفسي ألا أشتاق لأهلي. لم تسع الأرض فرحتي حين زاروني في (ردّة الإجر)، زيارتهم طمأنينةٌ للبنـــتِ أن تســـتعيد رجلُها الخطو إلى بيت أهلها بعد خروجها منه عروساً. طبختْ العمة زين المحضر مُحلّى الرزّ والقرفة والسكر، أعطتني الجوز البلديّ لأنثره فوقه، حملنا المحلّى إلى مزار الولي الصالح ليبارك زواجي بخليل، قبّلنـــا الضريح الحجر المزيون بشرشف أطلسٍ أخضر، قبلتين، أربعاً خمســـاً، على قدر الرجاء، ألصقتْ أمي جبينها بالحجر لتأكيد الرجاء، أسقط ممدوح ليرات كثيرةً في فتحة صندوق الحسنات.

تحت التوتة البيضاء أُغميَ على أمي مـــن البكـــاء. غيبوبتـــها المشكوك بأمرها أخرجتْ أبـــي عن طور وقاره. جرّها من ســـاحة

المزار إلى كراج الباص العائد إلى السويداء وعدتُ مخزيّـــةً إلى بيـــت خليل. فضّ خليل غلاف هدية أهلي، كانت منسفاً من نحاس. استقرّ المنسف حيث علّقه خليل، أمسح عنه الغبار كل يومٍ وأحني رأســـي اعتذاراً من إهانة منسفٍ بصلبه على جدار.

***

دقّ المطارق على استدارة المنسف أَثَرٌ من إرثٍ عزيزٍ وصـــناعةٍ نبيلة، المنسف الأملس البطن والمعرّق الحـــوافّ، منمنـــات النقـــوش اليدوية المهلى على نحاسه الأحمر، نقوش نجومٍ أو سنابل أو حـــروف آياتٍ كريمة أو رموزٍ للنصر أو للفخر أو لجلب الحظّ. الحزوز الناعمة على حلقتيه الاثنتين أو حلقاته الأربع أو الستّ على عدد الرجـــال الذين يتقاسمون حمله معرَّمًا بالزاد.

دلال القهوة النحاسية في بيوتات الجبـــل، مناســـف النحـــاس والدّست والكبشة وأباريق النحاس؛ هي طالع البركة في البيت وأمارة كرمه، هي الشمائل التي يورثها الأب لابنه والأم لابنتها، هي هـــدايانا المعنوية لمن نحبّ ونُقدّر.

حين يفرّط الأبناء بها لبيعٍ فاعلم أنهم في كربٍ أو محنة، وحـــين يهملونها فاعلم أنهم ليسوا من أبناء الأصول. اقتناء المنســـف يعـــني التزاماً بأكلافه حتى وإن كان (الجود يفقر والإقدام قتّال.).

تعبق دِلالُ القهوة ببخار طبختها الطازجة كل فجـــر، تمـــوت دلال القهوة إن لم تُفر سواقي البنّ على حوافها ترحيبـــاً بالضـــيف، والدستُ يقتنى لتُطبخ فيه الذبائح والمنسف يقتنى لتسكب فيه الولائم، ولا يُعلّق على جدارٍ إلا لاستراحةٍ بين وليمتين.

وحين يقتنيها محدثو النعمة تبدو هجينةً في بيوتهم، تُدين ماضيهم أكثر مما تُزكّي حاضرهم.

***

ألفتُ عائلة خليل أسرع مما ألفتُه. بوابة بيتهم مفتوحة للعابرين، «يا هلا. تفضّلوا.»، ولا يتهيّب الضيف، يدخل ويقيّل معهم تحت عريشة العنب أو في المضافة أو يدلف عبر الزاروب الجانبي لينضمّ إلى جلستهم في صحن الدار، يتغدى معهم، يدور كأس المتي وينجدل معه حبل الكلام أو النمائم أو مشاريع سريعةٌ تولد وتكبر وتموت في أرضها.

على بطء تبدّد حذرُ حماتي مني؛ أنا الكنّة بنت المدينة. سمحتْ لي أن أجدل ما أبقى لها العمرُ والحسرات من خصلات شعر، مرّرتُ حبلاً من الحرير البنفسجيّ بين أثلاث جديلتيها الهزيلتين. كل عجائز البلدة لا يقتنعن أن جدائلهنّ متينةٌ من دونه. دلّكتُ ركبتيّ والد خليل بالزيت، استجابتْ مفاصله اليابسة، مشى بها حتى مضافة العائلة ليحفظ مكانه في مقعد الرجال.

نادتني «زين المحضر»: «يا بنتي ناوليني علبة البهار تلك التي من لون التراب.». يا بنتي! كما لو أنها أمي تناديني، كما أبداً لم تنادني أمي، كما رجوتُ لو تناديني أم كمال. حضنتُ دفء التراب، لون التراب في علبة البهار، سرتُ به إلى زين المحضر حيث تقف بظهرٍ مشدودٍ تحت سقف الربد في المطبخ المعتم بعصبة رأسٍ خمريّة اللون ودامرٍ من لون عصبتها، بصبر أيوب وبخيوط الدي أم سي طرّزت صدر دامرها وجيبيه لتلبسه فوق صايتها السوداء الطويلة والمهفهفة،

توجّ الحنّة الحمراء على شعرها، يفوح من طبختها طيب البهار، تجول بين بابور الكاز ونملية المطبخ، تنادي على قطتها الحائمة بين برميل الطحين ومرطبان القاورمة:»كم فأرةً أكلتِ البارحة يا فجعانة؟» تضع لها بقايا طبخة الأمس في صحنٍ مطعوج وترفع رأسها إلى عش السنونو في السقف: «انتبهي، لا تطيري إلا عالياً، لو وقعتِ ستفرفسك هذه الفجعانة بين أنيابها..»، بصوتها الخافت تناجي ربّاً رحيماً مقيماً في صدرها وتخرج لتعشيب مساكب الحاكورة، تناغي زريعة المردكوش عند زاوية الدرج، تُسكِتُ الغنمات في حوش الدار بوجبة عشبٍ طازج، تُمسّد ظهر الخاروف المعلّف بسخاءٍ ليذبح في العيد، تشرد مع صرير الزيزان الفاقسة في عدّان الشوب، يُبكيها عنينُ طفل الجيران الممغوص، تحمل زيتها وتروح لتمسّد بطنه به وتقرأ له كلام الله، وتكمل دربها لتمسّد الأنين المكتوم في صدور نساء مرج العكوب.

زين المحضر عمّة أمي وعمّة أبي وعمّة خليل. أريدها عمّةً لي لا لهؤلاء وحدهم، لم يستدلّ قلبي قبلها إلى صدر عمٍّ أو حضن خال، ولا دلّلتني خالةٌ أو سندني زندُ عمّة. هلّ أعمامي وخالاتي عليّ في مرج العكوب فجأةً كزخّات برَدٍ تؤذيني أكثر مما تروي عطشي. رسمتُ لهم ابتسامتي الرزينة وأحكمتُ القفل على اضطرابي. قابلتهم غير جازمةٍ إن جاؤوا يباركون عرس خليل أم ليتعرّفوا إلى ابنة مرهج أبو شال، المدينيّ الذي أدار لأقاربه الفلاحين ظهره! ثم فجأةً عادوا إلى غيابهم، كذلك كفّ أهلي عن زيارتي ومنعني خليل عنهم وعن مسقط رأسي، ثم سحبني إلى مربّع غرفتي: «سنستقلّ بطعامنا عن طبق العائلة الكبيرة لينتظم مصروفنا». تكدّر وجهي و لم أُعلّق.

أضاف خليل: «أقلّ حقوق الزوج أن يأكل وحده مع عروسه ومن طبخ يديها». حصرتُ طبخاتي بما يجلبه خليل إلى الغرفة. أفردتُ ركناً لمطبخٍ مصغّر خلف القنطرة الحجر، زينته بمفارش من حياكتي، دهنتُ الخزانة، ساعدتني زين المحضر على طرش جدران غرفتي بالكلس، رتقتُ حواف السجادة. تغندرتْ أغراض غرفتي وزهتْ كأنّ مستهلكاً قبلي لم يرمها إلى خليل بعد أن لم يبقَ فيها رمق.

حفظتُ عن ظهر قلب تلك المدوّنات الدقيقة والصارمة في مفكرة خليل، مواعيد مشترياته وما تحوي أكياسها. يشتري تموين السكر والرز والشاي من المؤسسة الاستهلاكية، ومن السوق كيلو لحم وشوال بطاطا صغير وثلاثة كروزات دخان بول مال وخمس قناني عرق الريان.

أضيف بضع فرطاتٍ من اللحم مرّةً إلى البرغل ومرةً إلى الرز أو إلى البطاطا. يتربع خليل، يفرد رغيف الخبز أمامه، يقلّب الطبخة بالملعقة لينقل قطع اللحم كلّها إلى رغيفه، يشقف منه لقمة مع قطعة لحم ويغمسها من الصينية.

«وأنا يا خليل أريد أكل اللحم..».

«شو إنتِ ما بتفهمي؟ كل ما آكله سيعود في الليل إليك وحدكِ من هنا». يشير خليل إلى أسفله.

لم أعد أخرج من غرفتي. ترصدني سلفتي من شباكها حين آخذ إبريق الماء معي إلى المرحاض الشمسيّ في آخر حاكورة البيت، أو حين أشطف الأرض أمام غرفتي: «انتبهي يا عروس، الماء شحيحٌ عندنا وأنتنّ، بنات المدينة، متعجرفاتٌ لا تؤدّمن بنعمته». ارتدّ لي الصاع الذي كِلناه في المدرسة لبنات الريف: «حتى لو تمدّنتوا

وصرتوا تعرفوا تتمكيجوا وتلبسوا كنزة وبنطال، بتظلكّن بنات قرى ووجوهكن مبقّعة بشمس الحصيدة».

ضعتُ بين ريفٍ لا يُسلِمني مفاتيح أهله ومدينةٍ لا أجزم إن بقي فيها من يتذكّرني، وحبيبٍ غاب طيّ الأسئلة وزوجٍ اشترى جمالي بفتات المال لأملأ بيته وليله.

أوّل الليل أُملّس قطعة خبزٍ باللبن المصفّى، أقضمها كقوتٍ لا أشتهيه وأحضّر المازة لخليل وحده. أنا أيضاً مازته اليومية. أرتدي روب نومي الرخيص، ليس مهمّاً، فقريباً سأخلعه. خليل لا يهتمّ أيضاً بالثياب، ولا بالكلام العاطفيّ، تتوقّد عيناه وتنبت فيهما عروقٌ حمرٌ بعد كأس العرق الثالث: «اخلعي روبك».

أُغمض عيني ليُسمِعني ناصر كل أصوات الحب، وبرقّة ومهلٍ يخلع عني ثوبي.

طقوس خليل مرسومة: عليّ أن أسير عارية من يمين الغرفة إلى يسارها، يتأملني بشمل: «كان لتلك العبدة الزنجية ثديان أكبر»، يلحس طبقة اللبن عن الملعقة فتطقطق في حلقه، أعاود المسير من يسار الغرفة إلى يمينها، «مؤخرتك رخوة. كانت مؤخرة الفتى الزنجيّ صلبة، لكنّ شعركِ جميل. ارفعيه بيديك وسيري إليّ هكذا، بالمقلوب، ظهرك إليّ، هكذا أشتهيكِ أكثر مما كنتُ أشتهيه». أسمع مضغات حلقه المحشوّ بالخيار، أرجف من لحس لسانه لرشفة عرقٍ رشقَها على ظهري، ثم يشقّني الألم.

(سافر بي ألمي إلى المدرسة، كنتُ أهرب مع أرجوان إلى غزَل الشباب في السوق «يا حلوة يا لابسة المريول، يا ليتني زنار ع

خصرِك». نلتفت، نتعرّف، نذرف المواعيد ولا نأتي إليها، نكتفي بفرحة أننا مرغوبتان. إلا «وديع»؛ الفتى الريفيّ الخجول طالب البكالوريا، ذكراي الوحيدة قبل ناصر. كنتُ في صفي التاسع حين رابَط وديع لأسابيع أمام مدرستنا بسماحٍ كأنّ لا شغل لديه سوى انتظاري. ورث وديع اسمَه من زجّال لبنانيٍّ شهير، وبسببه أيضاً تعلّق بكتابة القصائد الشعبية الرومانسيّة. هو ما لحق أن يخبرني به في موعدنا الاستكشافيّ الوحيد في غرفته. جلس قبالتي على الأرض، أبقى بيننا مسافة أبعد من نصف متر، استعان على بوحه بالإشارات الملوّعة، أسرّ لي أنني ملكةٌ تحرمه النوم، وأجمل من «إغراء» في فيلم (الفهد). لم ينفع إفلاتُ شعري من ربطته، ولا تذبيلُ عيني، في زحزحة وديع من مكانه ليدنو مني، احمرّ وجهه وانكمش مثل كوز الشمندر المسلوق. ربما هو مثلي يقلّب في خياله مشاهد العناق والبوس في الأفلام والصور وتتوه عنه كلها في اختباره الغرامي الأول. لعنتُ حظي الخائب، ستسألني أرجوان عن لقائنا، وسألبد في خزيي أو سأكذب. بدلالٍ ألقيتُ يدي على ركبته: «طيّب ما بدّك تضيّفني شاي؟». «تكرم عينك، على راسي». «قوم لنعمل شاي سوى». «اي... بس بتعرفي؟ مطبخي مكركب». وبدلاً من أن أنخلط نهضتُ لأجرّه من يده: «ولوو.. شو بهمني إذا كان مطبخك نظيف أو عبيسرح فيه الذبّان؟!». لم نلحق أن نشرب الشاي أو حتى نحضّره، ما إن ملتُ عليه حتى أغلق عينيه وضمني بقوةٍ تكفي لخلع ضرس. هجمتْ شفتاه إلى خدّي إلى أذني إلى جبيني وأنفي، وأطبقتا على شفتيّ بحمّى جائحة، أفلتهما ليزفر ويصعد لهاثه: «بحبك. بحبك». كلمة؛ ما لحقتُ أن أسمع سواها، لزقتْ شفتاه بعنقي، سرى اللسعُ

إلى عمقي، علا أنيني، انقصفت ركبتاي، وقعتُ على الأرض سكرى أو مشلولةً أو نصفّ حيّة. صحوت قبل وديع، رأيته ممدّداً لصقي، يده فوق يدي، ويدي أسفل بطنه، يعلقُ بها سائل لزجٌ تفشّى على بنطاله المشدود الحزام. أفاق وديع ورآنا، بكى بحرقة طفلٍ آثم).

نطق خليل بعد شخرته المفزعة: أحسنتِ، اطلبي ما تشتهين، سجّليه على ورقة ويكون عندكِ أول الشهر». منّيتُ نفسي بطقم تفتا أسود، بطقمٍ داخليّ، دانتيل، كالذي اشتريته يوماً لحبيبة ممدوح، بكندرةٍ بكعبٍ رفيعٍ وعالي، بجزدان جلدٍ عليه رأس وعل، بعطرٍ أجنبيّ. وأهداني خليل أول الشهر ملقط حواجب، وروب نومٍ بورودٍ صفراء: «شوفي ما أجمله»!.

لكنّ وحدتي في النهار عذبةٌ. أطال جرابي الأحمر والأبيض من خبائه البعيد عن مطال خليل، حكتُه بالأبيض والأحمر، ألواني التي أحبّ وحشرتُ فيه ثروتي الصغيرة من بيت أهلي: كاسيت ناصر (عيونه من نارة. تحسبها شمسين. لو يرجع نهاره. واصطبح بيها. ناتالي)، ديوان نزار، رسوم رجاء على مشارف موتها، ثمرات بلوطها وجديلة الصنوبر وسنابل القمح وأعقاب أقلام التلوين، ودفتري الذي سوّدتُ عليه خرابيشي كلها. هنا كتبتُ يوماً:

(بعيد عنك حياتي عذاب، ما تبعدنيش بعيد عنك).

فوق كلمات الأغنية تطفو آثار دمعاتي. من ملحها تشظّى الحبر ومحا وضوح الكلمات.

هنا كتبتَ يوماً: (سألقاكِ حين أحقق ذاتي ونشرب كأس الغرام عسل)

هنا كتبتَ يوماً: (لو مرّ سيفٌ بيننا لم نكن نعلم هـــل أجـــرى دمي أم دمك!).

لو أحكي للعمة زين المحضر عما حدث في يوم بعيد؛ كـــان لي حبيبٌ أقسمَ بصخرة الروشة أنني سأكون امرأته، وأنّ كـــل نســـاء بيروت لا يساوين أظفري.

15

العمّة زين المحضر،

أباريقها النحاسُ تمتزّ على رفوفها كلما عبرت سيارة اللاندروفر في ساحة مرج العكوب ويجفل النوّار في صدرها إن نادت امرأةٌ على ابنها: «يا سلامة» ويلتاع المحزم الفضّة حول خصرها إن راحت بخطو القطا إلى بيت الموتى لتنحب: (أنا يا ذيب بكّاني عويلك)، ويسقط قلبُها على الأرض قطعةَ لحمٍ مدمّى حين تستحلف كلّ عائدٍ من لبنان: هل رأيتَ هناكَ وليدي؟ ويرجف المبروم الذهب في معصمها كلما سيق فتىً من مرج العكوب إلى العسكرية.

من أباريقها تسقي ماء الزهر للعائدين إلى البلاد في الصيف، وعلى خصور الأباريق ينمو طحلب غيابهم في الشتاء، وفي الربيع توجّ الأباريق في رحلة عودتها من خيام النّوَر.

في الصيف ينصب النّور خيامهم على عجلٍ قرب المطحنة، منها يأخذون طحينهم ويخبزونه عويصاً يوماً بيوم، ويصلحون فيها، وفي بيادر القرية، ما تلف من غرابيل وكرابيل ومقاطف حبوبٍ وأمشاط مذاري، ثم يطوفون على الحارات، تنهق حميرهم للحشيش الأخضر على مدّ النظر، تتمايل على سروجها الشراشيب الملونة:

«مبيّضين نحاس. فكّاكين خطوط. حذّائين حمير. تركيب سنان ذهب. بصّارات تقرا البخت. أساور خرز. كحل للعين...»

عبرتْ النّوَرية أرض الدار بكحل عينيها وغوايش الفضة على منديل رأسها ورنّة عقودها وأساورها وخلخالها. لملمتْ أباريق زين المحضر، أخذها الفتى النّوَريّ لتبييضها بالقصدير والنار.

تربّعتْ النّوَرية، خشخشتْ بخمس ودعاتٍ ورثتها عن إحدى جدّاتها العابراتِ من شواطئ بحر قزوين إلى بلاد العرب: «يا مبيّض الفال، يا مرجّع الغيّاب، يا فكّاك الكُرَب. اضمري يا زينة، والفال على الله.».

طارت الودعاتُ في الهواء وترنّحتْ على أرض المصطبة:

«يا زينة. وحدّي الله وصلّي على محمد رسول الله. يا زينة علا سعدُك في الماضي وخبا مثل احتراق نجمة. ستعيشين طويلاً، عمرُكِ محفوظٌ في حجر صوّان، لن تُغلبي ولن تموتي إلا مجبورة الخاطر. يا زينة قولي إنشاالله. ستعانقين أحبة قدامى لم تجري ميل الكحل في عينيك منذ فارقتِهم. سمّي بالله وروحي خلف ستارة المطوى، انبشي من صندوقك المطعّم بخرزٍ أزرق وأحمر منديلاً زهريّاً لبستِه يوم سعدك، طالي منه ميل الكحل وجرّيه في عينيكِ واغتسلي بماء المنهل قبل الفجر، وانتظري السعد بعد إشارتين»

(بشّرتها النّوَريّة: بعد إشارتين. ربما يومان أو شهران أو سنتان. جاءتها البشارة بعد عشرين سنة)

في عامها الرابع عشر اكتملتْ زين المحضر صبيّةً حلوةً كزهرة العطرة. بمشية الحجَل حملتْ طبق الفطور إلى التاجر الزعفراني المتريّض في مضافة أهلها. سأل التاجرُ والدها قبل أن يُحمّل تنكات الدبس على بغليه الأغبرين: «هل بنتكم مربوطة؟». «لم يحضر نصيبها بعد!».

عند الضحى، في آخر موسم الدبس ذاك، حضرت الفاردة لتزفّ زين المحضر عروساً لسلامة ابن التاجر. ساروا بها على ظهر الفرس يغنّون ولا يستريحون. غطّوا وجهها بالإيشارب الزهري طوال رحلتها من مرج العكوب إلى خربة المقرن الشمالي. عند المغيب وصلت العروس منهكةً وموجوعة الظهر. سلامة لم يأتِ مع الفاردة، كان ينتظرها في بيته على حرّ الرهبة، رفع عن وجهها الإيشارب، ابتسمت له باستحياء. لم يرها من قبل. كانت أمه وعمّته باتتا ليلةً عند أهلها لتنقداها، كشفتا عن أسنانها، سليمةٌ من النخر، حمّمتاها، ليس في تكوينها نقص، شمّتا عن قربٍ رائحة أنفاسها، راقبتاها تغزل الصوف وتحلب الأغنام وترفع سطل الحليب إلى كتفها ولا ينحني ظهرها، اجتازت العروس امتحانات المرأتين.

قبل زين المحضر كان سلامة الزعفراني مشغولاً بالله وحده. قد حبّب الله عباده بسلامة الفيّ. يقولون أنّ علمه ولد معه، يحمله في رأسه من حيواتٍ سابقة. كان سلامة أصغر الفتيان في حلقة شيخ البلدة، تعلم الشيخ في مدارس الفرنساوية وعاد ليعلّم صبيانها. بعد جلستين على يديه سيصحّح سلامةُ للشيخ أخطاءه في الإملاء وفي العروض.

لا يغادر سلامة قريته. صديقاه في الدنيا الأرضُ والشُّغل. يشتغل من قَبل الشمس حتى مغيبها. يستريح بين هبيّ بذارٍ أو حصادٍ أو نكشٍ أو تعشيبٍ أو عزق حجارة. يشرب الماء من مطرةٍ ملفوفةٍ بالخيش، يأكل خبزاً وبصلة وعروق مُشّا أو رشادٍ بريّ. يسمّي باسم الله قبل كل لقمة، يلوك ببطء، بعد كل لقمة يحمد لله. إن غلبه النعاس يتمدّد في ظل الخيمة الحجر. يفيق ويستعيد في ذهنه رسائل

الحكمة الشريفة أو يُنهض همّتَه بالأشعار الصوفية، يستعجل ساداته الحدود الخمسة ليخرجوا من خلف سور الصين ويعلنوا القيامة:

شرّف سيّدي سلمان/ من الشرق جتنا افضالو/ بالعساكر والفرسان/ أهلا بسيدي ورجالو

والعاجز نهضة ما لو/ مقصّر يا ضنى حالو/ قلبي يحبك يا (سلمان)/ وإن قالوا أيش قالوا...

صحا سلامةُ مرّةً في الكرم، أحسّ صدره ثقيلاً كربدَة، بالكاد يأخذ نفساً. جسده ساخنٌ كحديدةٍ حمّتها شمس الظُّهر. حاول رفعَ رأسه، وقعت عيناه على أفعى تلتفّ على صدره مثل كعكةٍ ثخينة. تمتم لها: «سيري يا مباركة.». لم تتزحزح. أعاد: «سيري يا مباركة». أخرجت الحيّة رأسها من بطن الكعكة، تلاقت عيناها بعيني سلامة، مدّتْ الأفعى لسانها المشقوق، همس: «سيري يا مباركة». جالت الأفعى برأسها تفكّر إلى أين تتجّه. انسلّتْ عنه ببطء. حين انفكّتْ آخر دوائرها عن صدره كان رأسها قد اختفى داخل الجدار الحجر. نهض كمن يصحو من حلمٍ دامس. لمح وجه جارِه في الكرم أصفرَ كالليمون، حيّاه فلم يردّ، سقط الجار فاقداً وعيه. ركض سلامةُ إليه، نقّب في أنحاء جلده، لم يعثر على أثرٍ لناب الأفعى، رشّ وجهه بباقي الماء في مطرته حتى صحا. بعد يومين انفكّتْ عن الجار عقدةُ لسانه:

«بعينيّ اللتين سيأكلهما الدود رأيتُ الحيّة تنام على صدر سلامة، تلحس خدّه، تلحس شاربه، تلحس يده المطويّة تحت رأسه كوسادة، بعينيّ رأيتُ سلامة يفيق ويراها ولا يرتعب. أشهد أنّ لهذا الرجل سرّاً عند خالقه».

هرّ الشعر من شاربي سلامة ولحيته حتى آخر شعرة. مع الهلال التالي نبتت له لحيةٌ بيضاء وشاربان أبيضان كالحليب، وبقي شعر رأسه أسود فاحماً حتى مات.

بعد حادثة الأفعى سيصير اسمه: «الشيخ سلامة»، يعود من شغله إلى كتابه، يقرأ ويؤلّف أشعار التوحيد، بها يستغني عن صحبة الأهل وولدنة الشباب وسمر الجيران، يستأذن والده بالاعتزال من الدنيا، سيغادر ليتعبّد مع رفاقه الأجاويد في خلوات البيّاضة في جنوب لبنان، يقرّر والده أن يعيده إلى حاضرة الدنيا بزوجةٍ ثم أولاد، يخطب لسلامة دون أن يستشيره.

لا يعاند الفتى أباه. كان عمره سبعة عشر عاماً حين دخلت زين المحضر بيته يصحبها صندوقها. أخرجتْ منه كيس حريرها المطرّز (السبّوبة)، في الكيس بقجةُ جهازها وحليّها الفضة والحيلة والفتيلة. علّمتْها أمها كيف تستبدل فتيلة سراج الغرفة بفتيلتها لتبدأ حياتها مع سلامة بنورٍ جديد. لن يباشر العريس فكّ الحيلة (دكة الحرير) عن سروال عروسه قبل احتراق الفتيلة كاملةً. اختارت زين المحضر فتيلةً متوسطة الطول كي لا ينفذ صبره. لكنها، ككل عروسٍ عفيفة، احتالتْ في عقدة الدكّة ليصعب على سلامة فكّها، فليحاول بأظافره أو بأسنانه، لا يليق بالعريس أن يقصّ الدكّة أو يُخزّقها.

سلامة، المقتفي شروح الأفاضل، لم يحاول فكّ دكّة عروسه قبل انقضاء شهرين.

(ابن آدم وديعة الرحمن على الأرض، خلقه ليعمّرها ولينجب من يرثها من بعده. الجوّيد الدّيان لا يتزوج إلا لإعمار البيت وديمومة

النسل، ويستمهل شهرين قبل أول وصال لعروسه؛ بهذا يُدرّب صبره على الشهوات، ويجتنب الطعن في عذرية العروس فيما لو ولدت جنيناً سبيعّياً. الدّيان المشغول برضا خالقه لا يقرب زوجته لإطفاء الغريزة، ولا يقربها في حملها أو رضاعتها، حرامٌ أن يقربها إلا في طور خصوبتها وبقصد الإنجاب).

بجّلتْ زين المحضر زوجها كما رأتْ مَقامه بين أهله. غارت من الأرض التي سرقت نصف قلبه منها، يبشّ سلامة للأرض في سنة الخير كما في سنة المحل، «الأرض تحزن مثلنا إذا أمحلتْ، تحنّ إلى مَن يُواسيها ويُكرمها ويحمل عنها جدبها. لا تُقصّر الأرض إلا مع المقصّر»

بشّتْ زين المحضر للجارات المنتظرات زوجها لحين عودته من الأرض، يحملن طاسات ماءٍ يقرأ سلامة عليها من كتاب الحكمة لطرد الحسد أو تيسير زواجِ البنت أو شفاء الأولاد. يكتب سلامة بالحبر الأسود على حنك الولد المتورّم بـ «أبو كعب»: «سماء مجدك مطلّة، وسحائب جودك منهلّة، وأنتَ المغني من كل قلّة والشفاء من كلّ علّة»، وتحشر زين المحضر أدعيته في ذاكرتها.

«أستغفر الله...»، يقول لزوجته إن حاولتْ غسل رجليه. يتربع قرب العتبة، يمضغ طعامه ببطء فلا تحزر إن كان غير جوعانٍ أم أن طبخها لا يعجبه. «ماذا أطبخ لك غداً؟». «إلى الغد فرجٌ ورحمة. كل ما تطبخينه طيب». يزجر نفسه الأمارة بالشهوات إن استطيبَ حنكاه صينية البطاطا المغمسّة بالدهن أكثر من المجدّرة. فالمؤمن الحقّ لا يُفضّل أكلةً على أخرى. يستغفر الله بالصيام مرّةً كل يومين، يوم طعامٍ ويوم ماء، يُبعثر معدته بين راحة الأكل وعضّات الجوع، يقرأ على نور قنديل

الكاز من «السفينة» (كتيّبه الصغير) أشعارَ وأخبار الزاهدين: أحمد السبتي، ذو النون المصريّ، رابعة العدويّة، والشيخ الفاضل الأمير التنوخي، يرجو لو يحشره الرحمن قربهم في دار الأمان الأبديّ.

في سنوات زواجهما الخمس، انتزعت زين المحضر من زوجها بضع ليالي حميمة، وأخصبت بولدين: فضل الله وسليمان، وفي كل الليالي الباقية كانت تستحي أن تطلب الوصال.

يستفقدها أهلها بصابونٍ ودبسٍ وزبيب يحمله إليها عمها التاجر، تعنّ على بالها مرج العكوب، تخجل أن تزور أهلها وحدها بلا رفقة سلامة، وسلامة مشغولٌ بالله. تنشغل بالولدين والبيت والحاكورة والأغنام ولا يبقى ما تفعله ولا يخلص النهار. لو كان عندها راديو مثل الذي في عليّةِ الدار لاستمعتْ من إذاعة لندن إلى الأغاني العاطفية.

«هل تشتري لي راديو يا شيخ سلامة؟»

«يتزود المرء بالتقوى، لا بمتاع الدنيا الزائلة»

يضع سلامة رأسه على مخدة الصوف ويغفو. سريعاً يغفو، سريعاً يثقل نومه.

***

في ذلك اليوم..

طقّ قلبها في انتظار عودته، لا يريد هذا النهار أن ينتهي. يقرص البرد قلبها. ينكبس صدرها بالهمّ كحبات الرمان. الكلب المقطوع الذيل يسترخي في ظلّ الزيتونة، يحكّ أذنه بكسل. تطنّ أذنها. «خير. اللهم اجعله خيراً». تهجم على بالها مرج العكوب.

وطلعت أنا رجم متعلّي/ ديرة هلي ما بي شايفها
يا دمعتي من الجفن هلّي/ والعين طلبت ولايفها

طبّ سلامة على أرض البيت كأنه حطّ من جناح غراب. ليس هذا وقت عودته، هل قال: «العوافي يا أم فضل الله؟». كرج إلى زاوية الغرفة ونكش الصرّة الكبيرة، انتثرتْ على البساط أقراص البسكوت وكعوب الراحة والقضامي الزهرة وعلبة الحلاوة. «لا يكذبون عليّ إذاً!». «يا شيخ...». «أخزيتني أمام ربي وعباده». كان حذّرها من قبول الهدايا. لوجه الله يقرأ للعباد على كأس الماء لا لكسب الثواب ولا ليقايض خدماته بمالٍ أو هدايا. الله وحده شفاهم وليس هو. كان حذّرها لكن الجارات حلفن أن تقبل هداياهنّ. من قلبٍ خالصٍ يهدين زوجة الشيخ. من وشى له أنّ زوجة الشيخ تبيع الهدايا في دكان القرية لتجمع ثمن راديو؟!.

«لا أقدر على ما تقدر عليه يا شيخ. النفس تشتهي»
«اقفي من قبالي يا امرأة»

(اقفي من قبالي تعني أنت طالق. طلقةٌ وحيدةٌ وبائنة، لو نطقها رجلٌ من (الجُهّال) قليلي العلم والدين، وحتى لو بالغ بقول ما لا يَفهم: (أنتِ طالق بالثلاثة، أنتِ طالق على المذاهب السّتة)؛ ستبقى قولة غضبٍ لا تُلزِم بمعناها، سيستمهله أحد الأجاويد التُقاة لأيامٍ ثلاثة، يجالسه ويطلب منه أن يفكّر بروّية: هل استلبه الغضب فنطقَ باطلاً وهدم أسرته وظلم زوجته؟ إن كان فعل يستغفر ربه ويستعيد زوجته إليه حلالاً. وإن تلكّأ الرجل في الجواب، وماطل أطول من المهلة ثم اهتدى وقرّر أن يستعيد زوجته، يعيدونها إليه حلالاً له على

أن يعوّضها عن تأخُّره في استردادها بمصاغٍ أو أرضٍ أو مالٍ يضاف إلى مؤخّرها ولا يُقتطَع منه.)

لطمتْ زين المحضر صدرها: «لا تقولها يا بو فضل الله...»، فسلامة ديّانٌ، والديّان يحتكم إلى عقله قبل نطقه ولا يُسلِم نفسه لرذيلة الغضب، لزلقة لسانٍ أمضى من سهمٍ يخرق بيته.

لم تحمِه ديانته ولا ورعُه. غلطة الشاطر بألف.

كالممسوس فزّ سلامة ثم خرّ في مكانه. صارتْ زين المحضر طليقته، حرامٌ عليه النظر إلى وجهها أو حتى إلى مشّايتها عند عتبة الغرفة، قام من سقطته، أطلق ساقيه خارج البيت محمولاً على ريح الندم اختفى في أرض الله الواسعة.

كل النهارات بعد اختفائه ستكون أطول من صبر أيوب.

***

في بيت سلامة تعلّمت زين المحضر أنّه لا أمان لشهر آذار، (ساعة شمس وساعة مطار وساعة مقاقاة الشنّار، أنّ المستقرَضات، أيام آذار الثلاثة الأولى تستقرض صقيعاً من شباط لتخطف أرواح العجائز.

لن يدفّئ زين المحضر هذا العام لا حطبٌ ولا مجمرة، آذارُ المقرن الشماليّ طلّقها من زوجها، وآذار مرج العكوب خطف روح أمها.

في نيسان الآتي لن تكون زين المحضر في المقرن الشمالي لتشارك نساء الخربة مقارضة الحليب ولن تخضّ لبنها وتُصفّي زبدها وتفقس سمنها، ولن تقطف الحدندوق ودحنون نيسان في ليلة أربعاء البراقطة من البرية وتنقعه في الماء وتغسل بنقيعه وجهها قبل طلوع الشمس

ليحميها من عقصة الأفعى، ولن تسلق لولديها في خميس البيضات بيضاً ملوّنا.

ولن تتنفس ملء صدرها لرحيل البرد بعد عيد الخضر في السادس من أيار.

ولن تنشر قمحها المغسول على سطح الدار في آب، ولن تسلقه وتجرش مؤونة البرغل. ولن تساعدها النساء في (تطبيع المقباية) ولزق طبّوع روث البقر المخلوط بالتبن على الحيطان ليبيس ويصير وقود شتائها.

وفي ليلة الصليب، 27 أيلول، لن تذبح خاروفها المعلوف وتخزن مؤونتها من دُهنه ولحمه، ولن تصفّف اثنتي عشرة كمشةً من الملح على سطح الدار، على عدد شهور السنة، وتحصي في الصباح ما سال منها على الأرض لتُنبِئها بعدد الشهور الماطرة في الشتاء الآتي.

ولن تقطف زيتونها الأخضر قبل سقوط المطر، ولا الأسود بعد أول شتوة. ولن تعقّد مربّى التين، ولن تُقطّر خلّها ليلة الأحد ليحتدّ طعمه بعد تخميره أربعين يوماً في الظلّ.

ولن تتبع صوم الأيام العشرة قبل عيد الأضحى من مغرب الشمس إلى مغربها التالي كعبادةٍ مستحَبّة، وكانت تتبعها حبّاً بسلامة.

وحيدةً باتت ليلها قاعدةً ذاهلةً لأول ليلةٍ منذ خمس سنين. في الليل رأت ابنها فضل الله يتململ، يكتم شهيقاً خافتاً، يمدّ يده ويلمّ من الأرض حبّات القضامي زهرة، ويأتيها من تحت لحافه صوتُ قرقشة. من تلك الليلة سيخاف فضل الله من الليل وتعنّ على باله القضامي زهرة ليداوي بها خوفه.

طلع الفجر، في مضافة عمها التاجر لفظتْ زين المحضر سمّ الخبر ثم سألتْ:

«هل تسمح لي بأخذ ولديّ معي عنـــدما تعيـــدني إلى أهلـــي يا عمي؟»

16

طريق الرجوع مرٌّ وسرمد. (طخ الرصاص ولا الرجعة للأساس). لو ماتتْ قبل أن يجفّ قبر أمها، قبل أن يرى أبوها قافلةً ذميمةً بلا أفراس شهباء ولا فاردة، وقفتْ عند باب الدار كبومة شؤم، نزل التاجر وأخواه عن ركائبهم، تلعثم التاجر الفصيح:

«راية بيتكم بيضا، إنما انقطعت لقمتها من بيتنا».

نزلتْ زين المحضر مع صندوقها المطعّم بالخرز الأحمر والأزرق عن ظهر الحمار، لا صرر معها ولا هدايا، تركتها كلها في المقرن الشمالي، وتركت فيه ولدين وحيدَين وقلباً طعيناً.

في غرفةٍ داخليةٍ معتمة اعتكفت الأرملة زين المحضر بلسانٍ معقود وصدرٍ ينشج:

(يا عين جوزي عن هذيك الحارة/ نصبك لهم يا عين راح خسارة

وإن كان عن طرد الهوى ما تجوزي/ ل كحّلك بالصبر والجنزارة)

وفي عتم معتكفها طلع لها سلامة:

(يا زينة هل نسيتِ تلك الموعظة:

كان يا ما كان زوجٌ وزوجة. هبّت الريح في أرضهم فطارتْ نبتةَ الشوك، ضحك الرجل وارتابتْ زوجته. «هل تحفظين السرّ إن

أخبرتُكِ؟». «تسألني إن كنت أكتم سرّك؛ أنا التي قاسمتكَ بيتي وفرشتي خمسين سنة؟!». «هل تذكرين فلاناً الذي اختفى من أربعين سنة بلا أثر؟ خنقته بيديّ بعد أن سرقني وكشفتُه. قال لي: هاتِ شاهدكَ لأعيد لك مالك. كنا وحدنا على طريق سفر ولا شاهد لدي. تصايحنا، تعاركنا، بطحته وهدّدتُه: إن لم تُعد مالي سأدفنك كالكلب هنا في العراء بلا شاهدٍ ولا شاهدة قبر. بحلقتْ عيناه في شوك الغضى حولنا، آخر ما قال وهو ينازع: قم عني وإلا سيشهد على قتلك لي شوكُ الغضى هذا..»

في ذات المساء ناكدت الزوجةُ زوجها فضربها، جمعت عليه جيرانهما: «اشهدوا عليه سيقتلني كما قتل فلاناً منذ أربعين سنة..».

يعلم الله ما في الصدور يا زينة، ولا تخفى عليه فوق الأرض ولا تحتها خافية)

في معتكفها رأت الشيخ سلامة يلوب في البريّة، تكرّ عليه في عرائها ليلة ليلتان. خمس. سبع. لا نكش ولا زرع ولا حصاد. لا زاد. لا ماء. ندمٌ وندم ونحيبٌ وسط الحجارة السود. زوجته قالت له: «لا أقدر على ما تقدر عليه يا شيخ». لم تكن زين المحضر تكذب، كانت تشبه نفسها، كان على علمه المولود معه أن يعينه على فهم أنها لا تقدر على ما يقدر عليه، ألّا يطردها من دارها بجرّة لسان: «اقفي من قبالي». لم يسمعه إنسانٌ سواها، لكن الله سمعه كما سمعت شوكة الغضى نداء الرجل المخنوق. حرُمتْ زوجته عليه كما القتل حرام.

(الحبّ لله وحده يا زينة، هو المعطي وهو الآخذ وله الأمر، إليه أُسلم روحي وجسمي ومالي وولديّ، وإليه أسلمكِ)

«يا زينة»؛ كان سلامة يناديها بالنداء الذي اشتهتْه وفارقها سلامة قبل أن يقوله.

وفي معتكفها رأت عمها يعود من توصيلها إلى بيت أهلها فلا يجد سلامة في بيته، يُنهض الرجال ليبحثوا عنه في براري خربة المقرن الشماليّ. رأتْ أوراق الزيتونة تذوب، تسيل خيوطاً خضراً تغور في التراب، كانت الزيتونة مدلّلةَ سلامة، يسقيها بالطاسة الصغيرة كل يوم.

من معتكفها رأت سلامة ممدّداً في تابوتٍ من بياض، بعباءةٍ وعمامةٍ بيضاء، لحيته بيضاء، شارباه أبيضان، شعر رأسه أيضاً صار أبيض. كان له وجه طفلٍ ينام في سرير الرضى.

من معتكفها رأتْ نفسها قرب سلامة، يهدل حولهما طائرٌ أبيض.

«الآن يمكنني أن أحبك يا زينة»

وفي معتكفها انكشف لها كم عشقتْ سلامة وكم صارت مع الوقت تشبهه.

بكتْ حتى الخدر لا من مصيرها بل من شدّة الحب.

وفي معتكفها رأتْ علومه تندلق في رأسها، وترسخ فيه كالنقش الصينيّ.

«دعك من باهت الكلام يا زينة واسمعيني:

قدّر الله وما شاء فعل. الولادة والموت والزواج والطلاق وعدٌ مكتوبٌ على جبين ابن آدم، لن ينفذ منه وإن تخفّى خلف ألف باب

قد التقينا كما مقدر لنا، والآن أمضي وسوف تعيشين من بعدي طويلاً.

ولدانا وديعة الرحمن، ليسا لي، ليسا لكِ، هما لربهما يتولاهما ولا يخذل.

لن تخافي ولن تجوعي ولن تمدّي يدك للأقربين. أنا قمر ليلك أنا شمس نهارك أنا دحنونة ربيعك أنا نهلة صيفك، أنا دبس خريفك، وأنا حطب شتائك وجمره»

إلى معتكفها عاد عمها التاجر بعد دفن ولده يعرض عليها أن تقبل بأخ سلامة زوجاً جديداً، فتبقى على ولديها ولا يربيان يتيميّ الأبوين.

«لم تقبل أن آتي بولديّ معي يوم أعدتني إلى بيت أهلي يا عمي، ولداي وديعة الرحمن، ليسا لي، ليسا لكَ، هما لربهما يتولاهما ولا يخذل. رحم الله سلامة، لن أستبدله بأخيه ولا برجال المقرن الشمالي ولا مرج العكوب، ولا برجال السند والهند».

من معتكفها نهضت زين المحضر تزرع المساكب وتصنع الخوابي وتولّد النساء وتنقش الحبر على أحناك الأطفال وهي تتلو تسمايتها السحرية، وتجمع من البريّة نبتة (قث حمار) دواءً للبواسير وديدان (بقرة نيسان) للدمامل وزيزان (الذرنوح) للحزازة بعد قطع رؤوسها ونقع أجسادها في زيت الزيتون. وبالنار تكوي للأطفال سررهم المفتوقة وخصاهم الهاجرة.

طريق الرجوع مرٌّ وسرمد. (طخ الرصاص ولا الرجعة للأساس). لو ماتتْ قبل أن يجفّ قبر أمها، قبل أن يرى أبوها قافلةً ذميمةً بلا أفراس شهباء ولا فاردة، وقفتْ عند باب الدار كبومة شؤم، نزل التاجر وأخواه عن ركائبهم، تلعثم التاجر الفصيح:

«راية بيتكم بيضا، إنما انقطعت لقمتها من بيتنا».

نزلتْ زين المحضر مع صندوقها المطعّم بالخرز الأحمر والأزرق عن ظهر الحمار، لا صرر معها ولا هدايا، تركتها كلها في المقرن الشمالي، وتركت فيه ولدين وحيدَين وقلباً طعيناً.

في غرفةٍ داخليةٍ معتمة اعتكفت الأرملة زين المحضر بلسانٍ معقود وصدرٍ ينشج:

(يا عين جوزي عن هذيك الحارة/ نصبك لهم يا عين راح خسارة
وإن كان عن طرد الهوى ما تجوزي/ ل كحّلك بالصبر والجنزارة)

وفي عتم معتكفها طلع لها سلامة:

(يا زينة هل نسيتِ تلك الموعظة:

كان يا ما كان زوجٌ وزوجة. هبّت الريح في أرضهم فطارتْ نبتةَ الشوك، ضحك الرجل وارتابتْ زوجته. «هل تحفظين السرّ إن أخبرتُكِ؟». «تسألني إن كنت أكتم سرّك؛ أنا التي قاسمتكَ بيتي وفرشتي خمسين سنة؟!». «هل تذكرين فلاناً الذي اختفى من أربعين سنة بلا أثر؟ خنقته بيديّ بعد أن سرقني وكشفتُه. قال لي: هاتِ شاهدكَ لأعيد لك مالك. كنا وحدنا على طريق سفرٍ ولا شاهد لدي. تصايحنا، تعاركنا، بطحته وهدّدتُه: إن لم تُعد مالي سأدفنك كالكلب هنا في العراء بلا شاهدٍ ولا شاهدة قبر. بحلقتْ عيناه في شوك الغضى حولنا، آخر ما قال وهو ينازع: قم عني وإلا سيشهد على قتلك لي شوكُ الغضى هذا..»

في ذات المساء ناكدت الزوجةُ زوجها فضربها، جمعت عليه جيرانهما: «اشهدوا عليه سيقتلني كما قتل فلاناً منذ أربعين سنة..».

يعلم الله ما في الصدور يا زينة، ولا تخفى عليه فوق الأرض ولا تحتها خافية)

في معتكفها رأت الشيخ سلامة يلوب في البريّة، تكرّ عليه في عرائها ليلة ليلتان. خمس. سبع. لا نكش ولا زرع ولا حصاد. لا زاد. لا ماء. ندمٌ وندم ونحيبٌ وسط الحجارة السود. زوجته قالت له: «لا أقدر على ما تقدر عليه يا شيخ». لم تكن زين المحضر تكذب، كانت تشبه نفسها، كان على علمه المولود معه أن يعينه على فهم أنها لا تقدر على ما يقدر عليه، ألّا يطردها من دارها بجرّة لسان: «اقفي من قبالي». لم يسمعه إنسانٌ سواها، لكن الله سمعه كما سمعت شوكة الغضى نداء الرجل المخنوق. حرُمتْ زوجته عليه كما القتل حرام.

(الحبّ لله وحده يا زينة، هو المعطي وهو الآخذ وله الأمر، إليه أُسلم روحي وجسمي ومالي وولديّ، وإليه أسلمكِ)

«يا زينة»؛ كان سلامة يناديها بالنداء الذي اشتهتْه وفارقها سلامة قبل أن يقوله.

وفي معتكفها رأت عمها يعود من توصيلها إلى بيت أهلها فلا يجد سلامة في بيته، يُنهض الرجال ليبحثوا عنه في براري خربة المقرن الشماليّ. رأتْ أوراق الزيتونة تذوب، تسيل خيوطاً خضراً تغور في التراب، كانت الزيتونة مدلّلةَ سلامة، يسقيها بالطاسة الصغيرة كل يوم.

من معتكفها رأت سلامة ممدّداً في تابوتٍ من بياض، بعباءةٍ وعمامةٍ بيضاء، لحيته بيضاء، شارباه أبيضان، شعر رأسه أيضاً صار أبيض. كان له وجه طفلٍ ينام في سرير الرضى.

من معتكفها رأتْ نفسها قرب سلامة، يهدل حولهما طائرٌ أبيض.

«الآن يمكنني أن أحبك يا زينة»

وفي معتكفها انكشف لها كم عشقتْ سلامة وكم صارت مع الوقت تشبهه.

بكتْ حتى الخدر لا من مصيرها بل من شدّة الحب.

وفي معتكفها رأتْ علومه تندلق في رأسها، وترسخ فيه كالنقش الصينيّ.

«دعك من باهت الكلام يا زينة واسمعيني:

قدّر الله وما شاء فعل. الولادة والموت والزواج والطلاق وعدٌ مكتوبٌ على جبين ابن آدم، لن ينفذ منه وإن تخفّى خلف ألف باب

قد التقينا كما مقدر لنا، والآن أمضي وسوف تعيشين من بعدي طويلاً.

ولدانا وديعة الرحمن، ليسا لي، ليسا لكِ، هما لربهما يتولاهما ولا يخذل.

لن تخافي ولن تجوعي ولن تمدّي يدك للأقربين. أنا قمر ليلك أنا شمس نهارك أنا دحنونة ربيعك أنا نهلة صيفك، أنا دبس خريفك، وأنا حطب شتائك وجمره»

إلى معتكفها عاد عمها التاجر بعد دفن ولده يعرض عليها أن تقبل بأخ سلامة زوجاً جديداً، فتبقى على ولديها ولا يربيان يتيميّ الأبوين.

«لم تقبل أن آتي بولديّ معي يوم أعدتني إلى بيت أهلي يا عمي، ولداي وديعة الرحمن، ليسا لي، ليسا لكَ، هما لربهما

يتولاهما ولا يخذل. رحم الله سلامة، لن أستبدله بأخيه ولا برجال المقرن الشمالي ولا مرج العكوب، ولا برجال السند والهند».

من معتكفها نهضت زين المحضر تزرع المساكب وتصنع الخوابي وتولّد النساء وتنقش الحبر على أحناك الأطفال وهي تتلو تسمايتها السحرية، وتجمع من البريّة نبتة (قث حمار) دواءً للبواسير وديدان (بقرة نيسان) للدمامل وزيزان (الذرنوح) للحزازة بعد قطع رؤوسها ونقع أجسادها في زيت الزيتون. وبالنار تكوي للأطفال سررهم المفتوقة وخصاهم الهاجرة.

17

«روحي رهينة هذا الألم، يا عمّتي ساعديني»

شَوشةٌ، غيابٌ عن الدنيا يحلّ مع المغصة ويعيدني إليها مع انحسارها. يلفّني دوّارٌ يأخذني إلى ضباب. أطفو فوق غيمةٍ سوداء. حبالٌ تدنو إليّ، أمدّ يدي لأتعلّق بها فتدفعها الريح بعيداً. ناصر في مكان ما قريبٍ مني، أندهه، لا يسمع ندائي، تنقض فوقي امرأةٌ ربما أعرف صوتها، لكنني لا أجزم، يضيق نفَسي، أدفعها عني وتلزق بي، تكمّم فمي، أعضّها فإذا لثتي رخوةٌ وبلا اسنان. تظهر رجاء. يفصلني عنها الفراغ الرهيب. تظهر أمي من تحت الغيمة. تبدو لا تعرفني. ينشب سيخ النار في عمقي فأجعر:

«الله يهبط فيك يا خليل».

«يا بنتي اصرخي، لا تستحي، أوجاع الحشا مُرّة».

«الله يهبط فيك يا خليل».

«يا بنتي سبّي ولا تدعي، بكرا لما توعي بتستحي تسبّي، بس الدعوات شينة، بترافق صاحبها للقبر».

«كس إمك يا ناصر».

في وجع الحشا الأعمى فلتْتْ مسبتي، وانفلق السرّ وانفضحتُ. وكنا في الغرفة وحدنا أنا والعمّة زين المحضر، وصمتت العمّة كأنها لم تسمع أو كأن تلاواتها أغلقتْ سمعها عن سرّي.

من نهنهات الألم خرج رأس ابني سلطان.

بيدين من فضّة رفعتِ العمّة ولدي من رجليه. بدا كنجمةٍ قرب مطال يدي. همستْ في أذنه: «يا رب يكون من أولاد السلامة». علقتْ عيناي بوجهه حين حبلُ سرتّه بين فكيّ المقص، كان فيه شرارةٌ من شرّ.

(سيكون سلطان من أولاد السلامة لنفسه. لنفسه وحدها. لن تسلم منه أمه)

(ناصر؛ تظنّني سلوتُ حين استكنتُ إلى قدَري زوجةً لخليل؟ حفرتُ قلبي بإزميلٍ محمّى كي يلين ويطردك. اكتوى قلبي وما سلوت. كنتُ سأسلو لو كان خليل أكثر أنساً، أو لو أنك كنتَ أقلّ كمالاً؛ أنت يا مَن جئتَ أبهى من المقدمات، واختفيتَ أسرع من نقصان وعودها.

لو كان سلطان منك؛ لكان حقّاً فاكهة رحمي)

***

أعطتني العمة كأس منقوع القرفة مع ملعقتين سخيّتين من دبس العنب. وعيتُ على يديّ فارغتين منه ورخوتين وسلطان مقلوبٌ على بطنه فوق اللحاف. جارتنا تقعى عند رأسي: «سمينٌ هذا الولد؛ لا تحتاجين حتى أن ترضعيه». رمتْ زين المحضر علبة الحلاوة وصاحتْ بالجارة: «اذكري اسم الله يا امرأة.. تعالي معي». سحبتها من الغرفة وعادتْ على صوتي: «الولد يا عمتي...». أفلتَ ابني فمه عن ثديي وارتخى كالخرقة، ازرقّ. لا يعلو صدره ولا يهبط. خطفته العمة من يدي، فكّت أربطته وقلبتْه على ظهره، رفعتْه من رجليه

وصفقتْ ظهره وتمتمت تسمايتها السحرية: «سماء مجـــدكَ مطلّـــة، وسحائب جودكَ منهلّة، وأنت المغني من كلّ قلة، والشفاء من كـــل علّة». خرج من حلقه غثاءٌ كثير وارتدّ إليه لونه.

«العين الحاسدة تخترق حتى الحجر!». جعلكتْ العمة حفّاظـــةً ابني الملوثةً بأول براز له ودسّتْها عند العتبة تحت الحصيرة: «ستشفط الحفّاظة حسدَ كلّ مَن يخطو فوقها». تابعتْ العمّة استنفار أسلحتها، شكّتْ دبوساً في مقبض المكنسة وأوقفتْها عند العتبة: «لـــن تـــدبّ رجلُ امرأةٍ حاسدةٍ إلى بيتك بعد اليوم».

في نفاسي، باتت أمي عندي لليلةٍ واحدة. كان أبـــي حظـــر عليها دوس أرض العكوب بعد إغماءتها تحت التوتة، وفـــكّ عنـــها الحظر ليومٍ واحدٍ يوم سمع أن حفيداً له جاء إلى الدنيا. تلك الليلة لم أنم، لم تنم أمي، لم تنم زين المحضر، نبشتا ماضيهما وماضي خليـــل كما ينبش المغاربة البصّارون جرار الـــذهب مـــن خرائـــب مـــرج العكوب.

18

لا أحد يعرف كم «حبّ الوطن قتّال»، إلا حين يكون مولوداً فوق عراء مرج العكوب، وعالقاً به بفعل الجاذبية، ومسامِحاً لمناخه القاسي، ومجيباً على سؤالٍ لم يُسأل: «لولا حبُّ الوطن قتّال، كانت بلاد السوء خراباً...». يحبونها، وترضعهم من قسوتها، وتصوغ قلوبهم خليطاً من فولاذٍ ومن قطن مندوف.

ولا أحد يعرف عمر مرج العكوب. يقال أنّها معمورةٌ من قبل ميلاد المسيح بألف عام. أنباطٌ ويونان ورومان ثم عربٌ مسلمون، آنسوا سهلها، عمّروا منازل ومعابد وكنائس وقصوراً، خطّوا كتاباتهم ونقوشهم على حجارتها ورحلوا.

كلهّم راحوا. وظلّ السهل وحوله قمم الجبال تصغي وترقب وتبتسم. وظلّ العكوب والقرص عنّا والقرّاص والعطرفان ينمو رائقاً في السهول وعلى حواف البيوت.

صمد برجٌ أثريٌّ شيّده الرومان على كتف إحدى القمم، ربما كان عسس إمبراطوريتهم يراقبون منه قوافل تجارة الملح القادمة من شرق الأردن مروراً بالبادية السورية في طريقها إلى روما. وغير بعيد عن البرج، صمد بناءٌ نصف متهدم يقال أنه بقايا مصيفٍ لأحد ملوك الغساسنة.

وجاء زمانٌ أقفرتْ الأرض. قلائل صمدوا في العيش فوقها، وجاءت إلى مرج العكوب هجراتٌ متعاقبة من جبال لبنان

وفلسطين، أعادت تعمير المكان من خليط الحجارة القديمة لتجعله بيتاً لها وموطناً.

***

كان عمر «ذهبية أبو شال»، (التي صارت أم ممدوح)، عشر سنين يوم سقطت ربدةٌ من سقف البيت وقتلتْ والدها «عزّات».

عزّات زينةُ رجال المرج؛ طولٌ فارع وجسدٌ متين، يكحّل عينيه ويضفر شعره الطويل بخمس جدائل يُسبل فوقها عمامةً بيضاء ويتقيّف بقنبازه الأسود الطويل وسرواله الأبيض المطرّزْ بصبر أمٍّ على وحيدها الأهوج. يتقدّم عزّات الحُداة، يُنهِض عزائم الرجال في مواكب الأعراس برقصة جسده الوحشية على هدير الجوفيّة، السيف مرفوعٌ في يمينه، ويُسراه وحدها سيفٌ يتموّج ويذكي ناراً تأكل قلبَ عزّات الذي صار أباً لبناتٍ أربع ولم يزرق بعدُ بالذكر الوريث.

موتُ عزّات في عزّ شبابه كسر بلادة العيش المستقرّ في مرج العكوب، فعديدُ رجالها قليل، ورجالُها هم رأسُمالها كله. نمتْ تلّة الحزن حتى صارتْ جبلاً رهيباً خشعت القرية عند قدميه وناحت، تبرّع الرجال بحصد قمحه وخافوا أن يجلبوه إلى كواير البيت، أو أن يتركوا أرملته وبناته في البيت، فقد تسقط عليهن من السقف باقي ربدات الخرائب المرصودة.

اعتاد أهالي مرج العكوب تطعيم بيوتهم بأحجار الخرائب، وكلّهم اجتنبوا خربة الكنيسة وخربة الشيخ «أبو الحرّ»، إلا عزّات.

حذّره العُقّال و لم يسمع، جمال أحجارهما خلب عقله، أراد لبيتـــه أن يكون الأبهى في مرج العكوب.

***

عاش الشيخ أبو الحُرّ في زمنٍ سالف، عمّر بيته قـــرب شـــجرة بلوطٍ هرمة، يأكل منها ويداوي المرضى بورقها وقبّعات ثمرها. قصده المتخاصمون ليفصل خصوماتهم، قضى بأن يعبروا من تحـــت طاقـــةٍ لصق عمرته، يُنزلهم إليها عبر ثلاث درجات حجر، مَن يعبر تحـــت الطاقة تثبت براءته، ومَن يعلق تلصق به تهمته.

مات أبو الحُرّ بلا عقب، ودُفن تحت قناطر بيته. تناهب النـــاس أحجارها وتساقطت الأحجار من كلّ سقفٍ نُقِلـــتْ إليـــه، وظـــلّ الناس في شكٍّ حول حظوة أبو الحُرّ عند خالقه، «إذا كـــان وليّـــاً حقاً فليأخذ أضحيته». مرّوا بقطيع أغنـــامهم أمـــام عمرتـــه، رأوا الخرفان السمينة تخرج من تلقاء نفسها عن قطيعها وتمشي لتنام عنـــد باب المقام، نحروها قرباناً للضريح وتوبةً ووعداً ألا يعـــودوا لســـرقة أحجاره.

***

من عمرة أبو الحُرّ سرق عزّات ربدتين، حمّلهما تحت ستر الليل على ظهر البغل، أكمل بهما الوصلة بين قنطرتي المضافة ومـــا عـــاد ينقصه سوى حجرٍ واحدٍ ليس مثله إلا في خربة الكنيسة.

أبهى الأحجار كانت في الكنيسة الأثريّة، وأبهاها كان حجـــر المذبح.

أسموه حجر العطش، واسموه حجر المُرّ، وأسموه حجر الملح، وأسموه حجر الهجران.

لاذتْ نساء مرج العكوب، درزيّاتٍ ومسيحيات، إلى خربة الكنيسة بعد كل معطشة ومجاعة، حملن إليها الشموع والصلوات لجلب الغائبين، لتُعيد إليهنّ رجالاً رحّلهم القهرُ إلى غوطة الشام، إلى لبنان، إلى الأمريكيتين.

ركعن وبكين وأشعلن الشموع عند حجر المذبح الصقيل المطعّم بدمع الراهب وطفا وبشمعه.

***

في أنطاكيا أحبّ الفتى وطفا صبيةً هجرته إلى زوجٍ غنيّ، لم يصدّق وطفا أنّ الصبيّة ارتضتْ غيره، أو أنّ قلباً آخر في العالم قد يحنو عليها مثل وطفا. كاد يقتله حزنُه، وردعه إيمانُه عن نحرِ نفسه فأسلمها إلى الرهبنة. خدم في كنيسة أنطاكيا، ولم يشفَ من الحبّ، سار مع النُسّاك جنوباً، حطّ معهم بصليبه وعصاه وإنجيله وثوبه الأسمر الطويل الخشن في حلب وفي صيدنايا وفي بصرى، خدم رعايا كنائسها وصلّى ووعظ ولم يشفَ. هام وحده شرقاً وشرقاً حتى وصل كنيسةً في أرضٍ مهجورة يتيمةِ المذبح، صقل أحد أحجارها بسكينه وأظافره ودموعه وشموعه، ورفعه مذبحاً يُشعل فوقه الشمع ويبكي على خدّه.

تآكلتْ أظافره وأصابعه وذوّب ملحُ الدمع عينيه ونفذتْ شموعه ولم يشفَ. انسلّتْ روحه إلى السماء لعلّها تشفى في أعاليها.

لا يشفى الحبّ إلا بالموت.

***

كلّما حدلتْ زوجة عزّات سطح التراب فوق قنطرة بيتها سمعتْ أنيناً وتنهيدة.

الطفلةُ ذهبية تذكر قطراتٍ تسقط في الصبح من القنطرة، تكنسها عن الأرض بأصبعها وتلحسه، طعمه مالح.

والطفلة ذهبية تذكر قطراتٍ تسقط من القنطرة في الليل، تكنسه بأصبعها فيعلق عليه كالشمع.

بعد الربدة أسقطتِ الوحشة دارَ عزّات، فالدار التي مات راعيها بلا عقبٍ من الذكور من صلبه سيرثها أخوته الذكور. رحلتْ أرملته الفتيّة مع بناتها الأربع إلى بيت أبيها وهي لا تدري بلعنة اقتلاع حجر الراهب وطفا من مرقده، لعنةٍ ستطارد نسل الإناث من صلب عزّات.

أينما حللن سيكنّ نساء العطش ونساء المُرّ ونساء الملح، وسيبتلَيْن بالهجران.

وكي تنجو الأرملة من ذئاب الرغبة، وكي لا تنهشها ضباع الرجال إن شمّوا رائحة الحرمان تفلتُ سهواً من صدر أرملة؛ حُرّم على أمّ ذهبية أن تشتغل في الأرض.

بالسرّ عن أخوة زوجها اتفقتْ أرملةُ عزّات مع والدها أن يستثمر أراضي المرحوم ويعطيها حصتّها ليراتٍ ذهبية عصمليّة. خبّأت الليرات وهي تُمنّي نفسها: المال مثل الحظّ يجلب العرسان ويُعدّل كفّةَ دمامةِ بناتها الأربع السمراواتٌ مثل قفا الصاج، الصغيرات العيون كخرم الإبرة، الجعداوات الشعر كصوف الغنم.

كبرت ذهبية في بيت جدها لأمها منبوذةً وذميمة، لم تلعب مثل الأولاد في الساحة والبيادر، لم يفرّج عن نفسها سوى مزار الولي

الصالح، و لم يحبها أحدٌ سوى «حسن الغريب» خادم المزار، الملتبس الكنية، والمشكوك في انتمائه إلى مرج العكوب.

***

في ليلة جليدٍ عام 1950، توقّفتْ في الساحة سيارةٌ قادمةٌ من الحدود الأردنية السورية، نزلتْ منها امرأةٌ غريبة يرافقها ولدٌ في العاشرة وابنتان أصغر منه. وكان في الساحة عجوزٌ يُحكم شدّ عباءته ليتقي جنون الريح.

«دلّني يا عمّ على أي بيتٍ من عائلة (الغريب)».

أطلّت يدُ العجوز من تحت عباءته ليسألها بالصوت والإشارات عمّن تكون.

«أنا أرملة نصّار الغريب».

شهق العجوز كمن يشهد انهيار ترعةٍ تنام تحتها أغنامُه.

«بيوتهم بعيدة، سيؤذي البردُ صغارك. تباتون الليلة في بيتي وغداً آخذكم إليهم».

استدعى العجوز في الصباح سايسَ المجلس، وقادها الرجلان إلى بيت «عبد الله الغريب»، أخ نصّار. يذكر الرجلان، ويذكر أهالي المرج أن نصّار اختفى من القرية منذ سنين بعيدة ككمشة ملحٍ ذابتْ في الماء أو جرفها السيل.

في بيت عبد الله الغريب أرختِ المرأة أحمال حكايتها. هي زوجة نصّار الغريب، وهي من دروز الجبل الأخضر قرب عمّان، قصدهم نصار بعد طول ترحالٍ وخيباتٍ متوالية.

يوم اختفى نصّار كان عائداً من فلاحة الأرض، استوقفه

مغاربيٌّ واستحوذ عليه بحديثه الساحر:

«أنت نصّار بن حسن الغريب، والدتك زليخة، مولودٌ في ليلة اكتمال القمر في أول آب. بيتكم هو الأقدم في مرج العكوب. ماتت جميع الأغنام في حظيرتكم، ومن بعدها البقرة الشامية. تُبلِغكم مليكة الجنّ أنّ بيتكم يقوم فوق كنيسةٍ مرصودةٍ لها ولأتباعها منذ ألف عام، وجئتم تقرقعون فوقهم بأحمالكم ومواشيكم. قد ربطوا آجالكم ولن يمهلوكم، سيموت جميع رجال عائلتك ما إن يبلغوا الخمسين، ولن يعيش في بيوتكم ضرعٌ مانح..

يا نصّار ابن زليخة، مليكة الجن تقيم تحت خرائب على حدود سيناء، أنا أعرف تلك الخرائب لكنّ المليكة محجوبةٌ عن طالعي ومنكشفةٌ على طالعك. سآخذك إليها لتفك السحر عنك وعن أهل بيتك، وتمنحك ثروةً تقارب كنوز سليمان، تعطيني نصفها وتكسب الباقي، وتهجرون الكنيسة إلى حيث تريدون مباركين في أعمالكم وأرزاقكم. إن لم تسافر معي، أو أخبرتَ أنسيّاً بأمرنا، سيطارد الجنّ سلالتك إلى يوم القيامة».

كالسائر في نومه، تبع نصّارُ المغربيّ. لم يكن في جيبه سوى صورة له هو وأخوته.

هرّبه المغربي من بين الأحراش، توغّلا في عمق الأردنّ إلى عمارةٍ لائذةٍ قرب مسرح جرش. يغيب المغربي طوال النهار ويعود حاملاً إليه الطعام والوعود بلقاء الجنية الملكة والظفر بالكنز. مرّتْ أيّامٌ لم يصادفا فيها أنسيّاً. انتقلا إلى البتراء إلى وادي موسى، قاربا يصلان البحر، والمغربي ينوّمه على وقع قراءاته في كتابٍ مدعوكٍ يطاله من ثنايا عباءته، ونصّار مسيّرٌ إليه كطفلٍ غشيم، لا يقوى على

الفرار ولا على عصيان المغربـــي الذي اختفى فجأةً كما ظهر تاركاً نصار بلا كنزٍ ولا دليل، عقلُه في ضباب، وقلبه عند أهله، ربما ظنّوه مات، أو حسبوا ضبعاً بال عليه وجرّه إلى المغارة وافترسه.

جعل جهة الشروق بوصلته، يمشي ويهتدي إلى طريق عمّـــان، إلى كراج السيارات السورية. طلب السائق بطاقة هويته ليمكنه عبور الحدود. ليس في جيبه سوى صورةٍ له ولأخوته.

أخرجت المرأة من جزدانها صورةً مهترئة، بالأسود والأبـــيض، مغلّفةً بنايلونٍ شفاف، وسّخها برازُ الذباب ولطخات الزمن، نصّـــار يتوسّط الصورة وحوله أخوته، ومن خلفهم خزانةٌ خشبٍ متهتّكـــةٌ كما الصورة؛ هي الخزانة التي تجلس المرأة أمامها الآن في بيت عبـــد الله الغريب.

عبد الله يصغي جامداً كمنحوتة، والمرأة تحكي وتحبس دمعهـــا، فقد استحلفها نصّار الغريب أن تظلّ قويّة:

«أوصله السائقُ إلى عمي النجار المجدلاني، وكنتُ أعيش في بيته منذ مات أبـــي. يومها رأيتُ نصّار مرضوض الروح والهندام، قـــال لعمي أنه درزيٌّ مثلنا وأنه لم يشتغل سوى في الأرض. درّبه عمّي في ورشته ثم زوّجني منه وأنجبنا أولادنا الثلاثة. ما مرّ يـــومٌ علينـــا إلا وهذى نصّار بمرج العكوب»

«هذى بنا و لم يعد إلينا؟ أبـــي مات حسرةً على اختفائه».

«استمات كي يعود، لكنه بلا وثائق. تزوّجنا أنا ونصار بعقـــد أجاويدٍ برّاني. منذ سنتين فقط مات حمزة ابن عمي بالسلّ وكان في عمر نصّار. جاء موته أيام فوضى الدوائر الحكومية الأردنية بنـــزوح الفلسطينيين إلى الأردن، فأعطى عمّي لنصّار هويّة ابنه حمزة بدل أن

يوفّيه في القيود، ووثّقنا زواجنا على أنّ نصّار هو حمزة، وأبناءنا هم أبناء حمزة المجدلاني».

تمزّق نصّار بين اسمين وعائلتين وجنسيتين. يفور قلبه في الليل كإبريق ماءٍ فوق جمر. يريد أن يعود إلى مرج العكوب؛ مرج الشوق مرج مسقطَ الرأس ومسقط القلب؛ لن تكون مرج العكوب مسقطاً لكفن نصّار. زلّت قدمه عن السقالة ودُقّ عنقه بحجرٍ من الجبل الأخضر. حجرٍ أصفر سريع التفتّت، لا حجرٍ أسود يُضمر قسوة البازلت وحنانه. مات قبل أن يزبد، قبل أن تطال يدُه الصورة من جيبه ليغسل عينيه بوجوه أخوته الصغار البعيدين في مرج العكوب. مرّ الزمان وما زالوا صغاراً في الصورةً وطازجين، بينما العمر في لحظةٍ تخثّر، بينما الشعر على رأس نصّار مالَ إلى لون الطحين.

في جولةٍ على جيوبه قبل الغسل والتكفين انتزعت زوجته الصورة من جيبه، واستعادتْ وصيته من غبار ذاكرتها المبلولة بالحزن: «أقسمي لي على كتاب الحكمة، لو، لا سمح الله، حصل لي مكروهٌ أن تعودي بأولادنا إلى مرج العكوب وتُعيدي إليهم نسب نصّار الغريب».

وكان الله سمح. وكانت أقسمتْ على كتاب الحكمة...

لا يريد عبد الله أن يصدّقها. يذكر المغاربة حول خرائب مرج العكوب أيام اختفاء أخيه، رآهم ينقّبون عن كنوزٍ تحت البرج الأثريّ. يذكر كيف فطست أغنامهم كلها والبقرة الوحيدة، يذكر الأصوات المريعة ليلاً تحت أرض الدار، يذكر موتَ أبيه في الخمسين، لحقته أمّه، ثم أخواه. صعدوا إلى جوار الربّ متتابعين هكذا من غير مرض: «من قامتهم إلى حفرتهم»

لا يريد عبد الله أن يصدّقها. فقد وثّق وفاة نصّار وباقي أخوته في قيود مرج العكوب. لن يمعس قلبه الطافح بالهمّ بهموم جديدة. كسرتْ ظهره الأفواه اليتيمة حوله ولا حَيل لديه على صِلات أرحامٍ طارئة. فليعودوا إلى حيث ولدوا، ليكملوا حياتهم باسم عائلة المجدلاني. له أن يكتفي بالبشارة التي جاءته بها المرأة الغريبة، أن أشباح الجنّ تعبت أخيراً وفكّت الرصد عن روحه، هو الذكر الوحيد من آل الغريب الذي تجاوز الخمسين ولم يمتْ، وقد باع الدار فوق الكنيسة، وعمّر بيت باطون، لم يضع فيه ولو حجراً من بازلتٍ جلب طالع الشؤم لأسلافه.

انتهت المرأة الغريبة إلى العيش في المزار مع أولادها، أولاد نصّار الغريب المجدلاني، كالطير المؤمن تتدبر أرزاقهم يوماً بيوم. تعلّم ابنُها حسن الغريب المجدلاني في المدرسة، استعار كتباً للقراءة على ضوء الشمع، اشتغل طفلاً عتّالاً في دكان القرية فقط ليمكنه قراءة أوراق الجرائد المقصوصة، اكتراه أهالي مرج العكوب لجلب الماء من النبع وأخذ بغالهم إلى الحذّاء، ودبغ جلود ذبائحهم بالشبّة وقشر الرمان. صبّ أكياس قمحهم في المطحنة، نقل طحينهم إلى البيوت، دخل إلى بيت جدّ ذهبية، تهدّج قلبه حيث تتهادى بنتٌ عزباء في أرض الدار، طويلة القامة كالسروة الجبلية. انتظرها، عاش على انتظارها، لا بد ستأتي إلى المزار.

***

«مات أبي سنة الربدة. كان عمري عشر سنين، يُؤويني بيتُ جدي»

«مات أبي سنة السلّ. سنة موت خالي. كان عمري عشر سنين. يُؤويني المزار»

قبْل حسن الغريب لم تشعر ذهبية أبو شال يوماً أنهـا بشـرٌ أو امرأة، وحين سألها حسن تحت شجرة التوت: «هل تقـبلين بـي زوجاً يا ذهبية؟»، صارتْ في رمشة عينٍ بشراً وامرأةً تجرؤ على كسر حصار أمها وإهمال أعمامها وفظاظة جدها الذي لم يعـد يسـأل لا عنها ولا عن أمها منذ وصول سيارته اللاندروفر إلى ساحة القرية.

دوّخت اللاندروفر الجديدة الرمادية اللامعة أهل مرج العكوب، خرج أطفالها جماعاتٍ كالنمال من جحورهـا يعـاينون دواليبـها بقبضاتهم الطريّة، جأروا مقلّدين صوت زمورها، شـبكوا أيـاديهم وحجلوا حولها راقصين. وكبارها انشغلوا: وكـم فرنكـاً سـيدفع الراكب من مرج العكوب إلى المدينة، ومطّ أعمام ذهبية أعنـاقهم: ومن أين لجدّها بثمن سيارة وهو لم يبع أرضاً ولا ابن له في المغترب؟ (بدّك تعرف اسرارهم، اسأل صغارهم..).

«جدي يبيع غلّة أرضنا ويعطي أمي ليرات الذهب» أجابـت صغرى البنات عمّها.

شمّر مرهج أبو شال عن ساعديه حين علم أن أرملة عمّه عزّات تنام على ليرات ذهب وراح يخطب ابنتها ذهبيّة، ورحّبتْ به أمهـا فهو ابنُ عمها والظفر ما بيطلع من اللحم، ثمّ إنّه أول خاطبٍ يطلب ابنتها. وذهبيّة قالت: لا أطيقه، هو لم يسأل مرّةً عنا في يتمنا، وكان كلما رآني في الطريق عيّرني: (ذهبية النوَريّة)، و لم يصدّق مـرهج أنّ ذهبية اليتيمة تجرؤ على رفضه. هل كانت تحلم أن يكمّ أنفه ويخطبها لولا ليراتها؟ هو مرهج، أوّل شابٍّ توظّف في دائـرة (النافعـة) في السويداء، ولا ينقصه ليعلو فوق أهل مرج العكوب كلهم إلا بيـتٌ (مُلكٌ) في المدينة.

راقبها تمضي إلى المزار، رآها يدها في يد حسن الغريب، وفمه يهمس في أذنها تحت شجرة التوت. ذهبية الدميمةُ ترفض مرهج وتغازل ولداً مشكوك النسب. كان من قبل يحتاج ليراتها ولن يكتفي الآن بأقلّ من كسر أنفها وليراتها. جرّها من شعرها إلى بيت جدّها وصاح بأمها: «سأتزوج ابنتكِ لأغسل عارنا، فهي ابنة عمي على كلّ حال». وضُربت ذهبية بالعصا وبالمرس وبالأيادي وبالشحّاطات، وحُبستْ في البيت إلى أن جاء مرهج وأهله وأخذوها عروساً بلا مهرٍ ولا ذهب.

هزّ مرهج زوجته: «أين ليراتك»؟ أنكرتْ ذهبية. في غيابها نبش مرهج خزانتها وغاب في المدينة. تفقّدتْ صرّةَ الليرات فلم تجدها. استقبلت مرهج بعويلها حين عاد: «يا حرامي يا سرّاق...». أسكتَها بحزام الجلد. بصقتْ وخرجت تهيم في زقاقات مرج العكوب. مشت. مشت. ولم تجد مكاناً تروح إليه. صاغرةً دقّتْ باب أمها التي ازدرتها يوم عذّبها الحبّ كخنّاق، ولم تستهجن الآن رضوض الحزام على جسد ابنتها الحبلى. وإن ضربها؛ من عادة الأزواج أن يضربوا زوجاتهم. ليضربها، ليخنقها، يحقّ له، فهو الذي ستر عارها، ليت مرهج آخر يهبط من الغيم ليستر باقي بناتها «يقطع شروش البنات..».

رُميتْ ذهبية كشيءٍ في بيت جدّها. لم يردّ مرهج على مراسيل الجدّ ليأتي إليه ويفاوضه. قرّعتها أمها «أنتِ التي خبصتِ في طعامك. ما كان ضرّكِ لو سايرته؟» وليرات ذهبية تفدي سقف بيت مرهج في السويداء وحديد شبابيكه وأبوابه. ومرهج لا يأتي.

وكانت اللاندروفر حفظتْ تعاريج الطريق من مرج العكوب إلى المدينة ذهاباً وإياباً في رحلةٍ كل سبتٍ وثلاثاء حتى انطفأ وهجها

وتاق أهل المرج إلى حكايةٍ طازجةٍ تبلّ الريق، وطلعت من بيت الجدّ حكايةٌ أشهى من اللاندروفر، أنّ قصة زعل ذهبية على ليراها واهية، ومرهج المسكين ينام في مرآب دائرة (النافعة) في السويداء لأنّ في بيته محنةً تجعله لا ينام. غريمه حسن الغريب لم يخرج لا من رأس ذهبية التي ما تزال تواعده، ولا من رأس مرهج الذي لن يكنّ قبل أن يطرد حسن الغريب خارج الدنيا.

وللفضائح أجنحة. اندلقت ألسنة مرج العكوب كالدبس الدبق على فجّة الصوف، نعثتْ آل أبو شال نتفاً مهترئة وأعادتْ تجميعهم ونتفهم في جهات القرية الأربع، فوق دروبها وتحت سقوف بيوتها، وفي الدكان الوحيد فيها، ومرتين في الأسبوع عبر مشاوير اللاندروفر.

(ذهبية لم تكن بكراً في ليلة دخلتها، وهذا الجنين في بطنها: من يضمنُ أنه ابن مرهج أبو شال؟)

اندملتْ ذهبية باللعنات، ولاك أهلُ القرية حسنَ الغريب كاللحمة الطريّة، وآزرهم عمُّه عبد الله الغريب: «مش معروف قرعة بيّو من وين، قاعد بحضننا وعبينتف بدقننا ويلطّخ شرف بناتنا».

اختفى حسن من قرية أبيه، اختفى عن عين الصبية المتينة والطويلة كالسروة الجبلية، كما اختفى والده من قبل اختفى حسن؛ ككمشة ملحٍ ذابتْ في الماء أو جرفها السيل. قالوا أنّه عاد إلى الأردن، قالوا أنه جنّ، قالوا أنه اختفى في سرداب الموت تحت أطلال القصر القديم.

في أوجاع طلقِها رفعتْ ذهبية يديها إلى الله ليحرق قلبَ مرهج كما حرق مرهجُ قلبها. وولدتْ بكرها ممدوح في بيت جدها،

وخطفته أمُّها من حضن زين المحضر ولفّتْه بغطاء فراشٍ عتيقٍ ورمته على أخوة مرهج: «خذوا ابنكم، تكفيني محنتي ببناتي». ورمى أخوةُ مرهج الوليد على باب سايس المجلس، ومرهج غائبٌ في المدينة.

بعث السايس مَن يجلب مرهج موجوداً إلى مضافته، وبعثوا في طلب ذهبية.

حافيةً، عارية الرأس، فائرة الثديين بالحليب، دخلتْ ذهبية على جمع الأجاويد وآل أبو شال في مضافة السايس، جثت، رمتْ على الأرض خرقةً لطّخها الدم ليلة عرسها:

«هي لكم. شوفوها، أو خذوني الآن أعبر من تحت طاقة أبو الحُرّ، أو هاتوا كتاب الحكمة لأحلف عليه أن رجلاً لم يفترسني قبل مرهج ابن عمي ولا بعده، أو هاتوا ورقةً أبصم عليها أنني لن أطالبه بليراتي. فقط أعيدوا لي ابني».

وضع السايس يدَ مرهج على كتاب الحكمة: «هل هذه علامة امرأتك؟ هل أخذتَ ليراتها؟» وانبكم مرهج. نكّس رأسه، وانسلّ من المجلس. ذلك كان آخر عهد مرهج بمرج العكوب. بعث من المدينة برسالةٍ إلى السايس يطلب منه صفو الخاطر ويقرّ أنّ ضيق حاله أجبره على اقتراض ليرات زوجته ويتعهّد أن يردّها أوّل ما يستطيع، ويستسمح السايسَ أن يعيد إليه زوجته وابنه.

حتى موتها لن تحب ذهبية المدينة، سترجو لو تبقى في مرج العكوب تنتظر حسن الغريب. حتى موتها ستظلّ تسأل: من قتل حسن الغريب؟ لكنها كغنمةٍ خرساء وعرجاء حملت ابنها وانساقتْ إلى المدينة، إلى هذا المرهج الذي ما يزال وغداً منذ جرّها من تحت شجرة التوت.

19

«كنتُ مكرّماً كأميرٍ في ليبغوس...». نطق خليل اسم العاصمة بفخامةٍ إنكليزيةٍ انتصبتْ لها آذان رجال القرية الذين جاؤوا كلّهم للسلام عليه عقب عودته من اغترابه الطويل في نيجيريا.

غادرهم في عشرين عمره بلا تعليم ولا أسىً على فراق، فخليلُ سليل مرج العكوب، تعلّم منها الاكتفاء بالمتاح، كبر فيها كسائر أبنائها الأصلاء، لا ظلمً، لا هوان، لا يتمَ، لا فقر مدقع، ولا تشرُّد ولا عوزاً فاضحا. كانوا ثلاثة أبناء أعمامٍ لا يفترقون في أعمال الزراعة ورعاية الماعز والأغنام في البراري: مرهج ومروان وخليل. علّمه مرهج كيف يلحمس على ذيل الحمارة قبل أن ينطحها، وخليل لن يسمح أن يُعيّره الفتيان أنّه مثل مرهج الذي ينطّ على الحمير. «لا أعرف، جرّب أنتَ أمامي». ورأى خليلُ يومها مرهجَ آخر يتوثّب أمام الفتحة الورديّة الرطبة ويقتحم ويشهق ثم يرتمي على أرض المرج مسلوباً بينما تمضي الحمارة بلا اكتراث.

لاحقاً، وحين تأكّد خليل من غياب الرقيب، فعلها مرّاتٍ، وداخ بعد كلّ مرّةٍ مثلما دوّخته السيجارة الأولى. دوختان لذيذتان ستقيمان في رأسه إلى حين يتزوّج، إلى سنين بعد أن يتزوّج.

لعب بالورق مع أبناء أعمامه وجيرانه. تولّعوا بالباصرة والكونكان، سئموا، تحوّلوا إلى الطرنيب والتركس والليخا. ألزموا

المغلوب بشراء علبة دخانٍ للجميع لتكتسِب جولاتُ الربح والخسارة فيما بينهم إثارةً كافية. رفع الدكنجيّ صوته بتهديدٍ منافق: «يا زعران؛ سأشكوكم لآبائكم». دفع له مروان فرنكين إضافيين وخرج يشهرُ في وجهه أصبعه الوسطى. مروان أيضاً درّبهم على نفخ الدخان من مناخيرهم كمهارةٍ لا بدّ منها لاكتساح عالم الرجال.

كفّت حياة خليل عن الركود الطويل والإثارات القصيرة بعد قدوم «الشيخ صالح» زائراً فخريّاً من قرية «الزغابة» إلى مضافة الأمير في مرج العكوب. أمضى الشيخ ثلاثة أرباع عمره في لاغوس. هناك انتفخت استثماراته المنوّعة وأعلنته شيخاً زمنيّاً يزور مسقط رأسه كل عام، وينتقي من شباب الأرياف فوج عمالةٍ يلتحق بسابقيه.

على شرف الشيخ مُدّتْ سُفرةٌ بخمسة مناسف. فوق البرغل المسلوق تمطّت كراديش لحم الخاروف والكبب المقليّة وسيلٌ من السمنة العربيّة. أُتخِم الشيخ وأمير مرج العكوب ووجهاؤها ثم الرجال الأقل شأناً، أتى أطفال القرية على ما تبقّى من البرغل، مصمصوا بقايا اللحم العالق بالعظام العارية، وتركوا لقطط القرية ولكلابها وكلاب البدو والكلاب الشاردة أن تطحن العظام بأضراسها المبريّة.

لن تكون نيجيريا نعيماً لخليل الذي انضمّ بعد الوليمة إلى كوكبة عمال الشيخ صالح.

في نيجيريا ينتظره البكم. لا يفهم هذه الألسنة الهجينة التي تبرطم حوله. يسير خلف مندوب الشركة في المطار، يدسّ المندوب الرشاوى في أيادي الموظفين. عند بوابة الخروج يوقفه أطفالٌ تمرّسوا في الشحاذة، يتفرّسون في هيئته المنكمشة وسط عجمتها وزيّها

الغريب، بنطلونه خشن القماش وقميصه مجعّد. يستديرون عنه إلى استجداء المندوب الأنيق. على الطريق يرى عمارات المدينة نشازاً وسط خضرةٍ هائلة. خيامٌ وأكواخٌ من جذوع الشجر. رجلٌ يستحم على الطريق قرب كوخه، يستطيع خليل أن يحصي عدد أضلاعه. لا حبال غسيل على الشرفات، لا شرفات، ولا نساء تتفقّد الأولاد حول بيوتها والأغنام والدجاجات والمساكب. تبدأ الزحمة في شوارع لاغوس الرئيسية، (بائعو الازدحام) كثرٌ عند نواصيها. أطفالٌ بوجوهٍ سودٍ ورموشٍ شقّرتها الشمس، يبيعون البيبسي كولا، البسكوت، الولاعات، البطاريات، القمصان القطنية الرخيصة. أدار المندوب وجهه عن إلحاحهم الدبق و لم يستسلموا حتى اشترى منهم سكاكر مصبوغةً بألوانٍ فاقعة. تاه خليل بين وجه المندوب الرخو كالشمّام الناضج ووجوه الأطفال الصلبة كالبندورة العجراء. ازداد التصاقاً بمقعد الجلد الساخن تحته. في تلك اللحظة كان، بلسانه الأخرس، يشتم العالم كلّه.

لاحقاً سيهجم عليه البعوض والملاريا ونوبات الحمّى وسوف يجترع مرارة أقراص الكينين، ومرارة ألاّ صديق له في هذه الأرض التي يستقتل الرجال البيض فيها من أجل الثراء.

ارتجفت كفّه حين حطّت فيها أولى النيرات النيجيرية. رجفتها لذيذة. إشعاعٌ في بؤرةٍ سحيقةٍ في قعر صدره بعثت الحرارة في عروقه. لم تكن له يوماً «خرجيةٌ» ولا هديةٌ في عيد الأضحى ولا في عيد ميلاد. لا يعرف أصلاً يوم ميلاده ولا حفل عيد الميلاد. في مشاوير الموسم مع والده إلى السويداء لبيع الدبس احمّرتْ أصابعه من حمل التنكات، نبتت فيها فقاعاتٌ مائيةٌ وندوب، وراحتْ أثمان

الدبس إلى جيب والده. كالموج المالح رقصتْ عينا خليل اشتهاءً لليرات، جاب طرقات المدينة بعينين مستطلعتين ويدٍ قاصرة فلم تمنح نفسها له ملعباً ونبع بهجة. غمّته المدينة الجليلة حيال ضآلته وضآلة قريته.

لكنه الآن في المدينة. بل في العاصمة النيجيرية. دفءُ النيرات يستحق أن يقطع قارتين ليراكمه في جيبه ولا يقاسم أحداً فيه. عاند آلام ظهره واشتغل بصبر جَمَل. نضح منه العرق سواقي. لا يأوي إلى فراشه إلا بعد أن يهده التعب. النهارُ ونصف الليل للعمل وأقلّ من نصفه للنوم. لو طاوعه جسده لاستغنى عن النوم.

عتلَ الموبيليا من شركة الشيخ صالح إلى قصور العاصمة ومحيطها. على ظهره حمل الكراسي والمقاعد والمكاتب والخزائن وعلاّقات الثياب، أنزل أحماله على الرخام الأملس في أرضيات القصور وفي المزارع الفخمة بين الأدغال وفي المكاتب العليّة في الدوائر الحكومية. طبع في ذاكرته منمنمات القصور مثل نيغاتيف فيلمٍ ملوّن سيؤجّل الفرجة عليه إلى حين.

في نوبة حذاقةٍ خاسرةٍ قاد السيارة في الطريق القصير والخطر ليختصر المسافة تحت الشمس الحارقة. يمر الطريق القصير بكانتون السود وتحرسه عصابة الـ (آريا بويز) لاصطياد كل رجلٍ أبيض تسوّل له نفسه اقتحام كانتونها. أخذوا الأثاث وضربوا خليل، أدموه، ونتشوا لحم يده حين لم يجدوا مالاً في جيبه.

«صدر وأُفهم علناً. كنتُ حذّرتك من ذلك الطريق...». لم يردف الشيخ صالح جملته بكلمةٍ إضافية. حسب فاتورة العفش المسروق وشغّله بالسُّخرة سنةً كاملة ليفيها.

ضمر لسان خليل خلال سنة العقوبة وتورّمتْ جيوب الحقد خلف ضلوعه وكثرتْ تأملاته. استغرقته الأشجار على طريق المعمل، تيبس إحداها بسبب الإهمال فينبت حولها لا أقلّ من عشر شجيراتٍ فتيّة. سينهض من سنة عقوبته كشجرةٍ جديدة. لن يُقلّل من أحلامه ولا من حقده. لم تجلبْ له سنوات اجتهاده وإخلاصه لا مكافآتٍ ولا سماح على حادث سرقة، ولم ترحمه من الشغل بالسُّخرة. هذه البلاد حقاً مفتوحةٌ للبيض والأسياد والمسؤولين، لكنّ الطريق إلى السيادة فيها طويلٌ وغير أكيدٍ لمن لم تشفع له شهادةٌ عالية أو مالٌ كثير أو فرصةٌ لقطة. كم من الوقت عليه أن ينتظر ليصبح سيّداً على هذه الأرض اللعينة؟

يحيا هنا جسداً بلا روح. آلة وحيدةٌ ومستوحشة. لا يعجبه كانتون العمال، ولا يطال الترقّي إلى كانتون الأثرياء، وأقصر منه العودة إلى مرج العكوب سيّداً متوّجاً بالمال.

المال.. كدّسه ليفلشه لاحقاً في قريته. اختصر المكاتيب السمجة والمكرورة العبارات: «سلام سليم أرق من النسيم. مشتاقٌ إليك يا أبي، يا أمي...». هراء. خليل لا يشتاق إلى أحد. لا يضنيه سوى المال والنساء. هنا النساء كثيرات. تكفي امرأةٌ عموميةٌ ليفرغ فيها ماءه ووحشته وغلّه، أو عبدةٌ خادمة يفترشها في السكن العمّالي، وألذّ منهما الخادم الذي ينام عند باب غرفته، يأتيه مدبدباً على أربعٍ حين يناديه خليل إلى منادمة، ويرضى بقايا طعام خليل أجراً.

حظي خليل ببيتٍ مستقلٍ وخادمٍ شخصيّ حين رقّاه الشيخ صالح إلى مشرفٍ على عمال المصنع، وفسّادٍ على أخطائهم وشغبهم

ومؤامراتهم. تضاعف دخلُه وظلّت سنة العقوبة القديمة شوكةً في زلعومه، وإن كان الشيخ صالح نسي أمرها فهذا شأنه وحده. خليل لا يريد أن ينسى.

عاد ابن الشيخ صالح من لندن حاملاً شهادة عليا في هندسة النسيج ورؤىً معاصرة. ارتأى المهندس الشاب أن يفتتح مشاريعه في مدينة أبوجا التي تتهيّأ لتتويجها عاصمة لنيجيريا بدل لاغوس. خليل لم يطق هذا الولد منذ رآه بالبدلة والكرافة، وتودّد خليلُ إليه بلغتهما العربية، وأجابه المهندس بطعجةٍ إنكليزية، لكنّه أطاع الشيخ صالح الذي انتدبه ساعداً أيمن لابنه في أبوجا.

بمهارة لسانه، وإغواء الوعد بالمال، سيّر خليل مشروع المهندس. فاوض أحد العجائز النيجيريّين على بيع ورشته لصناعة الفخاريات الغوارية التراثية، لم يكن العجوز يعرض للبيع ورشةً عمرُه من عمر فخّارها. فرك العجوز أصابعه التي تكورّتْ في يباسها كأعناق فخّاراته، بكى العجوز، ناوله خليل، بين ترغيبٍ وترهيب، رزمات نيرات. خرج العجوز يثقل بحملها ويجول في فسحة الأرض الوسيعة حول الورشة، يذرف دمع خوفه على جذوع أشجارٍ غرسها نخيلةً وصارتْ أوسع من ضمّة يديه.

على أرض ورشة الفخار باشر المهندس تخطيطه لبناء مصنعٍ حديثٍ للأنسجة القطنية بالنيلة الزرقاء الممتازة، تسويقها مضمونٌ عالمياً بأرباح هائلة. خليل يسمعه ولا يصغي لهذا التافه الذي لم ينصفه بإكراميّة لائقة، ما كان عليه أن يعرض خدماته بالمجّان، فلمثله الحق بعمولةٍ عالية أو نسبةً في ملكيّة المشروع.

«يا أستاذ، لو تفتح في أبوجا فرعاً لمصنعنا في لاغوس»..

«((مصنعنا))»؟

«نعم، ويمكنك أن تعتمد على خبراتي في صناعة الموبيليا»

«سأختبرك أولاً كيف تصنع لي كأس شاي»

(أنا خليل أبو شال ابن مرج العكوب يا بن الشيخ صالح، الشيخ زفت، أفنيتُ شبابي في خدمة أبيك وتأمرني بعدها أن أغلي لك الشاي كالعبيد، أولى أن أمسح ريلتك يا صوص يا قميء يا بن أبيك. هناك، في مرج العكوب البعيدة، ستكون لي قبيلة مرابعين تبوس حذائي)

استخرج خليل سجلّ تعويضاته واستأذن الشيخ صالح في إجازةٍ أولى ريثما يعود المهندس الشاب من لندن التي سافر إليها يشتري معدّات مصنع الأنسجة. حقيبته تقعى أمام الباب، وكيس نقوده مربوطٌ إلى زناره، ونايلون الطيارة في جيبه، بطاقة ذهابٍ بلا إياب.

20

ليس في السويداء ولا قراها نهرٌ دائم الجريان يُدغدغ أرضها، يُرخّم في الليل مواويل الهجيني والعتابا والشروقي والجوفية والهولية لتهدهد الحزن القديم على سواد بازلتها. وليس فيها بحيرةٌ طبيعية تلوذ إلى شاطئها الجنيات الهائمات في الليل مذعورات من قسوة صخر اللجاة، وليس فيها ينابيع تفور من بطن الأرض، يطرطش ماؤها أرجلَ الصغار المستعجلين أن يكبروا ليطالوا نجماً هادياً في سمائها الضالّة.

خيرُ أرضها مرتهنٌ لجود سمائها، فإن حبست عنهم غيمها عطشوا.

وللسماء مزاجها السّادي، قد تجرش أرواح السكّان بسنينٍ عجافٍ بلا ذنبٍ اقترفوه سوى أنهم ولدوا على هذه الأرض البعلية الشقيّة. يستمطرون السماء ولا تمطر. يدور أجاويدها بطاسات الوعظ على البيوت والمجالس: «استقيموا يا أخوة الدين، اتّقوا الله في أنفسكم وفي إخوانكم ليرحمنا بالمطر»

تروي الجدّات للأحفاد اكتواء جيلهنّ بجمر العطش، أنّه ذات وقتٍ ليس بعيداً جداً بادل المجاهد بارودته أو فرسه بشربة ماء؛ وهو الذي يموت دونها ولا يُسلِمها لعدوٍّ ولا يعيرها لصديق.

شبّ الأبناء والأحفاد وفي حلوقهم جفاف، وفي مراياهم غولُ العطش، تمرّ سنوات خيرٍ وترتوي الأرض وتمتلئ المناهل ولا يزول خوفهم. ترعبهم سنينُ محْلٍ تكمن لهم في كرّاسة الغيب وقريباً

ستلوح، من أين لهم حينها بماءٍ يغنيهم عن أعطيات سماءٍ بخيلة؟

قيل أنّ هذه الأنهار غائبةٌ عن سطح الأرض، لكنّ في جوفها أحواض مياهٍ هائلة ترفدها ثلوج الجبال المحليّة وجبال بلاد فارس وجبال روسيا البعيدة.

فوق الأرض، تتقاتل الحكومات على الثروة المائية. دولٌ تركّع دولاً بالعطش، سواءٌ عندها إن مات الآلاف غرقاً بالماء، أو مات آلافٌ عطشاً إليه. وتحت الأرض يسخر الماء من تقسيمات الجغرافيا فوقها، تتعانق المياه ولا تسأل بعضها من أيّة جبال أنت، ولا تزدريها إن كان منبعها في بلدٍ عدوّ.

في طفولته، نجتْ قرية خليل من الطوقين: الجوع والعطش، لكنّ ذاكرة أبيه تمرمرتْ ببطشهما:

«ثلاثيناتُ القرن العشرين سنون جوع، أمحلت الأرض، مشينا مع الدواب عشرين كيلو متراً ذهاباً، ومثلها في الإياب لجلب تنكتي ماءٍ من أقرب نبع. نبشنا مخزون القمح من الكوايز وقتّرنا في استهلاك الطحين. جوعة، شبعة، مات أولادٌ وعجائز كثيرون. جفّت مياه البرك. نفذ القمح. طحنّا الشعير وخبزناه، جوعة، شبعة... بعضنا أقفل بيته وارتحل إلى الغوطة يشتغل أجيراً في زراعة الكوسا والبندورة. جاع حلالنا وهزل، عافت الكباش إناثها ولم تعد تقربها، وإن لم تُعشّر الأغنام وتلد سنخسر (منوحة) الربيع القادم. كسّرنا كوايز القمح الفارغة وبللنا طينها بالماء حتى طفا القش فوقه، أطعمنا القشّ للحلال بانتظار رحمة الله...»

في أوائل خمسينات القرن العشرين عايش خليل مرج العكوب الخضراء والمزدهرة. كانت نافذةً يفد إلى سوقها التجاريّ الحضرُ

وبدو الباديتين السورية والأردنية، يشترون غلال قمحها ويحملون بيض دجاجها في سلالٍ إلى التاجر الشاميّ. يُشرّق حلالُها شتاءً حتى بوادي الأردن والسعودية ولا تقف في دربه حدودٌ ولا أسلاك شائكة. أول الصيف يعود الرعيان إلى الديار بطروشهم وقد زادت حملاناً وجدياناً وليدة. تصطفّ قطعان الحلال بالدّور منذ الصباح على مناهل مائها الثلاثة ولا يرتوي آخر رأس غنم منها قبل المساء. ويبقى المنهل الرابع ممنوعاً على الطروش ليشرب منه البشر. ينظّفه أهل المرج مجتمعين مرّةً في العام، ينزلون إلى قعره عبر درج جانبيّ تملّست أحجاره لطول انغماسها بلين الماء، يكشطون الكمخة عن أحجار سوره العريضة المصفوفة بإتقان، يجزّون عشب الماء الغاوي بينها وهم يغنّون أو يحدون على صدى الشوق للماء والنساء الجميلات: يا واردة ع المنهلِ وتمهّلي...

حول بيوتها بساتين عنبٍ وتين ومشمش ورمانٍ ترويها قناةُ «وادي راجل» مرّةً في العام، وخلف البساتين مراعي شاسعة ومئات الفدادين من أرضٍ خصبةٍ تمتدّ كالكف المبسوطة حتى وادي الأزرق، تمنحهم مئات الأمداد من قمحٍ وشعير وحمص، يبدؤون زرعها عفيراً (بذار باكر) فور توزيع البيدر الحاليّ كي تلحق الدواب حرث هذي المساحات اللا منتهية. وفاضت غلال مرج العكوب عن أيادي أهلها العاملة فاستقدمتْ جموع المرابعين، اشتغلوا مقابل رُبع غلّة الأرض والحلال، ومرّت المواسم وعمّر هؤلاء بيوت إسمنتٍ طوّقتْ بلوفها العفنيّ سوادَ البازلت القديم، ولم يزد مجموع البيوت عن مائة بيت، وكانوا كلهم آمنين من البدو بسلطةِ القوة التي فرضها أمير مرج العكوب.

أميرها سليلِ نسل المشايخ الزمنيين وسابقٌ لزمنه، قسّم أراضي إقطاعته إلى قطاعاتٍ لكل منها ناطورٌ يحميها من غزوات البدو ويحفظ معهم شعرة معاوية، أذنَ لهم بوِرد أغنامهم من مناهل ضيعته، ولم يكسر خاطر شيخهم إذا استسمحه بعبور عشيرته أرض مرج العكوب في طريق ارتحالها إلى الجولان. وصل صيتُ الأمير المهيوب حتى وادي الأزرق، في عهده هزج الناس في أعراسهم: من الأزرق للضْمير مرعى جاجنا (دجاجنا).

من أوراق نجوى:

قاد الفلاحون ثورة العاميّة في السويداء عام 1888 لتقليص سلطة المشايخ الزمنيين لهم حين لم يتجرؤوا على إلغائها. وهؤلاء المشايخ شبكة إقطاعيين تحالفت مع زعامات العائلات الكبيرة ضد الأكثريّة من الفلاحين المرابعين عندهم. كبيرهم هو شيخُ مشايخ الجبل وحاكمهم المطلق ويملك نصف أراضي إقطاعته، يردفه شيخٌ سياسيّ وشيخ حرب وشيخ إداري، وهؤلاء أدنى منه مَقاماً ولهم رُبع أراضي إقطاعاتهم. ندرةٌ منهم كانوا وطنيين، وجميعهم استبدوا بالفلاحين في مظلمةٍ تاريخية توارثها أبناؤهم على أبناء الفلاحين. ثار الأبناء ليحجّموا سلطة الإقطاعي الذي متى شاء يُرحّل المرابع إلى العراء ويُنزلّ من يشاء أين يشاء بحكمٍ قاطع: «خذ بابك وارحل». لا ينفع معه أي استعطاف: «وحق النبي يا مير الجوع كافر../ ولو انك ذايقو يا مير كنت عذور..»

بعد ثورة العامية تقلّصت حصة شيخ المشايخ إلى الرُبع، وحصة باقي المشايخ إلى الثُمن، وتأسّس حزب الفلاحين كحلف

قرويٍّ معارضٍ لحزب الشيخ ومواليه. تحوّل لقب الشيخ إلى أمير حين منح الأمير فيصل هذا اللقب لكلّ من شارك منهم في الثورة العربية الكبرى 1916.

اغتنت مرج العكوب بسيلان وادي «راجل». عمرُ راجل قصير، بالكثير سبعة أيامٍ يغور بعدها في الأرض على ميعادٍ أكيدٍ في الربيع التالي. ينحدر مسيله في أواخر الشتاء من سفوح جبل العرب مروراً بقرى الجبل الشرقية لينطفئ في أراضي الأزرق. بُعَيد قدومه ينهض في مرج العكوب مهرجانُ نخوة. يجتمع أهلها بدءاً من سايس المجلس حتى صغار صبيانها. إن تقاعس واحدهم عن العمل نبذه محيطه الأوحد في قريةٍ تحكمها الأعراف بدل سلطة القانون. يتقسّم الرجال مجموعاتٍ من أربعين إلى خمسين عاملاً في اليوم تُعزّل مجراه من الصخور وأغصان الشجر والردم وجلاميد الجليد وجثث الحيوانات النافقة، وتنفتح الترعُ على ضفتيه لتردم الأرض بمائه أخاديد الشمس على ترابها بروية وحيدةٍ وكافية. لا يندر أن يتقاتل أبناء القرى الجارة بالعصي والأحجار إذا حاول أبناء بعضها الاستئثار لقريتهم بحصّة أكبر.

***

هو حال مرج العكوب الشبعانة التي سافرتَ منها يا خليل إلى نيجيريا. لو لم تكدّ في لاغوس أكثر من البغال التي علّق والدك نير الفلاحة في أعناقها، لو لم يطعنك جشع الشيخ صالح، لو لم يسرف المهندس في وقاحته؛ لبقيتَ على قناعة الاكتفاء إلى الأبد، تفلح

أرضك، وتناوب في تعزيل «راجل»، وتنام حامداً شاكراً. لو لم تـــرَ تلال المال في خزنة الشيخ صالح لما اشتعلتْ فيك شهوةُ الغنى والتوق إلى الفكاك من أسر وصايته.

كانوا أخبروكَ أنّ نيجيريا سائبة، سبائك الذهب مرميّةً علـــى أرضها كالحصى والشوك، أو أنّها في مناجم لا يعرف العبيـــد فـــيمَ يمكن أن تفيد. خدعوك، زرعوا في رأسك أنك تروح إلى هناك، ترى عبيداً في طريقهم إلى الفابريكا، أكتافهم محنّيةٌ بأجولة الفستق، تُغري العبد منهم بقطعة بسكويت «غراوي» أو «غندور» تكون اشتريتها من مطار بيروت، تسيل لها ريلة العبد، تبادله إياها بسبيكة ذهـــب، يخطفها منك، يظنّ أنه ضحك عليك بحجرٍ تافهٍ كان التقطـــه مـــن الأرض، تجمع السبائك وتتظاهر أنك تكتفي بمرتبك الهزيـــل عنـــد الشيخ صالح، تطلب إجازةً إلى أهلك لأنك اشتقتَ إلـــيهم، تطفـــر الدمعة من عين الشيخ اعتذاراً عن تباريح شوقك. تفكفـــك نعـــال أحذيتك وخفافاتك، تدحش فيها السبائك وتعيد خياطتها وتحشرها في حقيبتك، ليس في المطار أجهزة تفتيشٍ كاشفة، تعـــبر بســـلام، وتعبر معك بطيخةٌ تحملها في يدك. كنتَ شققتَ البطيخة، فرّغـــتَ منها ماءها الحلو وحشوتها بالسبائك وأغلقتـــها بإتقـــان. يســـألك جمركي الحدود الأسود بأدب:

«بطيخة! أليست ثقيلةً عليك»؟!

«أيها السيد المحترم، سفري طويلٌ ولا يروي عطشـــي ســـوى البطيخ»

في بيروت تبيع السبائك إلى تجار السوق الســـوداء وتســـتثمر بأثمانها عقاراتٍ في لبنان وسوريا.

كذبوا عليك. أو أنهم أخبروك نصف الحقيقة. قد جئتهم متأخراً جداً. لم يعودوا قبائل بربرّية، قد وعتْ حكومتهم قيمة الذهب والمعادن، واستولتْ بعون الإنكليز على منافذ الثروات الوطنّية.

21

عشرون عاماً في نيجيريا، وعاد خليل يتشعبط بثروته، يفصح عنها ببدلة سموكن بنيّة وخاتمٍ ذهبيّ مربّع الواجهة وساعة سيتزن رقمية، يؤمّن على بطن حقيبةٍ بأقفال ثلاثة، ويستعين بثرائه على تطعيم حديثه بالإنكليزية.

خليل العائد إلى مرج العكوب ليس خليل الخارج منها قبل عقدين، لن يشهق حين يرى ابن عمه مروان يأتي ليبارك عودته بالسلامة. لن تعتكر عينه بدمعة لقاءٍ لا حارٍّ ولا فاتر، ولن يريد أن يتذكّرا سويّاً حنينهما إلى حوليّات راجل وأيام الحصيدة والنوم في البيادر وغزوات الأتان. جاء مروان مثقلاً بمسؤولياته في الفرقة الحزبية البعثية، وببدلة السفاري الرماديّة وبشالوخه الصيفيّ. خليل يستطرد أمام مروان عن ضنى غربته في نيجيريا، يُقسم أنه لم يسكتْ على ضيمٍ ولا ذلّةٍ وأنه كسر أنف الشيخ صالح نفسه، ومروان يروي لخليل إنجازات الفرقة الحزبية المولودة في غيابه، عدادها عشراتٌ من الشباب والصبايا، أجبروا البلديةَ على ترميم إسفلت الطريق إلى مركز المنطقة بقشرة إسفلتٍ اقتصاديّ جعلت الطريق أفضل بألف مرّةٍ مما كان. والمحافظ وعدهم ببناء نقطة طبية. مروان مستعجلٌ إلى اجتماع الفرقة. لا وقتَ لديه هو الآخر ولا نيّة لاسترجاع نصف العمر المهدور قبل انتسابه إلى حزب البعث.

لا خليل خليل ولا مروان مروان ولا مرج العكوب تنام على هنائها القديم قبل ربع قرن.

حاصرتها غوائل الدهر مع سبعينات القرن العشرين. انغلقت منافذها إلى البادية، تفرّقت سلالة آخر أمرائها، عقمتْ أغنامها بعد طول عطش، ماتتْ أشجار البساتين. تحوّلتْ أراضي القمح إلى مراعي لفلول القطعان الباقية. اقتلع الرعيُ الجائر جذور النبات الموسمي والحولي فلم يعد ينبت الشيح ولا القيصوم، وببطءٍ تصحّرت المراعي وجفّ نبع «أبو صفصافة» وتبخرت مياه المناهل وتبخّر نصف شباب البلد وسرى أمان القبور.

و«راجل» احتضر. كمّموا قناته بسدٍّ أسفل منبعه فلم يسلم من الوادي المغدور سوى فرعٍ نحيلٍ يسيل ضحلاً إلى تخوم مرج العكوب ويكسل عن بلوغها. وتغيّر اسمه إلى «وادي الجاج». (الدجاج، تسافر الأزمان والأحوال ونعود إلى الدجاج).

من أوراق نجوى:

الماء هو الحياة هو الاقتصاد هو السياسة. كلُّ الجفاف اللاحق بدأ من جفاف الماء. يخاف الناس بعضهم في سنين الجفاف فيتجافون ويتقوقعون وتنشأ أسوار غير مرئيةٍ بين بيتٍ وبيت وحيٍّ وحيّ. بدأت طلائعُ هجرةٍ جديدةٍ من البلاد مع قحط سنة 1958، وركبتْ فوقها سنواتُ قحطٍ سياسيّ تكرّستْ بإسلام البلد إلى حزب السلطة الواحدة وترسّخت بهزيمة حزيران. كرّتْ سنواتُ بطالةٍ عميمةٌ أذلّتْ شباب البلد وكبّلتْ أياديهم بالحاجة. شغلتهم المواسم أو أعمال البناء لأيامٍ معدودات والباقي فراغ. في الثمانينات حرصت الحكومة على

صورتها النهضوية فلم يستمرّ من أعمال البناء سوى تشييد المدارس واقتطاع نصف ميزانيتها إلى جيوب المسؤولين.

وسط النقمة على البطالة وجفاف الاقتصاد روى الشباب عطشهم بالثقافة والفنون والحراك السياسيّ. راح الشباب والصبايا إلى المدارس والجامعات والأحزاب من جميع المشارب. إقليمية وقومية وأممية، يلتقون مجموعاتٍ منغلقةً في البيوت بدلاً من مضافة الأمير ومجلس القرية. ركلت أفكارُهم الإقطاعَ الغشيم والبورجوازية العفنة وانخرطت في الجبهة الوطنية التقدمية. وتلهّى الكبار عن سهرات المضافات بمسلسل السهرة في التلفزيون، خفتتْ هيبة المعلّم والوالدين والجيران ولم يعد الصديق يتقاسم مع صديقه المصروف والأسرار واللقمة ولم يعد الناس ينادون كل كبيرٍ في البلدة: يا جدّي. ولا كل ختيارةٍ: يا ستّي.

الجفافُ أفرغ الريفَ من نصف شبابه ونصف بيوته من أهلها، ارتحلوا نحو أطراف المدن، سوّروها بأحزمةٍ من الريفيين الطامحين إلى فرصٍ في الوجود قبل فرص العمل، ارتضوا بالقطاع الخدميّ بدل الزراعي الذي نشأوا عليه. تطوّع البعثيون الفقراء في الجيش والشرطة، وتحوّل أبناء المدن إلى التجارة والوساطة وتشغيل الفقراء، وانفتحت أبواب السجون لأصحاب الرأي، وأبواب الهجرة لمن صُدّت في وجوههم أبواب الرزق أو حريّة الرأي، رحلوا إلى لبنان إلى الأردن، إلى الخليج، إلى ليبيا، إلى فنزويلا. طائرةٌ كاملة العدد رحلتْ بأبناء قريةٍ واحدةٍ إلى ليبيا، قريةٌ بقي فيها خمسُ رجال واشتهتْ صباياها أن ترى رجلاً تسمع منه تلطيشةً حلوة.

***

يهسّ الصوت في رأس خليل: ربّ ضارّةٍ نافعة. شهد أفولَ الزراعة في قريته فحمل حقيبته ومشاريع رأسه إلى المدينة عازماً ألا ينفق قرشاً في غير موضعه. اشترى سيارة بيك آب داتسون مستعملة. يهوى خليل الأشياء المستعملة. استأجر ورشة موبيليا في المنطقة الصناعية ريثما يحرث السوق أسئلةً واستكشافاً عن مشاريع معاصرة. وعليه قبل ذلك أن يتزوّج، فأقرانه كادوا يصيرون جدوداً. «يا عمّتي زين المحضر، شدّي عزماتك ودلّيني على عروسٍ حلوةٍ وصغيرة». تأنّتْ زين المحضر. بلاطة خليل ثقيلةٌ ولن تضع يدها تحتها.

كاد جاره في الورشة يقع على قفاه من الضحك: «ولو يا رجل، البنات كثيراتٌ مثل الرز وأكثر من هموم القلب، لو وقفتَ على باب ثانوية البنات ستحولّ عيناك من كثرهن».

ليوم واحدٍ تشارك خليل وسالم الأخوث انتظار خروج البنات من المدرسة. عبرتْ بنتٌ طويلةٌ كرمح، لوجهها لونُ الحنطة المشقرّة، وتحت خصرها الرفيع اكتنازٌ ينادي إلى مطارحات الليل ويعد بدزينة أولاد. اندلق شعرها عسلاً كثيفاً حين انفكّتْ عنه الربطة خارج باب المدرسة. بها وحدها من بين البنات الكثيرات كالرزّ علقتْ عيناه. في الليل لم ينم. قد تكون مخطوبة، وقد يطلب أهلها مهراً يكسر قفل حقيبته.

باكراً أفاق، تأنّق، اشترى علبة عطر (ريف د ور) وأهداها للموجهة التي سمحتْ له بالتواري خلف الشباك الطويل ساعة الاجتماع الصباحي. دلّها على البنت ودلّته على اسمها واسم أبيها ومكان شغله.

في دائرة النافعة (التي تبدّل اسمها إلى دائرة المواصلات) بالغ مرهج بالترحيب بابن عمٍّ يُنهي مقاطعة أهله له ويردّ إليه اعتباره. لم

يحتج خليل لكبير جهدٍ ليلحظ أن الزمن رسم شيبه وتجاعيده على جلد مرهج و لم يُشذّب دنيّاته. شكا له مرهج ضيق الحال وابنته المريضة في المشفى بين حياةٍ وموت، وضيق الحال وكثرة البنات، وضيق الحال ومصاريف ابنه في الجامعة، وضيق الحال وعجزه عن مدّ سقف الطابق لابنه ممدوح.

عاد خليل إلى مرهج مرة أخرى يعزّيه بموت ابنته، ويعده بمالٍ لسقف الطابق. من عنده عاد إلى مرج العكوب ليخبر أهله: «سأتزوج حياة بنت مرهج»

22

السويداء، طفلةُ ريفٍ تنام في طمأنينتها إلى هوائها النغِش وتفهُّم ساكنيها اللا مشروط لقسوة الجغرافيا ووصايا الأمير السيد التنوخيّ أن تبقى سلالاته نقيّة.

في السلم يبكي أهلُها إن جرّ شاعرٌ قوساً على وتر الربابة، يدوخون جوىً إن أسمعتهم مطلوع عتابا، تُذيبُ قلوبَهم بحّةُ المجوز، ويُطعَنون عشقاً إن تمايلتْ صباياهم في رقصة اللوحة.

وفي الحرب يحملهم هديرُ الجوفية إلى حتفهم واثقين.

تحبو السويداء على حفاف جبلها الريّان، يتحصّن أهلها بوعورة اللجاة غرباً شمالاً، وشموخ القليب شرقاً جنوباً، ويديرون أعينهم عن امتداد السهول غرباً حتى قلب حوران.

إن رحل أهلُها عنها حملوا معهم عشقَها في سلال القلوب. ما إن يلتقي اثنان منهم في أقصى المعمورة حتى يبثّا شيفرةً سريّةً تُوطّد عروتهما الوثقى كعظم الرقَبة.

في السلم قليلاً يستذكر أهلها الدين، وفي الحرب يعتصمون به حبل خلاص. وجميعهم يكرمون الضيف كائناً من كان، ويُبقون بينهم وبينه زنّار حذَر. وفيما بينهم يقتتلون، يستعلي ابن المدينة على ابن الريف أو الأصول الريفية، ويتكّئ ابن العائلة المكينة على كرامات جده ليصيح في وجه ابن العائلة المغمورة: ابن مان انت حتى تحكي؟

قد ترفع العائلة ابنها إلى أعلى وأعلى، أو تنزله إلى درك غائرٍ وتسوطه بالنمائم البريئة أو الحاقدة كائناً ما كان عقله أو شهادته العلمية.

إن مرّ الغريب في نهار المدينة يأمن لناسها، وإن جاءها بعد مغيب الشمس أفزعتْه طرقاتُها المقفرة منهم كأنّهم جميعاً تواروا على انتظار كارثةٍ غير مرئية.

ونساؤها عاليات، لهنّ مقام كاملات العقل والدين، يمدحونهنّ فيقولون: «أخوات الرجال»، يربين الرجال ويعتنين بالأهل ويحفظن أرزاق الزوج والأهل، ولا يورث الأهل والزوج أرزاقهم للنساء.

وشباب المدينة وصباياها لا يبالون، يتسابقون إلى انفتاح العقول واكتساب العلوم وتذوّق الفنون وقيافة الهندام.

وهي المدينة التي تُبطن تناقضها العجيب بين نهم أبنائها للحضارة وولائهم لماضيها.

لم يخلد اليونان في أرضها وإن كانوا نقشوا على أحجارها وعوداً لآلهتهم بالخلود: (النوم يتملّكك أيها السعيد. يا سابنيوس الإلهي، ستعيش كما الأبطال ولن تموت أبداً، ستعيش راقداً في القبر، حيّاً تحت الأشجار، لأن نفوس الورعين ستعيش خالدة).

هي (سؤادا) الأنباط ذاتُ الحجارة السوداء بنتِ طبيعتها البركانية، معشوقةُ إلهِها النبطي «ذو الشراة». مات ذو الشراة مع موت العهود الوثنية وتقمّصتْ روحه جسد طائرٍ مفتونٍ بشبابيكها العالية.

وجاء الرومان وأسموها ديونيسياس تيمّناً بالربّ ديونيسوس، وهندسوا أحياءها شبيهةً بروما فاكتملت؛ بازلتاً أبيّاً ونبيذاً مقطورا.

حينها نصبوا قوس الكنيسة الصغرى البيزنطية شامةً على مدخلها الشرقي.

وآلت المدينة من بعد الرومان إلى الغساسنة العرب ومن بعدهم للحكم العربي، وفي عهود الضيق والبلبلة أقفرت إلا من بعض قبائل البدو ترد ماءها في الربيع وترحل، وسكنها العرب الدروز منذ قرونٍ ثلاثة، ومرّ بأرضهم الأتراك وخابوا، ومن بعدهم جيوش فرنسا.

وظلّت أرواح بيوتهم عربية، وأسماءهم عربية، وظلّ اسم الخبز في بيوتهم: العربي، وقهوتهم عربية، وزيّهم عربي.

ما تزال أطلال قلعةٍ بناها العثمانيون في السويداء. هم رحلوا وهي تناطر شروق الشمس. وما يزال وسط السوق فندقٌ وحيدٌ مهجور، قد تهدَّمَ سقفُه وتدلّلتْ غصون القُرّاص بالندى بين شقوق حيطانه وتندّتْ أوراق الطحلب بالحنين، وما تزال بصمات معماريّي آل الشويري اللبنانيين منذ استقدمتهم فرنسا من جبال المتن في لبنان ليبنوا نسقاً دامغاً لحقبة استعمارها: أبنيةٌ بطابقين وروفٍ مجلّلٍ بالقرميد، أجملها قصر أسمهان بفتحات نوافذه الصغيرة ووجائب الأرض الفسيحة حوله، مزروعة بأنواع غريبةٍ وفاتنةٍ من الشجر والنبات الدائم الخضرة.

ورحلتْ فرنسا والزرع لم يرحل.

وصار اسم قوس الكنيسة الصغرى: (المشنقة)، وإلى الغرب منها دُفنتْ بركة السورية النبطية، رُدِم خزّان الماء الساقي الناسَ والأرض لمئات من السنين خلت، وأقيم فوقه موقف عزاء يحتفي بالموت ويُسقى ببكاء الأحياء على الموتى.

وظلّتْ بقايا كنيسةٍ كبرى ابتلى الهجرانُ والإهمال والأوساخ قناطرها الحجر. وانطمر تحت الأرض مسرحان؛ كبيرٌ وصغير.

في بيتٍ مستوحدٍ قرب المسرح المطمور تقيم عجوزٌ مستوحدةٌ مثله، كل ليلةٍ تغتسل وتلتفّ بالكفن الأبيض وتنام في تابوتٍ حجريٍّ يقيم في البيت من قبل أن تولد.

واحتفظتْ المدينة بطابع فقرها المزمن وإن رقّشها المغتربون بالقصور حين عادوا.

ركع المغتربون في شبابهم لجواز سفرٍ يُهجّجهم إلى المنافي، واستماتوا في خريف العمر للعودة وامتلاك مرقد عنزة للعيش وقبرٍ لحين الموت. عادوا بنماذج قصورٍ من طراز عصر النهضة الأوربية، واستقدموا الحجرَ الكلسيّ الأبيض أو الأسمر الضارب إلى صفرة من مقالع دمّر أو حماة أو حلب أو الأردن.

أوكل مغتربو نيجيريا بناء قصورهم إلى متعهّدٍ واحد، الخواجة يوسف بلكنتِه الارستقراطية والبنطال والقميص سبور والبرنيطة العاجيّة المعقودة إلى ذقنه. عاش الخواجة سنواتِ بنائه في الكارافان. أدهشَ أولادَ الحارات ببيتٍ يمشي على دواليب. زرع في المدينة وبعض قراها تصاميم قصورٍ كان بناها لأثرياء لبنان، بيوتٌ هائلة المساحات، مضافات تستوعب مائة ضيف، ردهات كصالات أفراحٍ صيفية، كراجات فسيحة، غرف نوم بحماماتٍ داخليةٍ واسعةٍ كميدان. بيوتٌ تشتهي أن تكون لأصحابها سكناً دائماً لا محطّةً يُؤابُ إليها في أرذل العمر.

23

من مرويّات البشرية
يتوارثها الرجال بالتلقين، وتسري على النساء بالحيلة.

في بدايات وعيه، تحيّر الرجلَ في أسرار أنثـــاه، في معجـــزات جسدها الثلاث؛

معجزة الحياة، *بلا جراحٍ تنزف المرأة كل شهر مثلما ينـــزف الرجال الجرحى، ولا تموت نزفاً مثلما يموتون، ينحسر دمها وحـــده وفي ميعاده يعود.*

ومعجزة الخلق؛ *ينفرج ساقاها فيخرج من بينهما طفل، ويكبر الطفل على بركة الثالثة:* ***معجزة الغذاء؛*** *هذا الحليب المنـــهمر مـــن ثدييها سخيّاً كالمطر.*

من شدّة انبهار الذّكر بأنثاه خشيها. وخوفاً من سطوتها ركـــع عند قدميها وقدّسها. وحين اكتشف دوره في الحمل زال انبـــهاره، وطوّقها بحصارٍ وحصار يمهّد دربه إلى استعبادها.

ارتحلنا إلى السويداء.

ودّعتني زين المحضر من غير دموعٍ ولا وصايا، بيديها عجنـــتْ مسحون الصخر مع الطين وصنعتْ لي خابية، قولبتْها وشوَتها بالنـــار

وزيّنتْ الجدران بكسرات الزجاج والخرز، «هي لكِ يا بـــنتي، مـــاء الخوابـــي دواءٌ للحلوق اليابسة».

من فرط ما اشتقتُ إلى السويداء لم أعد أجزم إن كانت عـــودتي إليها ستسعدني أم تشقيني. في الطريق إليها ذقتُ فرح الزوجة المدلّلـــة. أجلسني خليل في سيارته ميتسو بيشي لانسر السوداء المستعملة، عدنان في حضني وسلطانُ في حضن أبيه يتشبّث بالمقود كسائق واثق.

لم يستشرني خليل في مكان البيت ولا في تصميمه ولا أثاثـــه. اشتراه قريباً من قلب المدينة، إلى الشرق من حارات السويداء العتيقة حيث تتدرّج الأرض بارتفاعٍ ملحوظ. من برندته الغربية يمكنني رؤية حارة أهلي في المنخفض الغربـــي وإن كانت تبعد عن بيتنا لا أقـــل من كيلو مترين. قبل أن يعثر خليل على بيته هذا فاوض على شـــراء أرضٍ على كتف حرش السنديان شرق شمال المدينة حيـــث نبتـــتْ حديثاً قصورُ الأغنياء، كان في نيته أن يعهد إلى الخواجة يوسف ببناء قصر. ربما أدمَتِ الحسابات جيبه، وربما استنكف عن فكرته حـــين عرف بأمر هذا البيت (اللقطة)، فقد عرضه مالكُه القديم للبيع بسعر البلاش ليُسرّع هجرته إلى أمريكا. بيتٌ مســـتعملٌ كانـــت تنقصـــه مضافة فعمّرها خليل أمام الغرف واسعة كميدان خيـــل، بطـــواطي رخام وفرش مخمل أخضر، وعلّق في صدرها صورته وصورة ولديـــه وصورة حافظ الأسد وصورة سلطان باشا الأطرش وتحتـــها ســـيفٌ نحاسي لا أدري من أين غنمه.

لم ينحر خليلُ لبيته من الأضاحي لا خاروفـــاً ولا ديكـــاً ولا دجاجة، أشغالُه بين ورشة الموبيليا ومشاريع الحفارة والآبار تستنزف وقته ولا تُبقي نتفةً منه لوصال الجيران أو ذوي القربى.

تناديه أشغاله وينادينى هواء المدينة. أُهندم سلطان وعدنان وأمشي في السوق ثقيلةً بولديّ. أتعثّر كطيرٍ يحمل في صدره قفصَه، أمشي وأستعيد مائي، آنس إلى طرقاتٍ لم تزل نديّةً في خاطري، أمشي ولا يتعرّف إليّ أحدٌ في هذه المدينة التي يعرف الناس فيها بعضهم أكثر مما يعرفون أنفسهم. أمشي كأني لا أسير.

أبو غضنفر البويجي مثلي لا يسير، ما يزال هنا على جلسته العتيقة في شارع الشعراني، لوحته الكرتون أمام صندوقه البويا؛ (أبو غضنفر، الخطوط الجوية الملكية الهولندية...)، يجلس مخلصاً لصمته الكليّ، لا يرفع نظره إلى وجه الزبون، فشغلُه على مقام الأحذية. قربه بابور الكاز وفوقه إبريقه الشاي المسخّم بالدخان وبروائح السوق وبأوجاع صدره. حين يأتيه زبون، لا يطفئ أبو غضنفر سيجارته (الشرق)، يركنها مشتعلةً فوق أذنه لتحترق غير بعيد عن حرائقه، يشوبر بيديه ليُموّه أزيز صدره. ينهمر الرماد من خلف أذنه إلى كتفه إلى الأرض، ويلمع الحذاء المفروك كحلية فضةٍ وحيدةٍ بين يدي صبيةٍ مهووسةٍ بالفضة. يعلن أبو غضنفر إكمال ورشة التلميع بخبطةٍ مجلجلةٍ بعقب الفرشاة على ظهر صندوقه. تسقط ليرةٌ من يد الزبون على ظهر الصندوق، بشكرٍ صامتٍ يمضي الحذاء بصاحبه إلى أشغال الدنيا ويعود أبو غضنفر إلى مضغ دخانه.

أعبر السوق ولا أشتري. أقف أمام مدرستي حيرى كتلميذةٍ سبقتْها رفيقاتها إلى قاعات الدرس وأبقينها على الناصية، سالم الأخوث مرابطٌ عند بوابتها بحروق وجهه، بلحيته الممشّطة، بذات الكنزة الكحلية والجاكيت البنيّ، ببنطاله الأغبر بشماغه الكارو أحمر وأبيض:

«قال السيد المسيح: هل يستطاع أن يُقطَف من الشوك عنباً؟ أم يُجتنى من الشوك تيناً؟ فهكذا كل شجرة صالحة تثمر ثماراً صالحة، والشجرة الرديئة تثمر ثماراً رديّة، وكل شجرة لا تثمر تُقطع وفي النار تلقى».

سالم الأخوث يسرّح قطعان أسئلتي العاقلة: هل تفقس بذوري في الأرض الخراب؟ ولداي لا يشبهانني، سلطان فطم نفسه عن حليبي بعد ولادته، وعدنان مثله. يكبران أمامي ولا أنفذ إلى دنياهما. لحق سلطان أن يمتصّ سكّر علكة (مومو) ويبتلعها ويبدأ النقّ: «ماما ما هذا؟ ماما اشتري لي هذا». ابني يريد الموز، وجيبي فارغ.

في مرج العكوب كان سلطان يأتيني باكياً: «ماما اعطيني مصاري أريد بسكوتة..». «رح إلى أبيك واطلب منه». «قل لها سأعطيكَ مصاري إذا هي أعطتني». في الليل أدفع ثمن بسكوتة لابني، أدهن فتحتي بالزيت قبل أن يغرس فيها نصله الثخين كعصاة الراعي.

لن أدفع ثمن بسكوتة جديدة. سأُغيّر خليل أو أخلص منه أو أربط يدي عن سرقة الفُتات من جيوبه. تعال نتفاهم يا خليل: انظر كم ينقص بيتنا وكم ينقصني. أنا أخلط حليب أطفالي بالماء ليملأ كؤوسهم، وأحتال على فساتيني القديمة بتطريز أو زينةٍ مما تركت لي أرجوان. في البيت بطاطا ونفسي تطلب اللحم وأنا أشتهي الكازوز ولم تشترِ لي مرّةً كازوزة، وتشتري لنفسك عرق الريان وسجائر البول مال والبزر المحمّص، هذي مازتك، أعددتها لك الليلة بأقلّ كرهٍ ممكن، لنجرّب أن نتفق؛ رح إلى الطبيب واخلع سنّ الذهبّ من فمك، وحين تنام معي اخلع ساعتك المذهبة وخاتمك أبو النسر،

اخلع معها خيالات العبدة الزنجية. وأنا أعدك، سأبذل ما أقدر عليه لأطرد طيف ناصر. خلّ عينك في عيني يا خليل وساعدني واقربني من أمام، لا يا خليل، من أمام، من أمام.

«لن أقبل منذ اليوم ولو أعطيتني مقابلها ألف ليرة. سأتوظف بشهادة البكالوريا وأعيل نفسي».

خليل البغل يمهلني حتى الفجر ليعيدني إلى بيت أهلي، أخيراً سأرى أهلي.

تركَ خليل طفلينا نائمين وفرشتنا مجعلكة وجرّني إلى سيارته. هي المرة الثانية التي أركب فيها سيارته. لم يعد بعيداً بيتُ أهلي، ليس أطول من نوبة بكاء سخية حنيناً إليهم لا ألماً من التفاف يد خليل اليمين حول طيّات شعري، وباليسار وحدها يُدير مقوده حتى وصولنا.

على مدخل البيت تفيق زهرة العطرة من نعس الليل وتغفو ورود الشب السهران بعد أرق الليل. لهذا الخضار أردتُ أن أبتهل، لا لأبي، سيحكي له عني ثوبُ نومي المنسّل الخيطان، ورميةُ خليل لي عند العتبة وصراخه بأبي كما يجعر خليل على عمال ورشاته:

«لا أطلب سوى حقي الشرعي يا مرهج وابنتك تتمنع»

وقعتُ على الإسمنت الذي فوقه ربيت، جالتْ عيناي على حيطان الليوان على باب الحمام على باب غرفتنا المغلق، هل أخواتي كلهنّ في البيت، هل كبر عناد، هل عاد ممدوح، لماذا لم تخرج أمي بعد من عفن غرفتها؟

«خذ ابنتك، خلّلها مع أخواتها وأتحاسب وإياك فيما بعد»

«طوّل بالك يا بن عمي، اللحم لك والعظم لنا»

لن يغرق أبـــي معي في وحل التفاصيل، لن يستمهل ليدقّق في شرعة الزواج وحقوقه. كغابر عهده، استلّ حزامه من المسمار المقيم في الجدار ودوّى به على كل مكانٍ مُطالٍ من جلدي، لم أرفع يـــدي لأداري رجْمَ الحزام و لم أرفع عيني إلى عين أبـــي المارقة. ركضـــتْ أمي لتبعده عني.

«يا حُسنَ ما ربّيتِ يا بهيمة. روحي اعملي لصهرنا الشاي».

بين هويتين من الحزام سمعتُ بوضوح: «يا كلبة يـــا ممحونـــة» سمعتُ ما يشبه أن خليل سيطلّقني ويسلبني ولـــديّ ويـــأتي بزوجـــةٍ جديدةٍ يستلذّ بها وتستلذّ بخيراته وتنكّل بأولادي.

كلُّ الطيور تُصطاد من أجسادها إلا طيور القطا، من أمومتـــها تُصطاد.

تصحو القطاة مع الضوء، تودع صغارها في كنف الرب المجـــير من جوعٍ ومن خوف، وتطير لتجمع لهم من برّيته الديدان والثمر.

صائد القطا يصحو قبلها، يرقبها تنأى ويدنو من عـــشّ الزغاليـــل الكسيحة عن الطيران بعدُ، لا ليسرق الزغاليل؛ لا يُشبعه لحمها الهزيـــل. يدنو ليغرس في قلب العشّ نصلاً رفيعاً مدبّباً، ثم يبتعد، وبدمٍ باردٍ يطلق في الهواء خردقة صيدٍ واحدة، رسالةً صوتيّةً لـــلأم، ليرعـــش صـــدرها وتستدير عائدةً بجناحين لاهثين تستعجل الوصول إلى فلذاتها الضـــعيفة، تغفّ قوقها بعينين عمياوين وقلبٍ بصيرٍ يدحمه النصل في شغافه.

حملتْ أمي الشاي إلى صهرها ليروق ويتيسّر إلى أشغاله علـــى وعد أن تعيدني بنفسها إلى بيته بعد أن تردّني عن غيّي. سندتني لأقوم

إلى المطبخ، ارتميتُ على طرّاحةٍ تحثو في مكانها منذ يوم عرسي، من المضافة أتاني صراخ خليل وبرطمة أبي، راحتْ إليهما أمي: «أخفضوا أصواتكم، لا تفضحونا أمام الجيران».

حوّمتْ حولي عفاف واكتمال وختام ومنتهى. أشتاق لرجاء تمسح لي خيط دم يسيل من زندي، يا رجاء، يا موتك الخائن الذي لن ينطوي!

غادر مرهج السافل في سيارة خليل الوغد، وانفجرتُ في وجه أمي:

«غصبتني عليه، أنت وأبي وممدوح تركتم خليل يفترسني في مرج العكوب، لن يكمل افتراسي في بيته»

«قالتْ لنا الشيخة أنّ على المرأة قبل أن تنام أن تدور حول فراش زوجها سبع دورات، في كل دورةٍ تسأله: بدّك شي؟ فإن طلب استعمالها لبّته، وإن تمنّعتْ دخلت النار»

استعمالها؟ يستعملها. يستعملنا. يستعملون.

تُستعمَل الفرشاة لتنظيف الأسنان، والمنديل لتمخيط الأنف، والممسحة لكشط الوسخ، تُستعمَل المرأة من قدّام ومن وراء، تُستَعمل المرأة...

«تعلمين إذاً أصول الدين يا أمي! فهل تعلمين ما علّمتني زين المحضر أن الرغيف ما بيتاكل على الوجهين»

لا يؤكل الرغيف على الوجهين ولا تؤتى المرأة من دبر

«اليد التي لا تستطيعين عضّها بوسيها وادعي عليها بالكسر. اصبري وسايري زوجك ولك الأجر»

أنهض من على الطراحة، أفتح ورقةً في ذهني، أكتب عليها بالقلم الأزرق: (الأهل السند)، آتي بقلم أحمر، أرسم فوقها شارة إكس، وبالقلم الأسود أكتب تحتها:

(بعد الأم والبيّ كل الأهل جيران)

أقوم قبل أن أشرب في بيت أهلي كأس متي ولا كأس ماء: «بخاطرك يا أمي، لن أتعبك بتوصيلي، أعرف الطريق إلى بيت خليل».

24

سيكون خليل السبّاق إلى حفر الآبار الخاصة قبل أن يُغويه امتلاك حفّارته الخاصّة. بحث كثيراً وجمع وطرح وقرّر وارتاب، واستقرّ رأيه عند حفر بئري ماء يسيل منهما المال مثل الماء. يبيع ماء البئر الأول بالصهريج للبيوت العطشى، ويروي بالثاني أرضه. سينصب فوقها بيوتاً بلاستيكية ويزرعها خُضاراً في غير مواسمها ومشاتل لورود الزينة، مشروعه سيكون الأول في المدينة، قبله كان باعة الورود يستوردونها من الشام.

في دهاليز مؤسسة الريّ حفيت قدما خليل في استخرج رخصة البئرين، وتكدّست الأوراق في ملف الرخصة حتى أعجزه حملُها، وتناثرت شتائمه كالأوساخ على حيطانها.

حفظ خليل بنود الاتفاقية الدولية بين سوريا وتركيا والأردن والعراق لضبط حفر الآبار كي لا تجفّ مياه الأحواض العميقة، وحفظ شروط ترخيص الآبار: مساحة الأرض لا أقلّ من 30 دونماً، وبعيدةٌ عن المخطّط التنظيمي للمدينة وعن الآبار الحكومية لا أقلّ من ألف متر، وعن آبار القطاع الخاص أيضاً لا أقل من خمسمائة متر.

«رخصتك الأولى قاربتْ تجهز، قال المهندس رئيس الدائرة، بعدها عليك انتظار دورك حتى تؤجرك المؤسسة إحدى حفاراتها، والدور طويل، جداً طويل». يتمهل المهندس، يهندس نبرته ويوقد

عينيه. «والثانية مرفوضة لأنها لم تستتمّ شروط الترخيص، مساحة أرضك هذه أقل من ثلاثين دونماً، إلا أنني أستطيع تدبير الأمر مع مدير الموارد المائية في دمشق»

من أوراق نجوى:

لا يصدر قرار ترخيص حفر الآبار الخاصة إلا عن مدير الموارد المائية في سوريا، المدير المقيم في العاصمة، العاصمة التي تنظّم توزيع الماء على السكّان، وحدها تأذن بسقاية الناس أو بتعطيشهم.

يتريّث خليل؛ منذ خلقه الله يهوى المعاملات النظامية ويكره المخالفات ويستمتع بالحسابات الدقيقة. بدل أن يدفع للمهندس رشوةً ليمرّر توقيعه على أرضٍ أقل من ثلاثين دونماً سيوسّع أرضه لتصير ثلاثين، ويستخرج عليها رخصةً نظامية. يروح إلى مرهج ليطالبه بسداد الدين الذي أخذه منه يوم خطب حياة ليسقف طابق ابنه ممدوح. خليل يعرف أن مرهج منتوف الجيب وعديم الحيلة، سيقايضه بأن يشتري منه أرضه الموروثة في مرج العكوب مقابل دَينه

«لكنّ أرضي هناك تساوي أكثر من دينك يا خليل!»

«أعطيك الآن باقي ثمنها نقداً لتكسو طابق ابنك. أنت في كل الأحوال لا تستفيد من أرضك. يزرعها أخوتك ويأكلون قمحها ولا يطعمونك، وأنت هنا غارق في الدين».

25

على أرض بادية حمص تندّت صداقة ناجي الزعفراني وخالد المشّيْش. لولا انثيال أحاديثهما تحت نجوم ليلها كالرمل من بين الأصابع المفتوحة، ما كان لكليهما أن يحتمل ثقل سنتين ونصف من الخدمة الإلزامية، ولا تناوب الصديقان على البوح والإصغاء، ولا تدرّب كلٌّ منهما على اكتشاف نفسه حين كان يصغي لصديقه.

سيقَ خالد من قرية ملوح في ريف حماة إلى قطعته العسكرية في البادية، وإليها سيق ناجي من مدينة السويداء. في الرحبة اشتغلا معاً في فحص السيارات العسكرية وإصلاح أعطالها، «لا تقلق يا ناجي، معاً سنتعلّم، كل هذه الآليات تشتغل على مبدأٍ واحد»، يقول خالد لناجي الذي التحق بالخدمة فور تخرّجه من المعهد المتوسط الصناعي، بينما اكتسب خالد خبرةً ممتازةً من عمله مع والده قرب الحفّارات منذ كان طفلاً.

ناجي الذي تعوّد الصمت في بيته، في حارته، في معهده، خرج أمام خالد عن صمته وأفاض. نفث ضيقه مروياتٍ كثيفةً عن ماضيه وماضي أخوته في بيع الشيكلس في بيروت إلى ركوبه الفان مع أهله وشتول الصنوبر والزعتر راحلين عنها إلى مصائر ملتبسةٍ في السويداء.

أخواه الكبيران كمال وجمال توارثا الصبابة في الهوى المستحيل عن أخيهما ناصر. ضرب كمال مواعيد غرامٍ كثيرةً أفسدتها أمه، «أم

كمال» المستنفرة أبداً كمحاربٍ على جبهةٍ ساخنة، حين صار كمال في أتمّ هندامه للقاء الحبيبة توسّلتْ إليه أمه أن يرافقها إلى المطحنة فهي لن تستطيع بمفردها حمل عديلة قمحٍ تزن أربعين كيلو، وفي موعدٍ آخر جاءتها نوبة ربو، ثم تقيّأتْ حين سألها عن رأيها بابنة عمه: «عيناها صغيرتان ورقبتها قصيرة..»، وأخيراً زوّجته بابنة خاله، ولاختصار تكاليف العرس قرّرتْ أن تقيم عرساً واحداً لكمال وجمال الذي اختارتْ له ابنة خالته، جمال الذي دوّخ آذان الحارة بأغنية أم كلثوم (الحب كلّو حبيتو فيك...) انهار فجأةً بعد قرار أمه بتزويجه وأخمد صوت آلة التسجيل قبل أن يحزر الجيران لمن من بناتهم بالذات كان يرسل آهاته.

لم يقع سليمان في الحب، بقي في السويداء حبيس البيت كما كان في بيروت.

سليمان، ثالث أولاد «أم كمال»، ربعُ أعمى. أقرّت الحكومة بعد معاملاتٍ وتقارير طبيةٍ ورشاوى كثيرة بقصر نظره الخلقيّ وأُعفته من خدمة العلم.

سليمان؛ لم تكتشف أمه ضعف عينيه إلا حين دخل المدرسة. لم تجزم إن كان بسبب مرضها بالحميرة أثناء حملها فيه أم قلّة الغذاء أم هي إرادة رب العالمين. كان يرافقها إلى أرضٍ قرب بيتها لتحوّش منها الهندباء والحميض والكزبرة البرية. رأتْ سليمان يركض خلف أمواجٍ هوائيةٍ سحرته بأزيزها. صرخت به: «انتبه للكلب هناك عند السور». توقف عن ركضه وسأل: «أين الكلب؟ أنا لا أراه». حملت كيس حشائشها وركضت إليه. هي التي تُرعب أبناءها من أن يأتيهم الكلب في الليل إذا لم يناموا وقت تريد، وأن يعضهم الكلب

إذا كذبوا، وإذا غافلها أحدهم وأكل من صينيّة الهريسة قبل أن يجتمع حولها أخوته. وسليمان، الصغير والضعيف لا يخشى الآن من الكلب الحقيقي الذي أمامه!

وجدته واقفاً تتداور الدبابير على لسعه وهو يحك بيديه وجهه وعنقه المحمرّ. سألها من جديد: «أين الكلب أنا لا أراه». لم تعد تسمع سوى «أنا لا أراه». بلّلت أصابعها بلعابها ومسحت اللسعات الحمراء على جلده. حملته ملفوفاً بتنورتها الواسعة وعادت إلى البيت. حين استطاعت أخذه إلى المستوصف في يوم مناوبة طبيب العيون، لم يطمئنها، كان يجب أن تأتي به أبكر، قد تعيد له النظارة جزءاً من بصره، لكنّه أبداً لن يستعيده كاملاً. وسط غشاوة دمعها تذكّرت أنه لم يشارك أخوته في لعبة الغميضة، وأنه يراوغها حين تبعث به إلى المطبخ ليجلب لها الصحن الكبير الذي، بالعلامة، عليه وردةٌ حمراء، وأنه يقبع في مكانه أوّل ما يحلّ الليل، ولا يتحرك إلا حين تصحبه إلى فراشه.

النظارة، أيضاً تأخروا في تفصيلها لسليمان إلى أن لم يعد لديه من أعشار بصره سوى اثنين.

نشأ سليمان على الصمت. لا مدرسة، لا أصدقاء، ولا عمل. اشترى أخوته له جهاز تسجيلٍ يُسلّيه طوال النهار بالأغاني الشعبية، وتتذمّر أمه من مترسته في البيت ليل نهار، وتمدح أدب ابنها أمام فضول جاراتها؛ «سليمان أطيب أخوته، برَكة البيت»، وتصبّ لهن المتّي في القرعة الخشب.

***

خالد يصغي بعين وقلب ويتقلّب خياله شتاتاً بين دهاليز بيت آل الزعفراني وبين شبيهاتها وسط آل المشّيْش.

حين يصل إناء الكلام إلى يد خالد يديره إلى والد جدّه، المشّيْش الأول الذي جاء من المغرب منذ ثمانين سنة مخفوراً على يد العسكر العثماني مع آلاف رجالٍ شبكتْهم الحكومة التركية في زردٍ واحدٍ وساقتهم في حملة (سفر برلك) من مستعمراتها في شمال إفريقيا إلى جبهاتها الممتدة حتى بلاد البلقان. حين وصلت الحملة حوضَ العاصي تمكّن المشّيْش من فك قيده والانطلاق هائماً في طريقٍ عكس اتجاه سير الحملة. الخوفُ أنبتَ له جناحين وصبّره على عطشه. وصل قريةً صغيرةً اسمها ملوح، خبّأه أهلها عن عيون العسكر وأسعفوه بالماء.

وبدلاً من أن يعود المشّيْش في رحلةٍ محفوفة بالمخاطر إلى المغرب، بعث يستقدم عائلته إلى ملوح التي آوته خائفاً وعطشاناً وجائعاً، أقام فيها مع عائلته إلى أن مات ودفن فيها، وما دام صار للعائلة ولدانٌ جدد وبيوتٌ ومدفن في هذه الأرض السورية، فقد صارت لهم وطناً.

اشتغل آل المشّيْش بالرعي والزراعة مثل أهالي ملوح إلى أن وصل الأكراد لاستخراج المياه الجوفية من أرضها، ونصبوا حفّاراتهم قرب أرض آل المشّيْش.

***

ليست الحكايات حكراً على البشر، للماء أيضاً، للسيّد الماء، حكايات لا تنضب؛ فمن قوانين الغابة أن الماء أهمّ من الطعام، ومن عادة البشر أن يرتحلوا عن الأرض الجديبة ويحطوا عند عيون الماء.

حين ينضب الماء تحيا حكايات الناس عند أطلاله وتغوى.

في بدايات القرن العشرين كانت أزاميل حفارات (روتاري) تبرم وتحفر أرض الشمال السوري بحثاً عن الماء والنفط، وتستنزف الوقت وأكوام المال وأعمار العاملين. وحلّت مذابح الأتراك بالأرمن عام 1915، ونجا منها رستم الأرمنيّ الظريف مثل كل الأرمن. فرّ رستم جنوباً إلى سوريا، إلى حلب. في رحلة الأهوال للظفر بالحياة لم يقدر أن يحمل معه سوى علوم رأسه. في حلب وجد طريقه إلى جموع المشتغلين بالحفر، وظلّ عقله يشتغل على بديلٍ لاستخراج الماء لا يُكلّف كما هذه الروتاري التي لا تشبع. من عقله نبتتْ على الأرض حفارةٌ حملت اسمه: (رستم). حفارة رستم لا تحفر طبقات الأرض بالبرم مثل حفر الكوسا، بل تدقّها بإزميلٍ من الفولاذ على شكل شارة المرسيدس يصنع بئراً أملس الحواف فلا يحتاج إلى كلفة الكساء.

كُثرٌ هم الأرمن الذين اشتغلوا في أعمال الحفر، انطلقوا مع حفاراتهم من منطقة الراموسة على أطراف حلب إلى كامل الشمال السوريّ يشغلهم شاغلان: نبشُ الماء من بطن الأرض، وحفظ لغتهم من الإبادة. لا تقلقهم ركاكةُ لغتهم العربية، ولا يرتضون عن أرمنيّتهم بديلا. وضيّقت الحكومات السورية الخناق حولهم ليستعربوا وأخفقتْ، فسّرحتْهم من وظائفهم الحكومية، لكنّهم لحقوا قبل تسريح آخر أرمنيٍّ منهم أن ينقلوا علومهم إلى أكراد سوريا الذين توارثوا عنهم مهنة الحفر الشاقة والممتعة والمجزية.

يمّم الأكراد جنوباً يرافقون حفارة (رستم) حتى وصلوا قرية ملوح في ريف حماة. نصبوها قرب أرض آل المشّيْش، وأطعم المشّيْش

الجدُّ الكردَ الحفّارين فستق أشجاره وكرزها ومشمشها، ونادم سهراتهم وأصغى إلى أغانيهم الحزينة وسقاهم الشاي، وحين احتاجوا عمالاً كان أول العاملين معهم. تعلّق الجدّ المشّيْش بهذا الدويّ الذي لا يسكت من فم الحفارة ليل نهار. ذكاءُ الجدّ وانفتاحه مكّناه خلال ستة شهورٍ من ترويض الحفّارة. طربَ الجدّ للمرابح السريعة التي يجنيها عاملُ الحفّارة من دون رأسمال. رأس ماله تعبُه، له ربعُ أرباح الحفارة، قد ينكسر صاحب الحفارة الكرديّ إذا لم يخرج الماء الموعود من عمق الأرض، لكن أجر العامل محفوظ. تلك أعراف مهنة الحفر. كره الجدُّ المشّيْش أعمالَ الزراعة وشغب الماعز وكسل الأغنام، وسعد بالتنقّل من ضفاف بئر إلى ضفافٍ جديدة تأخذه إليها الحفّارة حيث تنتقل، سعدَ الجدّ بحريته وابتعاده عن خنقة الأرض والعائلة وتعثّر المواسم، ولحق به أولاده وتبعتهم باقي عائلات ملوح، كلهم تحولوا إلى حفاري آبار ينقلون أماكن سكنهم خلف الحفارات كالبدو الرحّل.

اشترى الجدّ المشّيْش حفّارةً أعلن بها انتقال مهنة الحفر بالوراثة من الأكراد إلى العرب. وغامر أن يكون مالكها وعاملها. نصب حفارته في خان شيخون في ريف إدلب، على الطريق بين حلب والشام، وحفر الآبار فيها لسنين، وحين واجه استعصاءاتٍ عنيدةً في عمق أرضها لم يقدر على ترويضها وحده، اهتدى بذكائه إلى إعادة الوصال مع العباقرة الأرمن آباء المهنة الأُوَل، أعانه الأرمن في ترميم أو تعديل أوصاف حفارته: «كبّروا لي هذا المسنّن، غيّروا لي هذا الإزميل..»، والأرمن يحنّون لمهنتهم القديمة، ويبعثون حنينهم مشورةً وعوناً واحتراماً للجدّ المشّيْش، وريثِ أفكارهم وكفاءاتهم.

وصار آل المشّيْش رواد الحفر. انطلقوا، ومن خلفهم أهالي ملوح، بحفاراتهم شمالاً شرقاً إلى حلب إلى دير الزور إلى القامشلي، وجنوبا ساروا مع حصادات خان شيخون الشهيرة في رحلة حصادها السنوية إلى ريف دمشق منذ أوائل السبعينات، ومنها جنوباً إلى درعا. ومن سوريا توزعوا ليحفروا الآبار في الأردن والسودان والمغرب

ازدهر شغل الحفارين بين ملاّكي الأراضي درعا الطيّبة في جنوب سوريا، يطلع الماء فيها على عمق ستين أو سبعين متراً، ويعيدون الحفر أعمق كلما نضب ماء البئر أو تهرّأ كساؤه. وفي درعا رساميل كبيرة أوحتْ لأصحابها أن يوسّعوا أملاكهم بشراء أراضي في السويداء مع أواخر القرن العشرين، وأن يجذبوا إليها مزارعين من شمال سوريا وريف دمشق، وأن يبدؤوا حفر الآبار فيها.

في السويداء كان حفر الآبار حكراً على مؤسسات الدولة. استقدمتْ مؤسسة الريّ حفّارين أكراداً لاستخراج الماء الجوفي الحكومي، وفشلت حفاراتهم في اختراق البازلت في بطن الأرض وخسرت مؤسسة الريّ قناطير مال. وجاء آل المشّيْش وغامروا بحفاراتهم العنيدة ووصلوا إلى عمق ما بين 500 و700 متراً خرج من تحتها طوفان ماء.

***

أبو خالد واحدٌ من أبناء المشّيْش الذين جالوا مع حفاراتهم حتى وصلوا السويداء، وأتعبَه طول هذا الترحال. فجأةً حنّ إلى أرض ملوح كأنه لم يبق على وجه الأرض مكانٌ سواها يتسع لوجده.

بأسفٍ باع حفّارته للمستثمر خليل أبو شال المقبل على الدنيا من بابها العريض، وعاد إلى ملوح تتبعه أسرته، بينما خالد ما يزال في النزع الأخير من خدمته الإلزامية، يُعاهد ناجي أن يعودا معاً إلى طيب هواء السويداء حيث ترك أبوه حفّارته:

«ستشتغل معي يا ناجي، مردود عامل الحفّارات عالٍ جداً ولا يحتاج إلى رأسمال. سنطوف في الأرياف من بئرٍ لبئر، نحيا طليقَين بعيداً عن حضن أمك ووصاية أبي، سأعيش حرّاً مثل جدّي.

26

من مدوّنات المدينة السرّيّة،
ترويها الأمهات للبنات الواقعات في الحب المستحيل

كان يا ما كان، منذ سبعين سنة، أو ثمانين، كان للباشا قريـــة وعائلة وفلاحون يرابعون في أرضه، ونساءٌ يشتغلن في كرومـــه وفي قصره.

وكان في القرية صبيّةٌ فلّاحةٌ جاؤوا بها من الحقول لتخـــدم في القصر. في النهار ينكمد قلبها وهي تفرك أواني البيت وتغسل ثيـــاب أهل البيت وتنظّف بيوت خلائهم، وفي الليل تختبئ الصـــبيّة خلـــف المضافة لتسمع أنين الربابة وقصائد الشعر الشعبيّ يُنشدها سُمّار الباشا فيخضرّ قلبها كأوراق الحبق.

لا تعرف الصبية أنها حلوةٌ كفلقة القمر، ليس لها أمٌ تقول لهـــا أنها حلوة. ربيت يتيمةً في بيت خالها الفقير، وحملها خالها إلى القصر لتشبع، ويصير هو خولّيًا على مرابعي القصر. الوحيد الذي قال لهـــا أنها حلوةٌ كان الباشا الصغير ابن الباشا الكبير، وتركها لعذاب الحبّ وعذاب إدراكها أنها حلوةٌ وقليلة البخت، وعـــذاب أن يفترســـها ويتركها حبلى ويجهّز لعرسه على ابنة عمّه. ذوت البنت واسترحمت الباشا الصغير، والباشا الصغير قال لها: لا تخافي سيأتيكِ رسولي هذه

الليلة. وفي الليل جاء خالها الخولّي، أطبق بيده على فمها، وحملها مفرفرةً مكمومة الأنفاس إلى كرمٍ بعيد، وهوى بالشاكوش على رأسها حتى تغطّسَ بالدم، ثم صار كهريس لحمٍ وعظم. لفّها الخال بحرامٍ مهترئ وأنزلها في حفرةٍ عند زاوية الكرم، وردم الحفرة وغرس فوقها شتول صبّار، وترك الشتول وما تحتها تصغي لأصوات ذئابٍ تأتي من خلف الصخور الجاثمة على تخوم القرية منذ الأزل.

لم ينتبه أهل القرية لغياب خادمة القصر الصغيرة الحلوة عن عرس الباشا الصغير. ومضت السنون وطوى الزمن الحكاية كما طوى غيرها، بقي منها شجرات صبارٍ غويت كما لم تغو شجرةٌ في بستان، أعطت أكوازاً تكفي أسرة الباشا وجميع مرابعيه، ومرابعي العالم. حول شجرات الصبار طلع عشبٌ ليس مثله في القرية كلها، عشبٌ شديد الاخضرار كأنّ تحته نبع ماء، ينمو ليقارب طولُه قامةَ رجلٍ فارع، ويغزر كأنه دغلٌ مكتظّ، لا يموت ولا يحترق حتى في شهر كانون الرهيب، حين يحرق الصقيع كل عرقٍ أخضر في بستان الباشا، إلا القطعة التي يفترشها الصبار، تحفظ نفسها خضراء إلى نهاية العالم.

نجوى..

كانت ليلة قهر. سمعتُ اسمي عبر ميكروفون المشفى: «دكتورة نجوى إلى قسم الإسعاف فوراً..». كانت حالة طبٍّ شرعي: (سحر، 35 سنة، جراحٌ قاطعةٌ على المعصمين، في سوابقها المرَضيّة شلل أطفال). استلمتُ ملفّها من طبيب الإسعاف، وأسرعتُ إلى غرفة العمليات أصلّي ألا تكون هي.

وكانت هي، سحر، رفيقتي في الصف وفي الحزب، الموسومة بشلل الأطفال، خريجة علم الاجتماع في كلية الآداب، الحزينة أبداً. انهمكنا في خياطة جراحها تحت التخدير الموضعي وسحر تراقبنا بلا مبالاة، نسألها إن كانتْ تتألّم وتجيبنا بإحباطٍ عن أشياء أخرى. سحر جميلة ورقيقة وحساسة وجذابة ومُحبة وقارئة ممتازة. كانت مليكة الغناء في سهراتنا، تغني لفيروز: (خذني يا حبيبي ع بيت مالو بواب، خذني يا حبيبي ع قمر الغياب..)، وحين تصل إلى: (وصغيرة الأميرة وكبيرة البواب..)؛ كنا نرى العالم كله أبواباً..

كانت سحر أنموذج التمرّد المودرن والحيّ أبداً. لم تُحبط مثلنا حين حوصرنا وضاقتْ بنا السجون والمنافي وارتعبنا من أن يطال الموات حلمنا في دولة القانون والعدالة. نحن لم نفلح في أن نكون أقوياء، حلمنا أن نكون ثقلاً حزبياً وشعبياً يمسك مفاتيح القرار ويقلب موازين السلطة في البلد. سحر كانت أكثرنا حماساً وفعلاً منذ ضمتنا حلقة تنظيم واحدة أيام الجامعة، أكملتْ جامعتها دون رسوب، وحين رُفِضتْ في جميع مسابقات التوظيف في وزارة التربية بعد تخرجها لم تنكفئ ولم تُسلم راية العمل التي بها تؤمن. تطوّعتْ للعمل في مركز المعوقين الذي احتواها صغيرةً وقلّص من عرج قدميها وعبر بها من هودج الأحلام إلى السير بثقةٍ في مسالك خياراتنا الوعرة. لم يخلُ عددٌ من جريدة الحزب من مقال لها، (ستعلو هذه البلاد حين تقودها امرأة). ملأتها الفكرةُ حدّ أن مقالاتها كلها لم تخرج عن إعادة كتابتها بأكثر من طريقة.

كلُّ ما في سحر كان يقول (بنفسي سأبدأ التغيير)!

ممدّدةً على طاولة الإسعاف بدتْ سحر في غاية اليأس لا مجـــرد الإحباط. جراحُ يديها ليستْ عميقة ولا تُهدّد بخطر المـــوت. ولأن الحارس العسكري المرافق لكل إصابات الطب الشرعيّ لـــن يتـــرك سحر فالتةً من رقابته ولو للحظة، حرصنا ألا نكشف أمامـــه أننـــا صديقتان. أخذها العسكريّ والممرّضة بعد خياطة الجروح إلى قســـم المراقبة وعدتُ إلى جولتي المسائية في قسم التوليد. بعد ساعةٍ عـــدت لأطمئن عليها فلم أجدها. ملفّها ملقىً على الطاولة ومكتوبٌ عليـــه بالخط الأحمر: (هربتْ المريضة من المشفى).

حتى منتصف الليل لم تغادر سحر رأسي، كانت مغامرةً كبرى أن تغادر سحر دمشق لتزور أهلها في السويداء وهي غير أكيـــدةٍ أن خبر زواجها برجل من خارج طائفة الدروز لم ينكشف لأهلها بعد.

بعد منتصف الليل عادت سحر جثةً إلى المشفى، ترافقها أمهـــا وأحد أقربائها البعيدين. أمُّها أقربُ إلى الذعر والاستلاب منـــها إلى الحزن. لا تريد الأم سوى إثبات واقعة الوفاة. تمّ تشريح الجثة بحضور القاضي الشرعي الذي دوّن في تقريره أن سبب الوفاة سقوط عفويّ واصطدام بأداةٍ حادة. لم يشر في تقريره إلى آثار الخنق على عنقهـــا ولا إلى أنها ليستْ عذراء. أخذوا الجثة قبل طلوع الفجر، لم يقيمـــوا لها مراسم عزاء، دفنوها سرّا كأية قطةٍ أو جروة في أرض بعيدةٍ عـــن مدافن العائلة.

عشرة أيامٍ وأنا أتصل برفيقنا سعيد الفلسطيني كل يومٍ ولا يردّ، وأخيراً حين ردّ وسألته ما الأمر، أجاب: «عرف أهل ســـحر بـــأمر زواجنا، والباقي تعرفينه».

***

نجوى..

في درس الكيميائي مندلييف ذاك أيام المدرسة، خرجتُ من الصف عمياء الخطى، تغور تحتي بلاطات الصفّ ويغرقني خجلي؛ لن أقوى على النظر في وجه الأستاذ حسين بعد ضحكتي الشنيعة، ولن أردّ على هاتف حياة إن كلّمتني. أكثر ما آلمني كم ستكون خيبة أبي بي.

أبي لا يحبني ضعيفة ولا مائعة، أمام كل عثرة يصحّيني: «ارفعي رأسك، فأنتِ نجوى ابنة المحامي فوزي، لسنا أغنياء ولا أبناء عائلةٍ كبيرة، إجازتي في المحاماة ونزاهتي في مهنتي وأبنائي هم ثروتي». لم ينحبس دمعي وأنا أخبره عما فعلتُ أمام الأستاذ حسين، أن يسمع الخبر مني أهون عليّ من أن تستدعيه الموجهة وأنكمش أمامهما كالصوص في نقعة الماء.

راح أبي معي إلى المدرسة واعتذرتُ من الأستاذ حسين و لم يعد ذلك اليوم نهاية العالم كما تراءى لي لحظة الواقعة. يومها سألني أبي كثيراً عن حياة وعن أهلها، وأجبته أنها ليستْ شريرةً ولا حقودة، وأنها تبدو بنتاً غامضة تحيل كلّ جدٍّ إلى هزل. زمّ أبي حاجبيه: «لماذا لا تتعلمين منها روح المرح، لماذا لا توقظين خامتها الطيبة؟». وبعد صفنةٍ طويلةٍ أكمل: «علينا أن نتعلّم كيف نعامل الآخرين من منظور وعينا لا وعيهم».

مرّةً شكوتُ له مدربة الفتوة: «غولدامائير.. نسميها غولدامائير تزعق بنا عبر الميكروفون: استاارح، استاااعد! يا بهيمة استارح برجلك اليسار، برجلك التي لا تأكلين بها!». ظننته سيضحك لهذي النكتة الواقعيّة، لكنه لم يفعل، أجابني على مهل: «واجهيها، قولي

لها: اليدُ مقدّسةٌ لأنها رمز العمل وللرِجل وظـائف أخـرى، وأننـا كطالباتٍ نقدر على الفهمِ لو خاطبتِ عقولنا».

(وماذا لو عرف أبـي أنني خلعتُ حذاء الفتوة ورقصـتُ في قاعة الصف يوم خطبتْ أرجوان حتى صرتُ طائراً أبـيض مفـرود الجناحين؟ في رقصي وقعتْ نظّارتي والتقطتْها هندُ حتى انتهاء الوصلة و لم أنتبه، صرتُ خفيفةً من أثقالي مثل باقي بنات الصـفّ، أتلـوّى وهنّ حولي، يقبلنني بينهنّ بنتاً عاديّةً ترقص مثلهن ولا تفصل بيننـا غلاظة التفوق، وأنني أحبّ لو أنهن لا يتوقفن عن روي مغامراتهن مع الشباب وأحاديث الماكياج والنكات البذيئة التي يصمتن عنها حـين أحضر).

في الصف العاشر أفهمني ابـي لماذا عليّ ألا أقبل بالانتسـاب إلى الحزب الذي انجرّتْ إليه جميع بنات الصف، وسـندني أبـي حـين طاردني أستاذ القومية الذي يصرّ أنني غبيةٌ رغم شطارتي، ويعدني بالندم إذ أرفض حزباً يؤمّن لي مقعداً في الجامعة ومناصب لا سقف لها بعـد التخرج. ضمّد أبـي رأسي بالشرح حين أوجع كارل ماركس رأسي، وشرح لي الفكرة التي توضّحتْ لاحقاً مع السنين والقراءات أنّ غريـزة القطيع تدفع بالعامة إلى احترام المتنفذين وإجلالهم والاسـتقواء بالتبعيّـة لهم. التابعون أغلبية، قال أبـي، ولهذا يظنون أنفسهم أقوياء.

حين طلبتْ غادة أن أعاونها على إصدار مجلة الحائط، «طبعـاً ستتعاونان» أصرّ أبـي. كنت أظنه لن يقبل لأن غادة بعثيّةٌ مكينـةٌ ولن يظهر في مجلة الحائط سوى اسمها، وكانت لأبـي وجهة نظره: «هي فرصتك للتدرب على العمل الجماعي، وغداً حـين تصـيرين طبيبة ستفرضين اسمك على المدينة كلها».

في الجامعة راح أبـــي إلى بيت هند لتواجه أباها أنها فُصلتْ من الجامعة. كانت هند ضعيفةً في الدراسة لكنها رياضيةً رفيعـــة نالـــتْ بطولة المدينة في ألعاب القوى. خذلتها علاماتها في البكالوريا، فلـــم تؤهلها سوى لكلية الشريعة، وغصبها والدها على التسجيل فيها لأنه يريد ابنةً خريجة جامعةٍ لا معهدٍ متوسط. أذعنتْ هند وداومـــتْ في الكلية، و لم تدفن عشقها للرياضة، كانت على استعدادٍ لتفني حياتهـــا في ليونة التمارين وتطويع الجسد. سجّلت نفسها في السر عن أبيهـــا في المعهد الرياضي. وقسمت وقتها بين الكلية والمعهد، ويوم دخـــل دكتور الشريعة إلى القاعة ورآها سافرةً، قرّعها: «احتشمي كـــي لا يصيبنا منك نجاسة»، و لم تتأخر هند في جوابها: «ولمـــاذا عليـــكَ أن تنظر إلي، لماذا مثلاً لا تدير وجهك عني؟!».

***

مجيء حياة إلى عيادتي جلب معه كل تذكارات المدرسة معهـــا ومع هند وغادة وأرجوان. قد صرتُ طبيبة أشق دربـــي ببطء وثقة خلافاً لما تنبّأ لي أستاذ القومية، وصارتْ غادة معلمةً لطيفـــةً يحبـــها تلاميذها وأماً لطفلٍ جميلٍ كالعافية، لم يتغيّر فيها لا اجتـــهادها ولا قلقها منذ كانت تلك التلميذة المرعوبة من الرسوب أو تغبّر حـــذاء الفتوة. كنا وما نزال مختلفتين في أفكارنا، لكنّ ما جمعنا كان أكثر مما اختلفنا عليه، في المدرسة نسّقنا معاً للمناظرات الثقافيـــة ومجـــلات الحائط وإذاعة المدرسة، تهاتفنا أيام طال انقطاع الكهرباء وتعاهدنا أن نسهر على ضوء الشموع حتى ننهي وظائفنا، واشتكينا معاً، وخلفنا بنات الصف، على الأستاذ صقر الذي أساء في تدريسنا، اعتصمنا في

الباحة ورفضنا الدخول إلى صفنا حتى أجبرنا الإدارة على تغييره.

كانت غادة أجرأ مني حين أنقذتْ حياة من عقاب مدرّبة الفتـــوة، رأتْها تقف فوق رأس حياة، وحياة منبطحةٌ تزحف على أرض الباحـــة عقاباً على عدم ارتداء القميص العسكريّ. كفلتْ غادة للمدربة أن والد حياة سيشتري لها قميصاً عسكرياً حين يستلم مرتبـــه الشـــهريّ. ذاك القميص لم يشتره والد حياة، جمعنا ثمنه من مصروفنا المدرسيّ وســـاومنا صاحب النوفوتيه ليقسّط تسديد ثمنه على شهور ثلاثة. تلـــك كانـــت فكرة غادة، لكنّ أرجوان ساهمتْ في ثمنه أكثر منا.

أرجوان التي غنينا لها في حفل خطوبتها المدرسيّ: (ولفك يللي هويتينو، يالله يالله.. راح وخلّاكي بساعِ.. دخيل الله...)، عادتْ من البرازيل خامدة. لم يكن حبيباً تخلّى عنها، إنما هي التي اختـــارتْ أن تعود مطلّقةً إلى أهلها حين وازنت بين نـــارهم ونـــار عيشـــها في البرازيل.

لمدينتنا ذاكرتها الانتقائية، تُعلن أنها لن تستقبل مطلّقةً لا بمحبـــةٍ ولا بقبولٍ ولا بتفهُّمٍ ولا بغفران، ولن تُشرع لاحتضانها لا بابـــاً ولا شبّاكاً، ولن تتورّع عن تُعييّر امرأةٍ منكوبةٍ بحادثة طلاق بينما تغـــضّ فيه أبصارها عن وقاحة عاراتٍ كثيرة تعربد فيها.

في البرازيل وجدتْ أرجوان نفسها زوجةً لصقر الأعرج. قـــال لها صقر أن زوجته السابقة هجرته بعد حادث سير، ولاحقاً عرفـــت أرجوان أن صقر يكذب، فهذا الرجل المسلول العافيـــة يضـــربها في نوبات غضبه، ولا يخلو بيته الضخم من حـــرّاسٍ ورجـــالٍ غربـــاء يدخلون ويخرجون كل ليل، ويسكرون ويشـــمّون دواءً للصـــداع ويغمزونها أمام زوجها ولا يبالي. غضب زوجهـــا حـــين رفضـــت

ملاطفة الزعيم لعلّ الصفقة القادمة ترسو عليه، رجته أرجوان أن يعتقها ورجاها أن تتفهم حاجته إلى المال، أصرّتْ على رفضها وطردها وأبقى لديه أساورها الذهب وسلسالها الثخين وخواتمها البراقة، عادت إلى أهلها دجاجةً منتوفة.

أدخلتُ حياة إلى غرفة المعاينة فور خروج أم فوّاز الأرملة نصف المجنونة منها. توقّفتْ أم فوّاز عند الباب: «ادعيلي يا دكتورة يطلع ابني من الحبس، ونذر عليّ لروح آكل حزا من ورا الحيطان». ما جاءت أم فوّاز فقط لتطلب مرهماً للالتهاب، جاءتْ إلى مكانٍ لا تُطرد منه كما يطردونها من كل مكان، منذ أخذوا ابنها فوّاز إلى السجن لم تعد تستحمّ، واستحال لون منديل رأسها إلى الرماديّ القذر، يجتنب الناس رائحتها، ويلجأ الجيران إلى دسّ الطعام خلسةً على باب بيتها ويرتعبون من إيوائها أو زيارتها كي لا تلحق بهم شبهة التعاون مع رابطة العمل الشيوعي، كانت جريحةً لا تعرف أين وحيدها ولا لماذا هُجرتْ من بعده ولا لماذا أخذوه وهو الذي لم يبخل على النملات حول البيت بفتات الخبز والسكر وهو الذي لم يسرق و لم يقتل و لم يكذب و لم يرسب في المدرسة ولا في الجامعة، أطفال الحارة وحدهم ما يزالون يلعبون أمام بيتها كما كان فواز يجمعهم ويعينهم على كتابة وظائف المدرسة..

فرحتُ بمجيء حياة، أغبطها على أناقتها، كيف احتالت على ركاكة فستانها بالتطريز على قبّته. ما تزال جميلة، و لم يغادر البريق عينيها حتى في انكسارها بمصائبها مع خليل.

وإن كنا كلنا في بلدنا نعيش سنوات الفقر والكساد وطوابير الخبز والزيت والسمنة والمحارم والاعتقالات السياسية واقتياد الناس

بالعصا إلى مسيرات التأييد للقائد الصامد في وجه الرجعية والصهيونية والامبريالية العالمية وعصابة الإخوان المسلمين العميلة، والناس مرعوبون حتى من تمثال رئيس البلاد الذي يرفع في الفضاء يداً تتوعّد أكثر مما تعد؛ إلا أن واقع حياة اليومي بعيدٌ بما يكفي عن محنة الجميع، فزوجها خليل لم يصب ببلاء السياسة ولا ببلاء الفقر، ومع ذلك لم يرتقِ بحياة أعلى من مرتبة زوجةٍ مستباحة.

جاءتني حياة كتاباً مفتوحاً وعسيراً على القراءة، حياة تطلب مني أن أُسقط حملها دون علم زوجها. تذكرتُ قول أبي: «نتعامل مع الآخرين من منظور وعينا لا وعيهم». كيف لي أن أفهمها أن زوجها وغدٌ ولا أكسر حياتها، كيف لي مساعدة امرأةٍ نفذ صبرها على زوجٍ يقطعها إلى شرائح يلتهمها على مهل، ماذا أقول لامرأةٍ مربوطةٍ إلى زوجها باللقمة والمأوى ويرفع عصا التهديد بالطلاق كلما تقدّمتْ بطلب وظيفة؟ سأضمّها إلى إحدى ورشات النساء المشتغلات بالتطريز في بيوتهن ويكسبن منها مصروف الجيب حين لا خيار آخر.

قبل حملها كانت حياة نوتْ أن تسجّل في دراسةٍ حرّةٍ في الجامعة بعد كلّ هذي السنين، قالتْ أنّها لن تُخبر خليل إلا وقت الامتحانات، وفي هذه لم نختلف. هذي الشرنقة الكثيفة من حولها وحولنا كلنا، نفكّ منها عقدةً فإذا تحته ألف عقدةٍ لن تنحلّ إلا بدأب قبيلة نمل. سآخذ منها اليوم وعداً أن تقرأ كل يومٍ ولو قليلاً، ألّا يموت مشروع الجامعة حتى وإن أخّره الحمل.

27

حين تأكّد حملي الرابع شربتُ منقوع البقدونس المغلي، شربتُ كاسات القرفة، ولم يسقط حملي. ركلتُ بطني بالأثقال، قفزتُ عن طواطي المضافة إلى أرضها ألف مرّة، جرتُ على نفسي بأشغال التنظيف، صعدتُ درجات السيبة المخلخلة لأمسح الغبار المتلبّد على الجدران، مسحتُ الغبار عن صورة خليل فلم تصفُ، عن صورة ولدينا، وعن صورة الرئيس. حين مرّت الممسحةُ الناعمة على صورة سلطان انمسح معها وضوح ألوانها. أنزلتُ السيف من تعليقته، فركتُ قرابه وقبضته حتى استعادا زهو النحاس. بقي تلميع النصل، بحذرٍ شدّدتُ مقبض السيف لأجرّد النصل من قرابه ولا أجرح به أصابعي. انكشفتْ نهاية القبضة مبتورةً ومغمدةً في قرابٍ فارغ. خليل يُزيّن صدر بيته بسيفٍ بلا نصل.

صار حملي الرابع رسناً آخر يُحكم قيادي إلى خليل ويُذيبني خجلاً من وسم خيانتي لطيف ناصر ويُولم للدوالي في ساقيّ ويرفع منسوب فرح أمي (الحَبَل غيّة، والخَلَف مراجل).

أهيم في المدينة أُخفي انتفاخ بطني بفستانٍ بلا خصر، أستلقي في عيادة الدكتورة نجوى، ليتها تقتل حملي بدل أن توبّخني، «سأقتل ضعفك لا جنينك يا حياة، كلّ مرّة تأتين إليّ متأخرة»، تتلو عليّ ملفّ وصاياها برعاية نفسي حتى ألد، وتعدني بعدها بتدبير وسيلةٍ

تلجم رغبة خليل بدزينة صبيان.

كان أبـــي تعب بانتقاء أسماء توقفُ سيل البنات في بيته، سمّـــى أختي الرابعة: اكتمال، ولم نكتمل وسمّى الخامسة ختام، ولم تختـــتم عدّاد بناته سوى السادسة: منتهى. أما خليل فلم يتعب في انتقاء أسماءٍ لأبنائه. سمّى ابنه البكر. «سلطان»، سلطان في أحلام خليـــل هـــو سلطان القائد، اسمه يملأ حلق خليل حين يناديه، وينفش صـــدره إذ يناديه أحد عماله: «معلم بو سلطان استرح أنت وأنا بنفسي سأطفئ الأضواء وأقفل باب الورشة وأعطيك المفاتيح»

في حملي الثاني كان خليل على يقينٍ أنه ولدٌ لا بنـــت. كســـر بصلةً على أنفه واستعان بابن عمه مروان، (هذا الديك مروان يحفظ الأسماء الفخمة)، حفظ منه أسماء كثيرةً علـــى وزن ســـلطان، ظـــلّ يرددها طوال الطريق إلى بيته خوفاً من نسيانها، طال القلم من جيب جاكيته وأمرني: «سجلي عندك: سلمان، عدنان، صفوان، قحطان، غزوان، جدعان، لقمان»، «دوّنها أنت يا خليل»، «اخرسي يا بنت مرهج. أنا أذكى منك ومن أبيكِ وإن كنت لا أجيـــد الكتابـــة». أعرف تتمة الأسطوانة؛ (أنا خليل أبو الذكور وزينة خلـــق الله مـــن مرج العكوب إلى لبيغوس).

كبر الأولاد مع خزنة أبيهم، وكانت أحلامه بهم كبيرة. تعلّـــق بهم كما تعلّق بكروم زيتونه ومياه البئرين والحفّارة والورود الغاويـــة في البيوت البلاستيكية ولاحقاً معامل البلاط. يخيّل لي أنـــه أحـــبّ أولاده مثلما أحبّ أرزاقه وعرف كيف يستميلهم إليه أكثـــر مـــني. يبتهج على أبواب العام الدراسيّ مثلهم، نخرج إلى الســـوق كعائلـــةٍ نموذجيّة، يشبك سلطان يده بذراع أبيه وينساني، أميّز انحناء ظهـــر

خليل وغضون وجهه أكثر حين في لحظة حسرةٍ علنيّةٍ نادرة يلتفت صوبي أنا الماشية خلفه أقود قحطان وأحمل غزوان: «لو أنهم جاؤوني قبل عشرين عاماً!». يبدو خليل أمامنا جدّاً يرافق كنّته لشراء لوازم المدرسة لأولاد ابنه المسافر. في المكتبة ينتقي سلطان الدفاتر وأغلفتها والأقلام والمحّاية والبرّاية وأقلام التلوين، لا يرفض خليل شيئاً مما يطلب سلطان، لكنه يرصد تعابير وجهي ليعرف إن كان ابنه ينتقي ما يلزمه حقاً لهذا الصفّ، فأنا معلّمة الأولاد في البيت، وخليل مموّلهم الرسميّ الذي أحبوه أكثر مني. يشتري لهم كساء المدرسة ويشتري لنفسه جاكيتاً وبنطالاً مثل أولاده. «وأنا يا خليل؛ اشترِ لي هذه الكندرة»، «أنتِ من غير كندرة بكعب عالي شايفة حالك عليّ، أنا اللي بتعب وبشقى ليل نهار». خليل محقٌّ، هو الطائف في المدينة طول النهار يرعى أملاكه ويعود إلى البيت حاملاً كيسه الأسود. يذوب خليل رقّةً وهو ويربط رزم الخمسمائة ليرة أم طربوش بخيطان الملاحف الثخينة، يصفّها ويهدهد لها لتنام فوق أخواتها الناعسات كبنات الدلال، يقفل عليها الخزنة ويعيد علاّقتها إلى رقبته. خليل لا يثق بالبنوك الحكومية، كلما فاضت الكدسات عن خزنته يفرغها في استثمارٍ جديد، لا تُتعبه أشغاله ولا سؤال الأولاد عن دروسهم ولا خلواته بي في غرفة النوم حيث أنا وخزنته. بعد جشأته مني يستثقل النهوض، يخلع علاقة المفتاح من رقبته ويطلب مني فتح الخزنة، يسرح لدقيقتين بنظرة امتنانٍ طويلةٍ إلى بطنها ويخطف المفتاح مني حال عودتي إليه. مراتٍ قليلةً أفلحتُ في سرقة بضعة أوراق. كان هذا قبل أن يكتشف أمرها ويضيف سرقاتي إلى قائمة موبقاتي المحفوظة في رأسه إلى حين الطلب.

في وحدة نهاري أسبّح للرحمن وأرفع غطاء الطنجرة عن قرص اللبن الرائب المستدير كقمرٍ مكتمل، أبيع نصفه لدكان الحارة أو لعمال الورشة الغرباء في البناية الجارة. أُطوف بين جاراتي؛ أقرأ أسئلة عيونهن: «لماذا عليكِ أن تفعلي هذا؟». يشترين مني كيلوين من زيت الزيتون أو ما جمعتُ من الخبز اليابس أو نصف مؤونتنا من سكر التموين، يضرب خليل رأسه بيديه: «ومتى لحقتِ أن تأتي على مؤونة السكر؟!» أجيبه أن أولاده يرمّون السكر حين يشتاقون إلى حلوى. بسرقاتي أشتري شرشفاً لطاولة البيت، وبأجر رسم الورود على صدور الكنزات أشتري لنفسي محارم نسائية أو شلحةً ناعمة. ولا أكفّ عن التفكير من أين آتي ببقية حاجاتي، فقد طفح الكيل بصاحب دكان حارتنا، وزن لي 2 كيلو بطاطا، قلتُ له: «سجّل حسابها في دفترك»، انتزع من يدي الكيس وأفرغه في الصحارة: «زوجك ينام على جبل أرزاقٍ وتشترين كيلو بطاطا بالدّين؟! حلي مشاكلك معه وحلّي عن دكاني»

أخبرتُ خليل حين عاد إلى البيت أنّني لن أحتمل بعد اليوم إهانات جارنا البقّال، ذكّرته أنه أذن لي أن تزورني صديقاتي، وعليّ أن أضيّفهن ما يليق بزوجة رجلٍ غنيٍّ كخليل. تلكّأ خليل قبل أن ينشرح وجهه. سيظلّ على وعده بالسماح لي باستقبالهن إن قبلتُ الذهاب إلى جارنا الورع أستدين منه بضعة آلافٍ تنقصه ليشتري تراكتوراً، وسيعيد خليل المال إلى جارنا حين يستلم غلال الزيتون. «تستدينُ يا خليل؟! وأموالك؟ شرح لي أنّ من عادة الناس أن تستدين من بعضها لكنّ البركةُ تطير من رزمة المليون إذا نقصتْ منها ورقةٌ واحدة.

طرقتُ باب مضافة جارنا، سريعاً فتح البـــاب كأنـــه كـــان ينتظرني، أسرّ لي أنّ قلبه يرحّب بـــي وبما أطلب، فهو وحيدٌ ومحزونٌ منذ هجرت زوجته فراشه، ذكّرني أن صباي يذبل مـــع عجـــوزي المقرف، وأنه سيضمّني ويداوي عطشي بعطشه، فالضمّ ليس حراماً، والبوس ليس حراماً، لا يكون الزنى إلا بولوج الميل في المكحلة، وهو يعرف أن تحت الزنار حرام، وهو يأبى الحرام.

عدتُ بالمال إلى خليل، خطف مني رزمة المال وخرج قبـــل أن ينظر في وجهي.

رحتُ إلى الهاتف أطلب أرجوان. منذ عادتْ أرجـــوان مـــن البرازيل تهافت على خطبتها رجالٌ عجائز أو أرامـــل تركـــتْ لهـــم زوجاتهم قطيع أولاد، ورفضتهم أرجوان، جرّبتْ حظّها مرة ولـــن تعيدها. لم يغصبها أهلها على الزواج، لكنهم لن يسمحوا لها بمشوار إلا برفقة أخيها أو ابنه، من تلقاء نفسها بدأت تفاضل فعـــلاً بـــين عشرة الأرمل وأولاده وبين عيشة مُسوّرة.

سمعتْ أرجوان صوتي على الهاتف مضطرباً في حين بدا مزاجها اليوم غير ميّالٍ إلى أحاديث النكد: «اسمعي هالخبرية يا حياة: جارتنا قالت لأمي أنّ حبة الكستناء تحوي 75 نقطة فيتامين، سمعت المعلومة في الراديو، وأمي لطمت خدّها: يا بو ابراهيم تلطف فينا.». علـــى الهاتف تجادلتُ مع أرجوان عن الشامة المغوية على خد سميرة توفيق؛ هل هي (خلقة الله) أم من تصميم الكوافير؟ واتفقنا أن مشروب الميّ لا يضرّ ولا ينفع وقد يصلح علفاً للحيوانات، ونصحتني أن أغســـل يديّ بالماء ثم أحفّهما بملعقة ستانلس بعد هرم البصل كي لا تعلـــق عليهما رائحته.

ليس لي من أثرثر معه على الهاتف إلا أرجوان، حزينةً تحنو على حزينة، امرأتين تلتصق بهما التعاسة ككاسات الهواء. قليلاً ما أُهاتف غادة، أحيانا لا نجد ما نقوله، تُحدّثني عن شطارة ابنها في المدرسة وتعبها في التدريس وأنا أتلعثم عمّ سأحكي لها. تمضي أيامٌ لا يدق باب البيت أحد. قد يرسل خليلُ ناجي ليأخذ زوادة العمال، يظلّ واقفاً عند البوابة ولا يدخل، خلسةً عن خليل يأتيني ناجي بكتب غادة السمان لأقرأ، تأتيني نجوى بالكتب من مكتبة أبيها ومكتبة فوّاز، قد لا يخرج فواز من السجن ولا يعرف كم علقت أصابعي فوق بصماته على صفار الورق، وكم تبعتُ خطوط قلمه يضيف الحواشي الرقيقة إلى سطور الحكايات الجارفة.

تُغويني الكتبُ بأن أُسلم ظهري للريح وأهرب من خليل، ولا أعرف إلى أين أهرب ولا أجزم إن كنتُ أقوى على فراق أولادي أو على استمالتهم إلى صفي.

أوصي سلطان ألا يدسّ أصبعه في منخاره ويدحبر منه كرات المخاط ويرميها في الهواء، «عيبٌ يا سلطان، هات المحرمة ونظّف أنفك بها، وفي طريقك ارفع صحنك إلى المجلى» سلطان يتطلّع إلى أبيه ليجيب عنه: «اتركيه في حاله وارفعي أنتِ الصحن إلى المجلى، لهذا نحن نقتنيكِ؟». انفردتُ بسلطان ضممتُه وقد صار بطولي: «يا حبيبي قريباً ستروح إلى الجامعة ولن أكون قربك في الشام، تعود أن ترفع قميصك عن الأرض، ولا تترك مريولك مرميّاً في الممرّ، وحين تشرب من الخابية اغسل كيلة الشرب وأعدها إلى مكانها» يرفع سلطان حاجبيه، يُحوِل عينيه، يقرّب رأسه مني، وبين مزاحٍ ظاهرٍ وجدٍّ خفيٍّ ينطحني ويشخّن صوته ويمطّه: «ولماذا نقتنيكِ إذاً؟»

28

(وكـان رب الأسـرة بلبـاس رأسـه الأزرق ووجهـه الأشـقر المتطاول وقد كرّس نفسه لابنـه الصغير الوحيد. هنا لا بد أن أذكر أنني لم أشهد أبداً من يداعب ابنـةً لـه في هذه البلاد).

«فريا ستارك – رسائل من جبل الدروز – 1928»

مات أبـــي على فراشه بعد شهورٍ من رحلة بحثه الخائبة عـــن أخي ممدوح.

قبل دخول قلبه في صمته الكليّ كان موته البطيء بـــدأ منـــذ أضاع ممدوح، منذ كفّ ممدوح عن زيارة البيت واكتفـــى برســـائل اعتذارٍ مقتضبةٍ يشرح فيها انشغاله بمشروع تخرّجه وحاجته إلى مـــالٍ كثيرٍ يشفع له عند دكاترته المشرفين وأبـــي يســـتقرض ويغـــرق في الدّين إلى أن انقطعت رسائل ممدوح وتهرّب رفاقه من هواتف أبـــي وتلعثموا في الجواب حين لجأ إليهم في مكاتبهم ورأى جدرانها تتألّق بشهادات الهندسة.

ركب أبـــي الباص إلى الشام، إلى المدينة الجامعية، ابنه لـــيس مسجّلاً فيها، إلى كليّة الهندسة المدنية، سجلُّه مجمّدٌ عند السنة الثانية،

ولم يره أحدٌ مؤخراً في أروقة الكليّة. أخبروه أنه كان يرتاد المركز الثقافي الفرنسيّ، وفي المركز لم يجد من يجيبه. انكفأ أبي إلى طريق العودة وحيداً ومنكوباً من الشام – العاصمة، ركب الباص، جلس في الباص وجلستْ معه بذرة الموت. قال لنا الرجل الذي جلس قربه في الباص أن النّمَل راح يسري في أصابع يده، يزحف إلى ذراعه إلى أسفل ومنتصف قلبه، أنه بدأ يفكّ أزرار القميص وتطوّع ركاب الباص بإكمال فكّها عنه، وأنّ بصره غاب عند منعطف العبور من حدود العاصمة إلى ريف السويداء، هناك لامس جلده هواءٌ شامتٌ لا يقوى على استنشاقه ولا على نفثه، هواءٌ صحّى حياته المخدّرة طوال خمسٍ وخمسين عاماً قضى نصفها في دائرة (النافعة) موظفاً من الدرجة الثالثة لا يبغي سوى رضى رئيسها وقبض مرتّب آخر الشهر، وقضى نصفها معنا من غير أن نسهر ليلةً واحدةً معاً كأيّة أسرةٍ طبيعية، وقضى أواخرها وهو يفرش بيت المهندس ممدوح ويبحث وأمي له عن عروسٍ فتيّةٍ وجميلة. استوعب أبي أنّه حين يصل سيجد بيتَ ابنه المهندس المختفي خاوياً تضرب في زواياه ريح الغياب. سرى النّمَل إلى زنّار بطنه وانحدر يتفرّع إلى رجليه بالقسط العادل، نَمَلاً خبيثاً ينزل إلى رجله اليمين، ونَمَلاً حاقداً يحتلّ الشِّمال ويخطف منها نسغ الحراك فتهمد الاثنتان على مهلٍ كأنهما شراعان طافيان من مركبٍ غارق. تفشّى النّمَل في لسانه حين حاول النطق بلثغة أبٍ ثاكل: «ضيّعتِ الشامُ ابني»، تأتأ ورجف وفرك عينيه الحمراوين وشهق وارتخت يداه وأطلق الباص صافرة النذير وأسرع كعاصفةٍ نحو المشفى الوطني، ونام أبي ليلتين بقناع الأوكسجين على أنفه وفمه وبكل الأنابيب الممكن وصلها إلى ثقوب في ذراعيه

وفي رقبته، وأعاده الطبيب إلى بيته ليُمضي بين عائلته ومحبيه ما تـــرك له الفالج من أيام أو شهور في لوح عمره.

خشع الرجال القادمون إلى بيت أهلي لهيبة الموت، صـــفنوا في الأفق البعيد، برطموا ومطّوا حروف العلّة في عبارات الموت المحايدة: «دايم الله يا بو ممدوح»، لم يكن حوله صديقٌ يبكيه ويتحسّر: «راح سديق من الطريق». خليل الذي طالما عيّرني أنّ أبـــي نذلٌ وممدوح جبانٌ وسافل، جلس في صدر بيت أهلي يستقبل المعزّين مـــن أهـــل الحارة وأهل مرج العكوب. جمعهم الموت ولم يجمعهم يوماً لا فـــرحٌ ولا مشروع عمل. أتوا يدفعهم رعبهم من تهمة ســـوء المـــؤازرة في النكبات. هم أنفسهم الذين أتوا مرّةً في موت رجاء والثانية في موت أبـــي بينما كان أبـــي ورجاء في حياتهما وحيدَين كمنديلٍ مرمـــيٍّ على مرجةٍ معتمة.

في مأتمك يا أبـــي سأغسل قلبك لا جسدك، في مأتمك ألمسكَ لأختبر لمسةً البنت على يد أبيها، أمسّد بيدي الحارّة يـــدك البـــاردة وأنظر ملء عينيّ إلى عينيك اللتين لم تعودا تخيفـــانني منـــذ انطفأتـــا وأسدل الموت أجفانهما إلى الأبد.

وفي موتك أصارحك: الشام براءٌ من ضياع ابنك.

قم من موتك يا أبـــي لترى أصابعَ رجاء النحيلة تحوم فـــوق جثمانك بتظليلٍ هنا، وغيمةٍ هناك. هل تـــذكر رســـومات رجـــاء يا أبـــي، نبوءاتها التي حفظْتُ في جرابـــي الأحمر والأبيض، حملتـــها معي إلى مرج العكوب، وعدتُ بها إلى بيت خليل المستعمَل، ومـــا بينهما تصفّحتها ألف مرّةٍ ولم أتقن قراءتها. رجـــاء في احتضـــارها رسمتْ وجهك هرماً متجعّداً متقلّصاً من ألمٍ فظيعٍ تشير إليـــه يـــدُك

المطبقةُ على صدرك، ورسمتْ وجهاً مشوّشاً يشبه أخي ممدوح وخلفه عامودٌ طويل مدبّب القمّة، وحول العامود نجومٌ باهتةٌ ورشقات أشعّةٍ تائهة لم تعرف لنفسها دربَ وصول. هل أخبر ملاكُ الموت رجاء أن ممدوح سيرحل إلى باريس وينسى أن يمنحنا وعداً بنجمةٍ باهتة؟

كم صدحتَ يا أبي قبل أن يعقد الشلل لسانك وكم ردّدتْ أمي خلفك: «ربي ابنك بيغنيك، وربي بنتك بتخزيك»، لم يغنك ابنك و لم تخزِك بناتك، وضاع ابنك في باريس، وضاعتْ بناتك في يُتمٍ سبق موتك بكثير، لو تدري يا أبي كم كنا يتيماتٍ في حياتك!

وكنتَ تصدح، ومعك أمي: «ابنك الك، وبنتك لغيرك»، وما كان ابنك لك، وها بناتك الخمس الباقيات بعد موت رجاء يجلسن حول مأتمك بعيونٍ ناشفة، وهناك في المضافة قريباً سيختفي المعزّون ويبقى عناد وحده بلا سندٍ ولا عضيد، آه لو تعرف يا أبي كم كان عناد وحيداً في حياتك، كان عناد لا يزورني ولا يزور عفاف في بيت زوجها العجوز مثل زوجي، كان يجرّح اكتمال وختام ومنتهى ببذيء الكلام لينتقم لنفسه منك، أنت الذي ألف مرةٍ عيّرته بالرخو وأنك لم تنجب ذكراً سوى ممدوح.

هل تذكر يا أبي أننا لم نجتمع في حياتك يوماً على رأي؟ بموتك اتفقنا من غير كلام على أنّه حدثٌ مريحٌ أن تموت. كانت أمي تسخر من خروجك إلى سهراتك الإفراديّة بهندامٍ يصلح لمقابلة وزير، كنتَ تطيل الغياب حتى منتصف الليل، ولا تسألكَ: أين كنت. ونسألها: «أين يروح أبي في سهراته يا أمي»؟

«ريتو يروح ع جهنم.. كل عمره الزلمي مثل الديك.. الله وحده بيعرف وين بيخمخم كل النهار، وبآخر الليل ما إلو إلا يرجع ع الخمّ».

كانت تكوي قمصانك ببغض وتغسل جواربك بقرف وحين ترفوها، تغرز إبرتها في فجوة الجورب كأنها تغرزها في لحمك. كانت تخاف منك وتخاف من تجسّس الجارات على تفاصيل تعاستها، وتخاف من جنسنا ومن كثرتنا (همّ البنات للممات)، (بيت البنات خراب)، وكنتَ تتركها في بيت الخراب وتخرج. ومرضتَ وابتُليتْ بك وبنواحها على ممدوح لا عليك. ومتّ وتحررتْ من الاعتناء بمشلولٍ تكرهه، تنفست الصعداء لأنك لم تعد تتنفس، وأمام الناس ندبتك، قالتْ أنّك كنت صاحب فضلٍ عليها، فمنذ استلمتْ دينها رافقتَها إلى المجلس كل خميس وانتظرتها في البرد والحرّ لترافقها في العودة.

لا تصدّقها يا أبي، فقد جلستُ معها بعد انفضاض العزاء، كنا وحدنا، امرأتين مرمرتهما النكبات حتى أفقدتهما كل ما يخاف المرء فقدانه، ثرثرنا كما تلتقي النساء الغريبات في دكان العطار وتتبادلن الخبرات في صنع مربّى المشمش أو مخلّل الخيار. لم تعد أسرارنا تثير لا خوفاً ولا فضولا، قصّتْ عليّ أمي حلمها في الليلة التي أعقبت زواجي. قالتْ أنّها نامت ليلتها حزينةً بما لا يطاق، ورأتني في المنام أنتزع الأحجار السود عن سور بيتنا وأرجمها بها وكنتَ تتفرّج علينا، راجمةً ومرجومة، بعينيّ بومةٍ هرمة، تقهقه وتشمت بنا كأننا من قوم اليهود. في المنام لم ترَ دمها يسيل. «كان أهون لو سال دمي، رؤية الدم تُبطل نبوءة الأحلام»، قالت أمي.

أفاقت خائفةً من انتقامي منها في الصحو كما كنتُ عدوّها في المنام. نبهها المنام إلى خراب يحفر مسالكه تحت أركان بيتها كسرب نملٍ صغيرٍ ودؤوب، وارتأى الشيخ الذي فسّر لها منامها أنّ عليها استلام دينها والاستغفار من ربّها لأنها أسلمتني لرجلٍ لم أختره. وحين أخبرَتْك قهقهتَ في النهار كما رأتك في منام الليل: «عشنا وشفنا يا ست إم ممدوح. ومَن غيري سيضطرّ لأخذك إلى المجلس مساء الخميس، وإعادتك منه؟»، وقالتْ أنّك كنت تمطرها بشتائمك طوال الطريق من المجلس وإليه.

لو ضيّق الرجل على زوجته أو عرقل اتباعها لطقوس الدين سيرمي الأجاويد عليه الحِرم. المتديّنون والجهّال يخشون حرم الأجاويد. الجهّال يندمجون في إرث الجماعة كما ألفوه من دون تفكيرٍ أو قرار، يُحجمون عن التديّن ما داموا في شبابٍ وسلام، لكنهم متى شاخوا أو ألّمت بهم عداوةٌ خارجية يلوذون إليه من شدّة رعبهم أن يضيعوا خارجه. الجهّال لا يعرفون الكثير عن الطريق إلى الله لكنهم يخشون نقمته إن كفروا بنعمته، يدسّون تحت ثيابهم حجاباتٍ للتيسير، ويلمّون فتات الخبز عن الأرض، يبوسونه ويرفعونه إلى الجبين قبل أن يأكلوه، وتوصي الأم ابنها: «لا تقلب الشحاطة بتغضب وجه الله»، ويضعون كتاب الحكمة فوق المخدّة إن أرّقتهم الكوابيس، وحين يحلفون على كتاب الحكمة لا يشك بصدق أيمانهم أحدٌ حتى وإن كان من أتباع ماركس الملحد. وإن رغب أحد الرجال بشرب الخمرة يشربها في السرّ كي لا تنبذه الجماعة كما تنبذ النساء إن دخّن السجائر أو تزوجن بغريب أو تعلّقن بهوى غريب.

لا تصدّقها يا أبـــي، صدّق كم كرهتْكَ أمي بإخلاصٍ وكـــم بادلْتَها الإخلاص في كُرهك: «أنا الذي سترتكِ من كسادك ومـــن فضيحة شرفك». «فشرتَ. أنا التي صنعتُك. لو لم تســـرق لـــيراتي لكنتَ حتى اليوم بلا بيت».

وما دمتَ متّ يا أبـــي سأخبرك: نحن أولادك نعـــرف أنـــك سرقتَ ليراتها، ثم سرق خليل أرضك ثم سمحت لنفسي أن أسرق مـــن جيب خليل وأن أشحذ من جيوب الغرباء كي أطعم أطفاله، كنـــتُ ابنتكَ بحقٍّ حين أورثتني الوسيلة التي تبرّر الغاية، مثلُكَ خططتُ لنفسي حلالي وحرامي. كتبتُ لنفسي على الورقة في رأسي: النظر مسموح، الاشتهاء مسموح، اللمس مسموح، الطيران إلى الســـماء مســـموح. إهمال بريق العيون كفر، موت الأحلام كفر موت الرغبة كفر.

نم هانئاً يا أبـــي؛ جارتنا التي كنتَ تواعدها لتناغيهـــا تحـــت شجرة المشمش تبكي عليك الآن أكثر من أمي، وتسكب دمعها عنا جميعاً. هل تذكر يوم نصبتُ خيمتي تحت تلك المشمشة؟ كنتُ أصغر من أن أعلم أن لك مواعيداً وسلال مشمش ناضجٍ وشـــهيٍّ وأكثـــر امتلاءً من سِلال خيالي.

هل ترى الآن هذي التركة التي خلّفتها يـــا أبـــــي؟ جارتُنـــا حرمتني لون عينيك، ولم يخجل خليل بانكشاف مشاويركما معاً إلى الدار السرية، وأهل الحارة يتقوّلون عن عرقٍ معطوبٍ في بيت أبـــي ممدوح، وعادوا يستذكرون ابنته التي ماتت بمرضٍ غامض، وابنه الذي تورّط بامرأةٍ فتلتْ عقله وجرّته إلى فرنسا.

بقي أن تعرف أنّ علبة بسكويت عش النحلة والبرازق الرخيصة التي جلبها لك خليل حين أتى يزورك في مرضك خبّأتهـــا أمـــي في

خزانتها، واهتدتْ إليها قافلة النمل الصغير وشبعتْ منـــها قبـــل أن نعرف طعمها.

أظنّ أحلامك طالت النجوم يا أبـــي، ليتك طلتها فينا، ليتـــك كنتَ لنا أباً نمدحه كما تمدح البنات آباءهن.

كيف أخبرك أنّهم دفنوك في مرج العكوب الـــتي تكـــره، وأنّ المدينة التي من أجلها بعتَ ليرات أمي واستعليتَ بسكناها على أهلك في مرج العكوب لم تقشّر عنك لبوس الريف في حياتك، ولم تكـــرم عليك بمساحة قبر بعد موتك.

وما دمتَ متَّ يا أبـــي، سأخبرك أنني أحبك قليلاً ولا أحـــب أمي لا قليلاً ولا كثيراً.

وسأخبرك: ما زلتُ أهان كل ليلةٍ في بيت خليل، وما زالـــتْ آلات التسجيل في ساحة المدينة تهزج:

(ريّان وعالي جبلنا.. قمّة ذراه السويدا..)

29

من مدونات المدينة الشفهية؛ الشديدة السرية
يتناقلها الخاصة فيما بينهم بهمسٍ بليغ..

وكان يا ما كان، منذ خمسين سنة، أحبت «سعيدة» بنتُ المدينة بدوّيًا يرعى أغنام والدها، وشاع خبر غرامها الحرام ثم حملها الحرام. والدها «أبو سعيد» يعرف أنه لن يرفع رأسه بين خلق الله إن لم يقتل ابنته كما تُقطع الأصبع العائبة. يجتمع أبو سعيد بأبنائه ويكلّف ابنه القاصر من بينهم بقتل أخته. لن يُحكَم القاصر سوى ببضعة شهورٍ في سجن الأحداث تمضي سريعًا ويخرج منه بسمعةٍ نظيفةٍ له ولأهله لولد الولد. استهجنتْ أم سعيد:

«لا يا بو سعيد، (خيّ المتّهومة ولا خيّ المقتولة)، الآن يتّهمون سعيدة، فإذا قتلتها ثبّتَ عليها تهمة العيب.. اترك الأمر عليّ..»

استفردت الأم بابنتها في غرفة الكرش، أعطتها خرقةً تعضّها إذا اشتدّ عليها الألم، أدخلت سنارة الحياكة في معبر سعيدة مرّةً اثنتين ثلاثًا عشرًا، وتدفّق الدم، وخرج بعده ماءٌ مدمّى وجنينٌ مثقّب الرأس والبطن ومشيمةٌ باكية.. احتوتِ الأم ابنتها كمصيبةٍ لا حيل لها على كرهها، دفّأتها وغلت لها البهار وأطعمتها الجوز والبيض البلديّ والكبدة نصف المطبوخة وسقتها الحليب ومنقوع الدبس والمردكوش.

ليالي لم يغمض لها جفنٌ حتى تعافت الأم والابنة معاً..

راحتْ الأم بسعيدة إلى الشام، رقعتْ لها بكارتها.

في بيتها تّبلتْ أم سعيد منسف اللزقيات بالحلاوة والسكّر والسمنة البلدية، دعتْ إليه جاراتها وقريباتها. «ادخلي يا بنتُ وسلمي عليهن كأنك بنت أمير العرب، هلّلي لهن وابتسمي بحياءٍ ككل العذارى، ولقّميهنّ زاد أهلك..».

أيامٌ، ودقّ الباب خاطبٌ يطلب القرب، وزُفّتْ إليه سعيدة وسال دم عذريتها قانياً كزهرة الرمّان، وتفحصّته قريبات العريس واستعذن بربّ العالمين من شرّ النوايا العاطلة ومن شرّ تمزيق أعراض البنات..

غرفة الكَرَش؛

يهجرها أهل البيت ويؤوون فيها أراشيف أعمارهم الضائعة، وفيها تلتقي قوافل ذكرياتٍ يابسة، ومنها تُسمع تمتماتُ ماضٍ لا يموت.

على أرضها يئنُّ البلاس العتيق الخشن المجدول من شعر الماعز الأغبر، وعلى حوافها تتمطّى مطاوي الفرشات الآيلة إلى التقاعد حين تهلهلتْ، وتبقّعتْ بخرائط بول الأطفال ونقوش ريلاتهم، وعشّش فساءُ العجائز في صوفها الموهون.

لا تكتمل البيوت العربية إلا بغرفة الكرش. يُخزّنون فيها لغائلة الزمن كلَّ الكراكيب التالفة أو المعطّلة، «ما من غرضٍ ترميه إلا ويقول لك الزمن: هاتِه». ويمر الزمن والكراكيب في مكانها صورةً مجازيّةً من رُهاب الماضي، دمغة الخوف من الفقر.

قد شُفيتْ جيوبٌ كثيرة من الفقر و لم تشفَ النفوس منه.

هنا يخزّنون أكياس القمح، هنا تتفشّى البقع تحت تنكات الزيت، هنا عناقيد بامية، جديلة ثوم، كيس بصل، هنا برميلٌ صدئ، قرمة مكنسةٌ، غازٌ تلفَتْ عيونُه، غسالةٌ بمحرّكٍ خربان، قطرميزات مصدوعة، قناني من كل حجمٍ وشكل، علب دواء فارغة، أكياس خيش، يد منكوشٍ. هنا الصرامي الكاوتشوك المستهلكة حتى آخر رمق، تصطف بالدور لتُباع بقروشٍ فانيةٍ إلى «بياع الشَّدات» الجوال يأتي أول كل شهرٍ من درعا.

وقطة البيت تلد جراءها في زاويةٍ لائذةٍ في غرفة الكرش، وحين تسمع القطة صوتاً من الخارج تقفز لتقعى خلف الباب، لتتبع القادم خطوةً بخطوة لتنشب مخالبها فيه إن جاء يطول قمحه الذي خبّأت صغارها خلف أكياسه.

وفي غرفة الكرش تلاعب القطط الصغيرة بعضها كأطفال البشر، وتتقاتل القطط الكبيرة بحقدٍ مثل كبار البشر.

هنا قد تلتقي امرأتان لتتمّا روي الأسرار أو النمائم، وإلى هنا يلجأ عاشقان ضاقت بوجدهما الأمكنة. وهنا يعثر أحد أفراد البيت على أسرار الجميع فيما هو يبحث عن غرضٍ سريٍّ نسي أين كان خبّأه.

هنا بسكليت ممدوح الطفل الذي أفسده أبوه بالدلال، هنا كوع وقساطل الصوبيا التي صدئتْ حين لم تؤنسها عائلة أبي ممدوح بأحاديث عائلية أقلّ من عاديّة، هنا لكَنُ الغسيل الذي قشّبَ جلدَ عفاف وهي تفرك بناطيل ممدوح، لم يكافئها ممدوح ولو بعناق وداع، هنا فستان رجاء الذي صار فضفاضاً عليها وعلى جنازتها

المختصرة. هنا خوفُ اكتمال وختام ومنتهى من مصيرٍ كمصير عفاف أو حياة. هنا ثياب عناد الطفل الذي لم يأتِ بعده أخٌ أصغر يرث منه ثيابه. هنا دخاشيق البيض الذي جمعتها أم ممدوح وصبّتْ غلالها في جيب بكرها «المهندس» ممدوح الذي هرب إلى فرنسا ليرتاح من صفعة اللّقب المستحيل.

هنا تكبر الأحلام التي لم تكبر، هنا تنطلق الرغبات السجينة، هنا تُقال الكلمات التي لم تُقل، هنا تنطلق الشتائم القذعة من خنقة الحنجرة.

مساكينُ مَن لا يجرؤون على الشتائم في العلن.

***

وهنا ارتمتْ بقايا مستقبلٍ كان ينتظر «المهندس» ممدوح، كراتين فيها عدّاد كهرباءٍ مستقلٍّ للطابق الثاني، لمباتٌ وثريا فخمةٌ لمضافة الطابق الثاني، مغسلةٌ ومرايا، سطول دهانٍ لجدران وسقف الطابق الثاني، هنا تجلس أمّ ممدوح تندب ابنها الحيّ الذي مثل الديك: (بتتعب عليه كل السنة وما بيكفيك عشا ليلة..)، ابنها ثمرتها الناكرة:

مشمش الشامي اللي ربي ببستاني/ أصبح لغيري وكنت أنا اللي جاني

ما كنت ظنّه يا خلق ينساني / من بعد ما صفّى معي بالسلة...

ورجعُ الصدى الذي ما يزال يحمل مزقاً من عبور ممدوح في بيت أهله، وقصاصات أوراقٍ على دفاتر له أعادها رفاقه لأهله متأخرين.

(ما هي الخطايا السبع؟ (الغرور، الحسد، الجشـــع، الشـــهوة، الغضب، الطمع، الكسل)؛ رسم ممدوح خطوطاً تحت ملكاته منها.

ما هي الفضائل السبع؟ (الحكمة، الشجاعة، الاعتدال، العدالة، الايمان، الرجاء، المحبة)؛ رسم ممدوح خطّاً تحت فضيلته الوحيدة.

(لو ارتفع أحدنا لرفع الآخرين معه، كنا نسقط واحدا خلـــف الأخر ونسحب بعضنا نحو الهاوية)

(هكذا أنا على الضفاف، على ضفاف كل شيء، يعيش الناس في الجبال وأنا راكعٌ عند أقدامه، يسبح الناس في البحار وبالكاد أبلّل رجليّ بطرشة ماء)

(في صالة راميتا بكيت في آخر الفيلم الذي جئـــتُ أشـــاهده لأنسى بكائي، تُبكيني القصائد والأغاني العاطفية، أحسد بروســـلي على بطولاته وأجبن عن الدخول في جدالٍ مع...)

(بينما هي معي، هذه الباريسية الحلوة كحبة زبيب، أتوق لكل كتفٍ عارية تتغنّج في أسواق الصالحية)

(أصدّق كذبة نجاحي واقتراب تخرجي، أحاول أن أفضي بهمي إلى أبـــي وأجبن وأحصد الرسوب وأحصد الألم وأحصد الندم).

30

كل حاجات البيت تشتريها النساء ويتركن للرجال مهمّة شـــراء القهوة واللحم. تزدهر دكاكين القهوة بالموظفين في أول الشهر لشـــراء زاد المضافات. عبق القهوة كريمٌ وخيّر؛ نبالةٌ ما، في القهوة المرّة، تتسرّب بالعدوى إلى طباع بائعها وإلى مزاج الرجال الواقفين بالدور بتهـــذيب وهيبة ريثما يشترون خلطةً لن يتساهلوا في ضبط مقاديرها كـــلٌّ كمـــا يهوى، كلٌّ يريد أن تكون قهوته فريدة الطعم وأزكى من قهوة أخيه أو جاره. هذا يريد قهوته محمّصةً حتى الشقار الخفيق وذاك يريـــدها بنيّـــةً محروقة. هذا يريد إضافة الهيل، وذاك يريد المسك أو العنـــبر. ويطـــيعهم البائع في أمزجتهم المتناقضة والمحيّرة والمتعِبة، ولا يغضـــب إن رجحـــتْ كفّة الميزان لصالح المشتري. وينقلب الموظفون ذئاباً في دكاكين اللحـــم، فقد نفذ اللحم من بيوتهم منذ أوائل الشهر الماضي. يتدافعون في طلـــب أوقيةٍ أو نصف كيلو أو حتى كيلو من اللحمة الهبرة، كلـــهم يريـــدونها خالية من الدهن ومن الجلاميط البيضاء. واللحّام ذئبٌ مثلهم لكنه ذئبٌ صامت. لا يتكدّر مزاجه حين تغلبه يده وتقطع ما تيسّر مـــن الذبيحـــة ضارباً عرض الحائط بتوصياتهم التافهة. وتعصاه يدُه حتى في مؤونة بيته، يقتطعها هي الأخرى ناقصة الوزن ومغشوشةً بالجلاميط.

في نصف الحقيقة ونصف الوهم أروح إلى دكان اللحام. عجقةٌ وشوبٌ وزنخة لحمٍ تنفح في المكان قسوةً محسوسةً وغير مرئية. يبـــدو

دخولي استثناءً، بهجةً ثقيلة العيار للزبائن واللحّام. أمدّ يـــدي إليـــه بورقة مائة ليرةٍ سرقتُها من جيب خليل، ويرجف صوتي في طلـــب: «أوقيّة لحم».

يُرخي اللحام ساطوره جانباً، يعصر يدي وهو يعيد إليّ الفكّة: «غيبـــي ساعتين وارجعي». أحسب الفكّة فإذا هي فراطةٌ مجموعها مائة ليرة كاملة.

أراني معه بعد ساعتين خلف دكة الخشب، أراه في قميصٍ مزهّرٍ وبنطالٍ مكويّ، أنفاسه تغمر وجهي، أنفاسه ليست بغيضةً ولا لمسائُه خشنة. يعطيني كيلو لحم هبرةٍ صافية أحملها إلى البيـــت مـــع علبـــة ديودوران «هاواي» غير أصليّ لي وعلبة بسكوتٍ للأولاد. في البيت أخبّئ الليرات المتبقية تحت رفٍّ في نملية المطبخ، وأُودع اللحم في برّاد جارتي لأن برّادي معطّل.

***

في أربعين عمري ملكتُ طقم التفتا الأسود لا هديّةً من خليـــل ولا أعطيةً من ذهبية أو ابنها ممدوح. قد ملّلتُ من انتظار هـــدايا لا تأتي، تلثّمتُ بفوطةٍ سميكةٍ وطرقتْ أبواب البيوت أشحذ المال مـــن حاراتٍ لا أعرف أصحابها؛ «من مال الله سمحة نفس، مات لي ثلاثة أولاد ونذرت أن أذلّ نفسي بالشحاذة من أهل الخير إذا سلّم الله هذا الجنين في بطني». وكم يُرزق الشحاذون!

بطقم الحرير الأسود أروح إلى المصوّر العريق..

انتقى المصوّر موقع الاستوديو على ضفة شارعٍ فرعـــيٍّ مـــبلّطٍ بالحجر، بعيداً عن مركز السوق وقريباً من تخوم المدينة القديمـــة، أراد

لواجهته أن تكون أرشيفاً لذاكرتها عن رجالٍ أحياء، ورجالٍ ماتوا وما يزالون أحياء في ضمير أهلها.

وكما الحارة التي انتقاها المصور تائهةٌ بين هيبة البازلت وخفة الإسمنت، لا تخلو واجهة المصوّر من شوشةٍ ضاربةٍ في ذاكرته؛ فلا يضيره أن يلتقي هتلرُ وماركس ولينين وعلم الحدود الخمسة على جداريّةٍ واحدة، ولا يعتقد أن ثّمة خللاً جماليّاً ما في خليطٍ من صورٍ كبيرةٍ وصغيرة وبالأسود والأبيض وصورٍ مؤطّرةً وأخرى عاريةِ الحواف، وصورٍ بلديّة وأخرى مستوردة.

في صدر الواجهة سلطان باشا الأطرش يلوّح بسيفه من على ظهر فرس، على يمينه صورةٌ لجمال عبد الناصر بشيب فوديه وبسمته الواثقة وعينيه الفرعونيتين وكحلهما الربانّي، وعلى يساره كمال جنبلاط، يجاورهم غيفارا ربما في محاولةٍ لخلق انسجامٍ فكريٍّ بين هؤلاء جميعاً. ثم تأتي تشكيلة من صور مشايخ العقل والمشايخ الصالحين بعمائم بيضاء كالثلج، وصورة ضابطٌ مكتنز بلباسٍ مظليّ ووسامٍ لامعٍ على صدره، وقطارٌ من صور الشهداء، وصور مغتربين تاهوا بين قارّات الأرض، وصورةٌ لوالد المصوّر وجدّه، وصورةٌ لشيخٍ زاهدٍ يكتفي من بهارج الدنيا بالجلوس على طرّاحةٍ مهترئة فوقها مخدّةٌ وكتاب دين؛ هذه يبيع المصوّر منها لا أقلّ من عشر نسخٍ في اليوم. وصورٌ كثيرةٌ لقناطر الحجر، وللصبايا عرائس مهرجان الكرمة والتفاح، وصورةٌ لكروم التفاح والعنب وصورةٌ لسهل قمح، وصورٌ لعرسان في جلوة الزفاف بالزيّ العربي والزي الإفرنجيّ وصورٌ لصبايا صغيراتٍ وشهيات، لم يمانعن من نشر صورهنّ على الواجهة بأيادي تتكّئ على الخدود وأعينٍ ساهمة تنادي العابرين على الطريق الحجر.

هناك، في غرفةٍ معتمةٍ في جوف الاستوديو، لا مكان للذواكر المشوّشة، هنا كاميرا حديثة، وضوء لمبةٍ يكشف وضوح الوجه واستقامة العنق وانتصاب الكتفين، «لا ترمشي عينيك، 3، 2، 1...، يقول المصوّر للزبونة وينقر كبسةً عجلى ويجمد الزمن عند لقطةٍ فريدة تروح إلى بطاقات الهوية أو جوازات السفر أو المعاملات الحكومية، أو يحتفظ بها صاحبها لذكرى شبابٍ سيمحوه الزمن ويظلّ خالداً في الصورة.

في جوف الاستوديو، وتحت ضوء اللمبة الجانبية الخافت، انكشفتْ عني العتمة. اقترب المصور مني، حزيناً كان، أقرب إلى البؤس، وقصيراً كان، لا يصل طوله أعلى من كتفيّ المشدودين كجناحي طائرٍ بريّ، ومتردّداً كان. ربما يختبر نفسه: هل يستطيع حمل امرأةٍ متينة إلى الكنبة، أو ربما يخطّط لابتكار وضعيّةٍ يحتال بها على قصر قامته، ومستعجلاً كان، يخاف أن يدقّ بابه أي زبون غليظٌ يُفسد صيده الحاضر. رمقته بنظراتٍ مستعلية من فوق إلى تحت، (لم يملأ حضورُك عيني، لكنني سأجرّب). لم أنحنِ لأمنحه شفتيّ، ظل صدري تفاحةً عجراء محجوبةً عن مدى يديه، لم يسلْ من صدري لا حليبٌ ولا استجابة، ولا سمحتُ للمصوّر باختبار أستاذيّته في مصّ الحلمة. خرّ المسكين على الأرض كضابطٍ أحالوه إلى التقاعد. ابتسم بمرارٍ لم يمكنه إخفاءه، التقط لي صورةً هي الأجمل، (هي التي ستحطّ في أوانها في محفظة ناصر)، والتقطَ من على الرفّ علبة عطرٍ يهديني إياها، يرشوني بها لأعود إليه بكبرياء أقلّ في جولةٍ قادمة، ولحقتُ أن أسرق قلادة خرزٍ ملوّنٍ أخفيها في عبّي قبل خروجي من عتمة الاستوديو.

في الوهم ألتقي طبيباً في عيادته، طبيبٌ بعينين ملونتين وكآبةٍ لم تنشله منها لا الوسامة ولا الغنى ولا هيبة المهنة. أختـــرع لجســـدي أوجاعاً عليه أن يداويها. يتغزّل الطبيب بعافيتي، بشبابـــي، بطقمـــي الاحتفالي الأسود، ولا يبتلع شتيمته لزوجي الذي لا يشـــيلني علـــى كفوف الراحة.

***

أتقلّب في أرقي، أرى نفسي فرسا اسيرة خلف بوابةٍ بطول زنجـــي عملاق، تخبط بقوائمها الأربعة معاً أرض الإســـطبل، تـــرفس حديـــد البوابة، تخلعه، تركض كالريح المجنونة. أفيق وحولي شخير خليل.

كيف كانت تنام زين المحضر، كيف تنام نساء الأرض؟

منذ بلغتُ الأربعين طفا عطشي واضطرابـــي.

بعضُ الليالي تُبكيني في الحمّام اعتذاراً منك يا ناصر، قد صرتُ آلَفُ نشوةً تأتي من حينٍ لحين على غير انتظار، أراني أرتفع سمـــاءين اثنتين وأهبط منهما لأشقى، لأبغض نفسي كما أبغض خليل، لأرجو أن يموت أحدنا بالذبحة القلبية.

وفي باقي الليالي؛ كيف لي أن أنام وخليل يتركني على شـــفير هياجي ويشخر؟ يتركني فماً تائقاً للتقبيل ونفساً تشـــتهي الخطايـــا. أغتسل بالماء الساخن ولا يسكن دبيب النحل في عروقي.

هل كان مرهج يكافئ ذهبية على غسل رجليه بإرواء قلبها في طوى الليل؟

أنا في مشمش أربعيني وخليل في ستينه، خريفـــه العطشـــان، يداوي ضعف انتصابه بالخيالات. يعطي غزوان الصغير عشر لـــيراتٍ

ليخبره متى ستأتي أرجوان لزيارتي، يتنصّت غزوان على مكالمة الهاتف بسعادة الطفل الذي وجد نفسه فجأةً بطلاً، في موعد أرجوان يدخل خليل البيت ليأخذ زوادة العمال بنفسه. «ناجي اليوم مريض» يقول لي. يحتضن يد أرجوان بحرارة ثم يطلبني إلى الحمّام، في الحمّام يفرغ فيّ ويتأوّه: «آه لو أنك أرجوان، آه لو أن تكويرتها البيضاء السمينة تحت حرث يديّ، آه لو أنها هي التي أنطحها الآن»

في أربعيني وستينه رجاني خليل وبكى وتشفّيت. لا يرجو خليل أحداً إلا حين تسحقه الرغائب، ولا يرجو إلا حين لا تنمو خزنته، إلا حين تعجبه امرأةٌ لن يكنّ قبل نوالها. يعطيني خليل كاميرا، يريد مني أن أصوّر عضو جارتنا كيف يبدو من تحت البيجاما، ولأصوّر له طفلةً عارية في الحمام، أو لو أناديها وألاعبها وهو يتفرج علينا من خلف الستارة، لتفيق صبوته عليها في ليلٍ ليس قربه سواي وأنا أحمل له الصور. «استحِ على شيبتك يا خليل واقربني أنا زوجتك كما يفعل خلق الله» ويجعر خليل كبغلٍ عجوز: «يا ملعونة افهمي، العلّة فيكِ لا فيّ، في شبابي لم أكن أصل سمائي إلا عبر سردابك الخلفي، كان يمتصّني كأنه حلق طفلٍ رضيع بلا أسنان، ما كنتُ لأستبدل متعتي فيه بالتفكير في إرضائك. الآن لم يعد هذا الملعون ينتصب الا في الحرام ولا أستلذّ إلا بخيال اثنين يتعاشران بالحرام»

هل لوصال الغرباء طعمُ ارتكاب الخطايا الجميلة، طعم الحرام اللذيذ كالخمر، كالحشيش، كالأكل حتى التخمة، كاشتهاء زوجة الجار وزوج الجارة، كالكلام البذيء في عشرةٍ عابرة، كخيانة الأوطان وأقرب الأصدقاء، ثم بكاء الندم بعد نوالها، ثم اشتهاء الخطيئة في الصباح التالي بعزمٍ كعزم الشوق يشتدّ ولا يضعف؟

في تيه الليل يشتد خوفي فأقوم لأقبّل المصحف وأضمه إلى صدري ولا ينفذ إليّ غفرانه.

يقول المشايخ في الشروح أن ديننا ضيّق، وأن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، فإن نوى خيراً فله أجر نيته وإن لم ينجزها، وإن نوى شرّاً فليس عليه إثم شرّه ما لم يرتكبه، إنما يضيق الشرع في أمر الزنى؛ فإذا اتصل الرجل بغير امرأته فهي طالق وإذا اتصلت بغيره فهي طالق.

أكتب على الورقة في رأسي: هذي المدينة لي، هواؤها، ماؤها، شوارعها، أشجار الكينا والعنبر، أحجار المباني القديمة، طيف ناصر لي، صديقاتي لي، أهلي ليسوا لي، بيت خليل ليس لي، خليل ليس لي، أولادي بين بين، وأنا لمن أنا؟

أتمرّن كلّ يومٍ على النظر إلى حياتي كأني أحيا خارجها، أُدرّب روحي على الطيران في صحوها وفي منامها، ولا تُطفئ مغامراتُ الوهم جمري، ولا أصل ولا أضيع ولا أرتاح، وتختنق شتائمي ولا يصاحبني في وحدتي سوى قرحةُ المعدة.

وحده طيف ناصر حاضر، يبتسم بسماحٍ لطيشي في لقاء وديع الغابر، وبغيرةٍ لذكرى متعتي تحت شجرة المشمش، يصدّ سكاكين رجال الوهم عن وجهي، ويُبعد سكاكين خليل عن ظهري.

ناصر لم يعد يأتيني جسداً، غابت منمنمات جنوننا في غرفة الكرش ذات مراهقةٍ بعيدة، بقيتْ منها عبارةٌ حارةٌ «حياتي انتبهي لمدرستك»، كأنه يوصيني: «حياتي انتبهي لنفسك». ناصر الإنسان الذي أرادني لنفسي، فقط لنفسي، يُدني لي صدره، يعيرني زنده أتوسّده حتى الفجر.

31

من خاصرتها، شطر الشارعُ المحوريُّ السويداء إلى نصفين: شرقيٍّ مرتفعٍ ومدلّل وغربيّ منخفضٍ ومنسيّ.

في أواخر الثمانينات اكتمل المحوري شرياناً رئيساً يربط شمال المدينة بجنوبها، ويعتلي جسرَ الرئيس في وسطها.

خطاباتُ حفل التدشين تغنّتْ بالمحوريّ وجسره كأسطورةٍ حداثيةٍ تؤرّخ لمنظومة سيرٍ جديدة. كرجتْ دواليبُ السيارات باسترخاءٍ على الطريق العريض المستقيم المفروش بإسفلتٍ ناعم، استراح السائقون من الالتفاف عبر الطرق القديمة الضيقة والمعوجّة، وارتاح المشاةُ من مشقّة عبور التضاريس الوعرة.

وخطابات التدشين لم تعتذر عن المحوريّ الذي هشّم وجهَ المدينة القديم وطمسَ شامات فخرها، و لم تعتذر عن الآثار التي نُبشتْ من تحته ونُهبتْ، وطُمِر منها ما لا يمكن اقتلاعه.

والجسرُ أكمل رفعَ السدّ بين غرب المدينة المُهان بالإهمال، وشرقِها الآخذ في البرجزة والتعالي على غربها. والجسر رفع أسعارَ العقارات حول ضفتيّه، وباعها أو استثمرها مالكوها، أبناءُ المدينة الأصيلون، واغتنوا وازدادوا علاءً على الريفيين الذين اكتفوا بمتابعة العيش على حافة المدينة راضين بما قسم الله لهم والحكومة.

والجسر صار مأوى المشردين الذين لفظهم (انفتاح) حقبة التسعينات. كانت العائلات قبل السبعينات تكفل فقراءها، لم يكن في المدينة كلها أكثر من مشرّدَين أو ثلاثة، تكاثروا حتى التسعينات إلى عشراتٍ تائهين، نهارُهم في الشوارع وليلُهم تحت الجسر.

***

عاش سالم الأخوث سنواته الأخيرة تحت الجسر، وتحت الجسر مات. افتقده روّاد السوق قبل أن يقرؤوا خبر وفاته في جريدة «صوت الجبل». لم تُخصّص الجريدة من قبل بين عناوينها عاموداً للوفيّات، ولا كان سالم الأخوث زعيم عائلةٍ يُنعى في جريدة، ولا مناضلاً تطفو مآثره بعد موته. كان سالم «الأخوث» وحده ظاهرة.

كتب المحرّر: (مات سالم قبل أن يعتذر منه محبوه عن لقب «الأخوث»، موتُ سالم نقصانٌ صغيرٌ في صباحات المدينة، خفوتٌ للضوضاء الوحيدة اللطيفة على مدار ساحة السير، فقدٌ للوحةٍ ناطقةٍ دأب روّادُ السوق والباعة وشرطيّ السير والموظفون والعابرون الفضوليون على المرور قربها بحياد، وانتبهوا كم كانت بالغة اللطف حين غيابها. مات سالم الذي رابط قرب مدرسة البنات كحارسٍ على ثغر، سكب غزله الرفيع على مسمع صباياها، ولم يرشق إحداهنّ بنظرةٍ ذئبيةٍ أو سافلة. انطوتْ صفحةُ سالم الأخوث، أُضيفتْ إلى محفوظات المدينة مثل «ميّة التُربة» مثل «بِركة الحجّ»، مثل السويداء العتيقة).

في حياته، كان مرهج أبو شال يصطبح بسالم في طريقه إلى دائرة المواصلات، ولا يَخلص من ضيقٍ يكبس قلبه كلما رأى هذا الأخوث النكرة. وذهبية، أم ممدوح التي لم يتجاوز عدد مشاويرها إلى السوق عددَ أولادها، أنصتَتْ لصوته الآتي من زاوية الساحة كأنه يدندن في أذنها أو يتمشّى في صدرها:

(نقارع أقرانَ الوغى فنقدّها/ ويقدّنا في السلم لحظُ الكواعب

وليستْ سهامُ الحرب تُفني نفوسنا/ ولكن سهامٌ فُوِّقَتْ بالحواجب)

وأرجوان حملتْ معها إلى البرازيل دفء كفّه، وفي البرازيل بحثتْ عن نرجسٍ أبيض أوصاها سالم أن تشمّه كلما اعتراها ضيق.

سالم الاخوث الذي لم يكن اسمه سالم، والذي لم يكن أخوث، والذي أنكرته قريتُه واكتراه أهلُها عتالاً وجمّالاً وحامل ماءٍ إلى البيوت، وفي جولاته جمع أوراق الجرائد والكتب المصفرّة ليُلوّن ليله بقراءتها، وآلمه رأسه، وطالتْ أمُّه الأرملةُ خمس ليراتٍ دسّها أهلُ الخير تحت الفراش في غرفتها المنزوية وأخذت ابنها إلى الشيخ ليشفي آلام رأسه بالعصبة والمفتاح. كبر الفتى وتآلفَ مع ألم راسه، وعلى غفلةٍ عشق، وسالتْ كلماتُ الحب سواقي من فمه إلى أذن الحبيبة، ولم يعرف لماذا هاجمه ملثمون في منتصف الليل، دقوا باب غرفته بخفوت، بمشقّةٍ فتح الباب، لثامهم ضغط على رأسه كعصبة من مسامير، سألهم «من أنتم؟»، كمّموا فمه وجرّوه إلى خارج القرية، عرفهم من أصواتهم، أراد أن يسألهم: «لماذا...»، بأياديهم الستة حاوطوا عنقه، ضربوه على رأسه، وضعوا في فمه خرقةً رطبةً لها رائحة الديمون السامّ، رموه على طريق المدينة: «يا بدّوق. انقلع من بلدنا. ارجع من الطريق اللي جابك».

هنا وصلةٌ ناقصةٌ في حكاية الشاب الذي لم يقتله لا السـمُّ ولا الضرب على رأسه ولا الأسى؛ ولم يُعرَف كم لبـث مرميّـاً علـى الطريق، وأيُّ فاعل خيرٍ حمله وسار به في دربٍ غامضٍ انتهى به إلى الجامع الأمويّ. هناك أفاق على كهرباء تسري في أوصـاله، تعقـد لسانه عن صراخٍ أو نأمةٍ أو آهة، لا يعرف مَن هو ولا أين هو، رأى رجلاً أبيضَ اللحية يُدني من فمه طاسة ماء ويتمتم له: أنت في أمان. سأله الشيخُ: من أنت؟ رفع الشاب إليه عينين مريضتين وحرن لسانه عن السباحة في فمه. أبدلوا له ثيابه، كان في ثوبـه القـديم وثيقـةٌ ملفوفةً بكيس نايلون، «هل هذه الوثيقة لك؟» سأله الشيخ، حـدّق الشاب فيها كأنه ينظر في فراغ، لم ترمش لها عينه ولم ينشرح لهـا وجهه. «إذا نتخيّر لك اسماً، سنناديك «سالم» فقد سلّمك الله حتى وصلتَ إلينا».

تعافى جسدُ سالم من رضوضه، شغل نفسه بحمل دلاء المـاء إلى الغرف، تعلّم الوضوء والصلاة والإنصات. صامتاً صـلّى، وصـامتاً أصغى إلى الواعظين، جفل عند كلمة (الوعيد)، ذهبتْ عنه الجفلـة حين سمع: (سواقي من لبن وعسل)، توقّد عند كلمة (حبّ). لم يجزم أهل الجامع إن كان سالم أخرس أم غاوي صمتٍ وقراءة. حمل سالم كتابه وجلس إلى أحد أعمدة الرخام الستة، ذاكر رافعـاً عينيـه إلى تيجان الحجر على عواميد الرخام، قام ومشى يميناً حتى مرقد يوحنّـا المعمدان، اتكّأ عند سياجه الحديدي المزخرف والمطلي بلون الذهب يتأمّل الزائرين. غادره إلى صحن الجامع، مشى أماماً حتى مرقد الإمام الحسين، لماذا يبكي الزائرون هنا ولا يبكون هناك. خرج إلى بسطات الكتب المستعملة في المسكيّة قرب الجامع، بالإشارة أومأ إلى الكتـب

التالفة الأوراق، ناوله البائع إياها هبات. كتابٌ، كتاب، كتـــب... سنةٌ سنتان، سنوات، وسالم خفيفٌ من التذكارات وأحزانها، ســـابحٌ في أثيرٍ لا يربطه بماضٍ ولا يُؤرّقه بمستقبل، يحشو الفـــراغ في رأســـه بالكتب؛ قرآن، أناجيل، تفاسير، شذرات بلاغـــة، مرويّـــاتٌ عـــن الحب والحروب والثارات. تخاصمت الكتب في رأســـه أكثـــر ممـــا ائتلفتْ، طرقتْ رأسه كعصبةٍ من مسامير إلى أن أخرجتْ لسانَه عن صمته.

في ليلةٍ يضيئها قمر دمشق هبّ سالم من فرشته كامل الصحو، رشق وجهه بالماء وانطلق بين مشيٍ وركضٍ وهذيانٍ إلى جناح الشيخ المقيم في حرم الجامع: «نادِ الإمام لأقصّ عليه رؤياي».

حضر الإمام صامتاً حتى يرى ما يكون، وساكنو الجامع كلهم حضروا، يقلّبون، بكامل صحوهم، ما سينجلي عن مفاجأة هذا الليل بسالم الأخرس.

بإلحاحِ مَن عاد إليه الصوت بعد غياب سنين، وبثقة مَن أبلـــى عمره في مهنة الكلام، خطب سالم أمام المحراب عن هسيسٍ أتاه من المرقدين الجارين، عن رؤيته رأسَ الحسين المقطوع يشـــكو لجـــاره وحشتَه، ورأس المعمدان يجيبه حزيناً كعاشقٍ مهجور:

«يا جاري، يا رأس المعمدان، أنا لا أنام. لو أعادوني إلى كربلاء لنمتُ، لو أعادوني إلى مكّة لنمتُ، لو تُرِك القطا لنام».

«يا جاري يا رأس الحسين، كلانا لا ننام، لا ينام وحيـــدان لم يعد لهما من فسيح الأرض سوى مرقد رأسين»

من جورة حزنه، رفع المعمدان رأسه المقطـــوف واسترســـل في روي حكايته، كأنه منذ ألفي عامٍ ينتظر مَن يسمعه:

«شبيهان نحن يا صاحبـــي، يا حسين، كلانا أحببنا الله وكلانا خانه أهلُه. أنا يحيى، يوحنا الذي أحبّ الله، رأيتُه على صورة امـــرأةٍ متينةٍ وطويلة كالسروة الجبلية. كنتُ وحيد أمي، وكان الملـــك رأى في منامه أن طفلاً فقيراً سيرث مملكته فأطلق جنده ليقتلوا كل طفـــلٍ فيها. ألبستني أمي ثوباً من وبر الجِمال وشدّتْ على وسطي حـــزام جلدٍ وهربتْ بـــي. تاهتْ فانشقّ لنا شعبُ الجبل واختبأنا. جفّـــف الخوفُ حليبها فدرّبتني على أكل الجراد والعسل، بردتُ فجمعتْ من أجلي عيدانَ الشجر. وضعتِ الأعواد الصغيرة تحت الكبيرة وأضرمت فيها النار. سألتُها: «يا أمّاه، لمـــاذا لا تشـــعلين النـــار في الأعـــواد الكبيرة»؟ قالت: «الصغيرة تشعل أسرع». ركضتُ إلى قمّة جبـــل يهوذا وصرختُ: «يا ويلتا، أنا الصغير، يا ويلتا من النار»، أوقفـــتني البدويةَ ذاتُ الخمار، عرفتُها، الأنبياء مكشوفٌ على بصائرهم، هـــي الأميرة إربل بنت الملك تتنكّر بزيّ بدوية. إربل، أجملُ بنات الأرض، نادتني: «أريدكَ يا يوحنا». سقط قلبـــي عنـــد ركـــبتيّ، لا يـــوح الأنبياء بعصيان قلوبهم. صاح النبـــي فيّ: «يا ويلتاه من جبل النيران وجبّ السكران ووادي الأحزان». صرختي أبكتْ أغنـــام البدويـــة وأبكتْ أمي. أمرني ربّي أن أتبع أمي وحدها، لا يُغضِـــب الأنبيـــاء أمهاتهم. أخذتني أمي إلى الصباغ ليعلّمني مهنته. لحقتْ بـــي البنـــتُ البدويّة: «أريدك يا يوحنا»، أجبتها: «غوري، لا أطيقكِ». كذبتُ عليها لأرضي ربـــي. رأيتُ في عينيها نيّة قتلي، ناولتْني ثوباً أبـــيض لأصبغه لها بالأسود، غمستُ ثوبها في الخابية الســـوداء، صـــرختْ: «ويلكَ أفسدتَ ثوبـــي، كنتُ أريده أحمر». ضربني الصباغ: «قـــد أفسدتَ عملي». طمأنتُه: «لا تعجل يا أبتي. سأخدم كل زبونٍ بمـــا

يرضيه». كنتُ أعرف أن الله شفيعي ما دمتُ أرمي قلبي كحبّة زبيبٍ يابسة، خرجَ ثوبُها من الخابية السوداء أحمر اللون. جنّتْ البنت، «لم يعجبني، أريده أخضر». غمستُ ثوبها في الخابية السوداء فخرج أخضر. قالت: لم يعجبني. أعده أبيض كما كان. خرج ثوبها من الخابية السوداء أبيض. جنّت البنتُ، قالت للصبّاغ: «أجيرك هذا ساحرٌ شرّير». طردني الصبّاغ وبعثتْ البنتُ خلفي سبعة جنودٍ رُماةً مهرة. ليتهم اصطادوني وأسالوا دمي ساخناً بالحبّ، مرّت سهامهم على يميني وعلى شمالي وأخطأتني. نزلتُ إلى مسال النهر، غمرتُ نفسي فيه لأبرأ، ليشهد الناس كيف تُغسَل خطايا القلوب، صار اسمي المعمدان. لم أشرب الخمر ولم أسكر ولم أتزوّج ولم أنس إربل، حوّلني الله وحياً يجيء في منام النساء ويفقن منه هانئات. إلا إربل بنت الملك؛ تراني في منامها أقودها للاغتسال في ماء النهر، وإربل لا تريد الاغتسال، تريدني أنا، سارق نومها وهنائها، شكتني إلى أمها الملكة فلم أهربْ وقد كان بوسعي، كان وصالُ ابنتها أقصى رجائي، وكانتْ يد الله فوقي تريدني نبيًّا لا عاشقًا. حبستني الملكة إلى أن يعود زوجها الملك من الحج وترتّب لي ميتةً تليق بعصيان الفقير لأمر الملكة. بعث الملك رسولاً لزوجته أنه عائدٌ من الحج، نادت ابنتها: «يا حبيبة أمك اجمعي أجمل بنات مملكتنا واحملن المشاعل ولاقين بها والدك الملك العظيم». عانق الملك ابنته: «ما رأيتُ ولا تخيّلتُ ما يسُرّ قلبي مثل استقبالك البهيّ يا إربل، تمنّي ما شئتِ مني حتى لو كان نصف مملكتي». تأنّت البنتُ، قالت: «أروح إلى أمي الملكة العظيمة أسألُها». «اطلبي منه رأس يوحنا المعمدان على طبقٍ من ذهب». ما كان طلبَ الملكة وحدها، كان رجائي أنا أيضاً، تعبتُ

من عذابات الأنبياء العاشقين، أهديتُ السّيافَ رأسي ليقطفه ويعطيه لإربل، قلتُ سيدفأ جبيني بدمعتها وخدي بلمستها قبل أن يبردا بفعل الموت، قلتُ بموتي سأقوى على النظر في عينيها بلا خوفٍ من عقاب ربـــي ولا اضطرارٍ للاغتسال من حرارة نظرتي بماء النـــهر، قلـــتُ سترى إربل عينّي بعد موتي وتفهم.

جاؤوها برأسي على طبق الذهب، ببرودٍ تناولتْه، لم تنظر إربل إلى عينيّ، بحيادٍ سارتْ برأسي إلى أمها وسرتُ في نعيمـــي بامتـــداد يديها وسادةً لرأسي المقطوف وإن كان يفصل بينهما طبق الـــذهب. لم تنبسْ إربلُ حين غرستْ أمَّها الملكة الأبر في لساني وأسلمتْ رأسي إلى الجند يطوفون به في أسواق الشام. فار الدم من ثقوب الأبـــر في لساني ودوّخ الآلاف وصرع الآلاف وجنّن الالاف، دمـــي أهلـــكَ سبعين ألف نفساً من أهل الشام.

يا جاري يا حسين، أنا شبيهك، لا أنام. يُسهّدني وزرُ ســـبعين ألف نفساً ما كانت لتهلك لو نظرت إربل في عيني، لو لم تغرس أمُّها في لساني الأبر».

ارتمى سالم عند ذيل حكاية المعمدان كحطبةٍ هالكةٍ سكرانةٍ عن الدنيا، رشّوا عليه الماء، أفاق كامل الصحو يُكمل رويَ رؤياه.

«يا صاحبـــي لو تُرِك القطا لنام.

يا جاري يا شبيهي يا معمدان، كلانا أحببنا الله وكلانـــا خانـــه أهلُه. على قدميّ مشيتُ إلى ميتتي لأفدي صـــحباً خـــانوني ونســـاءً أحببتهنّ. ما كان همّي أن أصبح سيّد شباب الجنّة، كنتُ أبغـــي لـــو أستريح من تركة أبـــي. خائفاً كنتُ، ناديتهم فلم يخرج معي من مكة إلى الكوفة سوى ثمانين رجلاً، وخرجتْ معي نسائي كلهنّ وأطفالي.

ما كنتُ لأتركهنّ وحيداتٍ في مكة، أحبّ هؤلاء النسوة العاليات. على الطريق إلى الكوفة حذّرني الفرزدق: «أرض الكوفة غدّارة، قلوب الناس فيها معك وسيوفهم عليك»، لكنني سرتُ، لا أبغي حياةً ذليلة، الحياة مع الذل موت. لاقانا جيشُ يزيد، أجبرني أن أخيّم بصحبي ونسائي في كربلاء، نصبتُ خبائي أمام خبائهن لأتلقّى عنهن رماح يزيد. قبل المعركة منع جيشُه الماء عني وعنهنّ، حاصرونا بالعطش. راح أخي العباس إلى الفرات لجلب الماء، قتلوه قبل أن يشرب. صحتُ بأعدائي: «لا سقاكم الله يوم العطش». رأيتُ نفسي شهيداً قبل المعركة، بأناةٍ مزّقتُ سروالي اليمانيّ وسراويل أتباعي قبل بدء القتال كي لا يغنمها قاتلي بعد موتي. حاربتُ كمن يقاتل في المنام، كنتُ خائفاً على نسائي، صحتُ برجالي أدعوهم إلى صلاة الخوف. عليّ الأصغر، ابني، يُنازع من العطش، رفعتُه على ظهر فرسي ليراه جندُ يزيد ويسقوه. سقاه جندُ يزيد برمح. كأنّني لم أكن في معركة، كنتُ أنتظر أن تيبس اليد التي تمتدّ ألّي من تلقاء نفسها، أو تتلقّى الأرض دمي وتطلعه لنسائي ماءً ليشربن. نسائي طلبن مني أن يقاتلن معي، لم أقبل، جميعُ رجالي قُتِلوا ولم أقبل، تساقطت عليّ السهام كالمطر، تعلقتْ على جسدي كأشواك القنفذ ولم أسمح لنسائي أن يقاتلن. سهمٌ رحيمٌ خرقَ نحري، أخيراً متُّ، قطعوا رأسي، مشتْ سنابكُ الخيل فوق جسدي وأمطرت السماء دماً، متُّ وتركتُ الأرض ملآنةً دماً، حملوا رأسي المقطوع إلى الشام، لو قايضوا نسائي ليحملن رأسي على أياديهنّ ويسافرن بي كريماتٍ إلى الشام لنمتُ راضياً كما لو تُرِك القطا لينام»

***

لن يُكمل سالمُ روي رؤياه، لا ينبغي لسالم أن يبقى بينهم، فلو أفاق بينهم ليلةً أخرى لفيّق الفتنة، هذا الصائم عن الكلام سنيناً فكّ صيامه بنطق الكُفر. أسكتوه، كمّموا فمه و لم يخرس. رشقوا وجهه بالزيت الحارّ و لم يخرس، ضربوه على رأسه فخرس. ضمّدوا وجهه المحروق ثم كتّفوه وحملوه إلى كراج السويداء، أركبوه في الباص، غادر الشام بضربةٍ على رأسه مثلما وصل إليها بضربةٍ على رأسه. في السويداء مشى بندوب وجهه وغباش ذاكرته يتبع خيطاً مبهماً عن بنتٍ طويلةٍ ومتينة كالسروة الجبلية، وأخلاط كتبٍ تتقاتل في رأسه ولا تفنى ولا يُضاء رأسُه بأيّ ماضٍ.

***

تحت الجسر، وفوق التراب والصخر، رسم المشرّدون بخطوط الطبشور حدود قريتهم الضئيلة وحدودَ مراقدهم فيها. مفارشُ الأرض كرتونٌ أو ورق أو نايلون يختلط فوقه الغبار ببقايا الأكل بالأوساخ بالبصاق بروائح الصنّة. لا أثاث كثيراً يعوزهم، لا يعوزهم أيُّ أثاث، أنعالُهم وسائد للنوم، ينامون بكامل ثيابهم، وفيها يطمرون غلالَ الشحاذة أو الأعطيات أو المسروقات، وإلى خواصرهم يربطون صرر الليرات القليلة أو الكثيرة ملفوفةٌ بإحكامٍ وبعُقَدٍ أكثر من أن تُعدّ وأضنّ من أن تنكشف على المشرّد الجار أو الجارة. يقتتلون على حزّ بطيخ، يجوع واحدهم ولا يعترف جارُه بامتلاك رغيفٍ كامل الاستدارة يخفيه في طبقات جيوبه، وقد ينشبُ واحدهم سكيناً في خصر جاره إذا حاول خطف حبة التفاح الهزيلة من يده، ودوماً يتشاتمون بأقذع المسبّات، وكلّ ليلةٍ ينامون متباعدين مفتقدين إلى الدفء والثقة.

سالم الأخوث مات تحت الجسر. طعنةٌ صديقةٌ شقّتْ خاصرته، قال (الأعمش)، جارُ سالم في مساحة النوم: أنا لم أطعنه، أنا أحبّ سالم، كنتُ آخذ العلكة من جيبه ولا يزعل، وأسرق من جيوبه الخبزٌ ولا يضربني على عيني العمشاء.

المشرّد (الأحوَل) الذي يهوى سرقة السكاكين نطق: أقسم بسكاكيني أنني لم أطعنه، لا ينبغي تلويثُ سكاكيني، أسرقها من الناس كي لا يلوّثوها بالدم. انظروا، لا دم يخرج من خاصرة سالم.

طعنةٌ صديقةٌ شقّتْ خاصرته، ربما الحزن ولا سواه طعنه، طلع من جرحه ملح، صرخ باسم يوحنا ثم صرخ باسم نصّار، سالم صرخ من لسع أبرٍ تغزّ خاصرته، صرخ من نملٍ يسري في فروته، قال عطشان، قال لا ترموني برمح، قال روحوا واجلبوا الماء، قال لا تبكوا، قال ما عندي شيءٌ أخاف من فقده، قال أين أميّ وأختيّ، قال أريد ماء. قال: روحوا إليها، تلك الطويلة والمتينة كالسروة الجبلية، قولوا لها: ارتاحي من الانتظار، قال اعطوني اسم أبي وادفنوني هنا حيث أراد أبي، قال يخنقني الملح.

وضّب عاملا البلدية جيوب سالم المنكوشة والفارغة، عاونهما المشردون على إنزال المتوفّى في التابوت الخشب العمومي، أسبل المشرّدون عيونهم إلى الأرض حزينين على سالم وفرحين بما كان في جيوبه من علكةٍ وسكاكر وزهورٍ مجفّفةٍ وحبات زبيب كانت تأتيه هدايا من البنات، كلّها آلتْ إليهم يتقاسمونها باللّين أو بقوة السكين، ويُبقون منها لعامل البلدية دفتراً رسمياً كتب على ظهره بحبرٍ غامق: (حسن نصّار الغريب)، وفي داخله قيود عائلة حمزة المجدلاني.

32

أبداً لن يصل إلى ناصر خبرُ الكذبة التي رشقتْها أمّـــه في وجـــه حياة: «تزوج ناصر وصار في ألمانيا». ولن تدري أمه أن كذبتها البليغة تلك كانتْ تحمل نصف الحقيقة، أنّه أعاد ارتباطه بفتح، حمّالة أمانيـــه، وأرسلته فتح إلى منتجعٍ قرب درسدن في ألمانيا ليُكمل تدريبه وتأهيلـــه النفسيّ. وأخّروه في التدريب شهراً ريثما ينضج كما تريـــده فـــتح، وصبّره على التأخير حلمُه بحياة وبفلسطين، و(يقينـــه) أنّ الحـــبّ لا يموت، ولا يموت الحقّ. أخّروه شهراً هندسَ له على بطء لياليه الثلاثين أولى انكساراته، لا يدري أنّ صديقه الأعمى يحتضر في بـــيروت وأنّ حياة تُخطَب لغريبٍ اهتدى إلى بيت أهلها بموت أختها. أخيراً عـــاد وقد مات الأعمى وتزوّجتْ حياة، لم يمهل الله الأعمى، ولم تصن أمّه وديعته في الرسالة التي تركها لها على مخدعها حين كانت في غفلة النوم: (استهدي بالرحمن يا أمي، حياة وديعتك، لا أريد غيرها، ولن أتزوجها إلا برضاكِ). طارتْ حياة. عند قبر الأعمى بكى عليها وعليـــه. لـــن يهمد حزنه على باب مقهىً يبيع خمرةَ السلوى بكثير المال، ولا عنـــد صخرة الروشة التي تهمد تحتها الآمال، ولا بقي له مَن يكمل إليه طريق عودته إلى السويداء ولا أعاره الندم جواباً حين سأل نفسه بعد سنين: أما كان عليه يومها أن يكمل إلى هناك؛ إمّا يرى الخبر بنفسه فيخطف حياة أو يرى الخبر كاذباً وأيضاً يخطفها؟

لم يجب نفسه بثقةٍ إلا بعد أن ركلتْه مجاديف العمر في كل اتجاه: نعم؛ سلّمتَ بالنصيب و لم تكمل طريقك. نعم؛ كنتَ جباناً عظيماً.

سينسى، وعد نفسه. هنا سيكمل دربه. ظنّ نفسه نسي ونجا منذ نفض عنه ثوب العائلة وارتدى هويته الجديدة: فدائياً منذوراً لفلسطين. كانت فخامةُ القول تُنبئ عن فصاحة المعنى ثم برقتْ من بينه تفاصيلُ تستنزف الطمأنينة. عند قبر الأعمى برقتْ في رأسه تفصيلةٌ صغيرةٌ اسمُها: (زيارة القبر). وجد نفسه غير أكيدٍ من صحّة ما يفعل. راح رأسه ينبش في عقيدة أهله التي سمع منهم عنها شذراتٍ ضبابية. حفظ عنهم أن الجسد فانٍ، والروح باقية لا يفوتها شهيقٌ أو زفيرٌ واحدٌ بين نقلتيها من قميصٍ إلى قميص، وأنّه وإن غلبَ الفقدُ جوارحَ الإنسان بالبكاء فعليه أن يقتصد في حزنه ويتجمّل بالصبر كي لا يختلّ إيمانه. لو كان في بيروت حين مات الأعمى كان سيحضر محفل عزائه ويبكي فوق رأسه، لكنّ الرجل مات قبل عودته من مهمة ألمانيا، ولا حدود لحزنه عليه، ولا يعنيه إثبات ذلك لا بزيارة قبرٍ ولا بشهادةٍ من أحد. لا معنى لزيارة القبور في عقيدة الدروز بلْ هي مكروهة.

متأخراً أدرك أن النسيان لا يأتي كاملاً. كلما تخفّف من فكرةٍ قلقة نبتَ مكانها ما يضاعف قلقه، قال: ستستغرقني المهمات في فتح وتُنسيني كوابيسي. تدرّب كيف لا يفقد صبره في مهمة اصطياد الجاسوس، فقائده أمر: «نريده حياً، فقط حيّاً». وطاردت الجاسوسَ حتى أصبح في مرمى رشّاشه، وصرخ به ثلاثاً: «سلّم نفسك!»، وعاجلَه الجاسوسُ بطلقةٍ جرفتْ خدّه، نفر دمك شلالاً و لم يغضبْ،

ارتمى على الجاسوس وكتفه وأوصله إلى قائده حيّاً، وتوّجَهُ لحمُ خدّه المجروف بطلاً. ذلك اللحم الضائع إلى الأبد، تلك الندبة التي ستبقى محفورةً ما عاش؛ صبر عليها لا لأن البطولة كانت هاجسه، بل لأنّ حياة ملأتْ خياله، رآها زوجته، ورأى نفسه يؤوب إليها بخدٍّ مجروف، ويخلع أمامها سلاحه وتعبه وغضبه، وتنبهر به حين يروي لها كيف التقط الجاسوس.

رقّاه جرح خدّه إلى اسمٍ حركيٍّ بليغ: «سبع الجبل»، وأعطوه غرفةً خاصة بسرير فخم وطقم بيجاما وثير ولزوم حمّامه وعطوره وطقماً أسود وربطات عنق، وحذاء جلدٍ على مقاس رجله: نمرة 45. ارتدى طقمه كأنّه في لباس العيد.

في ذلك الأضحى البعيد، اشترى أهل ناصر له كما لأخوته كنزةً وسروالاً وحذاء كاوتشوك. ناصر لا يحبّ الكاوتشوك. دسّ رجله فيه راجياً ألا يكون على مقاسها، لكنه كان. ركض إلى الحمام، فك الشفرة من ماكينة حلاقة والده وبها شطّب حذاءه. عبر الجرح إلى جلده، تلوّن أسودُ الكاوتشوك بحمرة دمه، كظم وجعه، تبعتْ أمه خطواته الدامية حتى الفراش، خلعتْ عن رجليه الحذاء المشطّب، سكبت الدواء الأحمر على جروحه، ولم توقظه في صباح العيد.

وكان حقّاً عيداً، فقد أصبح (سبع الجبل) مرافق «أبو عمّار» الشخصيّ، وصار فدائيّ المهمات الأكثر تعقيداً، لا حقّ له بترف الشرود ولا تدليل الذات، وتتالتْ دورات التدريب على دروس مكافحة التجسس، كيف تتابع هذه الكرة الأرضية حياتها على توازنات الحروب وكسر التوازنات باغتيال العقول، تعلّم كيف

يفكّك عبوةً مدسوسةً في السرير، وكيف ينزع فتيلاً زُرع تحت شنتة السامسونايت، كيف يحدس رائحة وطعم السمّ المدسوس في الطعام أو الشراب أو الصابونة أو نكاشات الأسنان أو علبة الكولونيا.

الآن يذكر أنّه أحبّ سبعُ الجبل «أبو عمار» حتى صار الموت في حضرته اشتهاء. وكان «أبو عمّار» لسبع الجبل أميرَ التفاصيل الصغيرة، سأله عن حال قلبه المفطور، مازحه: «سنزوجك اليوم قبل غدٍ لتنجب لنا كتيبة فدائيين». أوصاه بأمه ولم يقل له سبع الجبل أنّ حبال الشوك على درب عودته إليها. سأله عن الكتب التي يقرأ، وحكى لك عن أكلة المليحية بالجميد التي طبختها له نساءٌ سوريّاتٌ جبليات.

ومن بين رحلاتٍ رافق «أبا عمّار» فيها حتى آخر الأرض، لم تعد تأتيه سوى رفقته إلى زيارة مريضٍ في مستشفى الجامعة الأمريكية، الختيار الجليل الذي يطوف اسمه في بلاد الأرض ويحترمه أهله وأعداؤه منذ اعتلى في شبابه ظهر جواده، في يده بارودةٌ وسيف، وبين ضلوعه قلبٌ شجاعٌ نازل فرنسا وأوجعها. كان ناصر يعرف الختيار بقلبه منذ قال لصديقه الأعمى: «أريد أن أكون ثائراً مثل سلطان الأطرش..». ورآه ختياراً وقوراً ورفيعاً عن تباريح المرض، وجهاً عميق الغضون، بهيّاً كما هيبةُ الشيخوخة الآمنة. وكما تقتضي البروتوكولات، وقف ناصر على مسافةٍ محسوبة من رجلين نادرين. رأيتهما يتعانقان: «أبو عمّار»، الفلسطينيّ المخضرمُ، يقبّل جبين الثائر السوري العتيق، يجلس قربه لدقيقتين، يطلب منه البركة، يروى له حكاية الأعمى، صانع السلال الذي أهدى إلى فتح فتىً كان اسمه ناصر وصار سبع الجبل.

الآن يذكر اللحظة التي انفكّتْ فيها الغضون عن وجه سلطان وهو يومئ إليه: «تعال يا بيّي. قرّب لعندي». بركبتين مرتجفتين حبّاً واحتساباً اقترب، دنا وقبّلهما؛ هاتين اليدين اللتين حين انتهتْ أزمنةُ السيوف المحنّاة لم تأبيا نكش الأرض العامرة بزيتونها وزرع القمح في التربة الذهب.

وعاد والتقى المجاهدَ الشيخ مرةً أخرى وأخيرة، رأى وجهه الضاوي مسجّىً تحت الزجاج الشفيف لنافذة التابوت. سكب عليه نظرةً طالتْ وطالتْ، كان يستودعه فيها كلّ رجائه.

بمأتمِه، أهداه سلطان الأطرش عودةً أولى إلى السويداء في مهمةٍ رسميّةٍ لن يملك دقيقةً من وقتها لنفسه، ولا لحبّه الذي ما خفت. فقد دخلها مرافقاً يحرس «أبو عمار» في وفده الرسميّ إلى السويداء لتشييع المجاهد سلطان وقد صار في ذمّة الله.

لعلع الرصاص الفلسطيني في مأتم سلطان والهمر مثل زخّ المطر، وفرّ قلب ناصر على الأرض مثل فراغات الرصاص الساخنة، كأنّ سنوات لم تمضِ منذ زوّجوا حياة لسواه، ما زال قلبه مشطوراً نصفين: نصفاً يتحسّس قراب مسدسه، ونصفاً يحوم حول طيفها، حياة، حياة..

من أوراق نجوى:

في محفل قائد الثورة السورية ابتلّ ريق السويداء ببعض إنصاف، تمهّدت شعاب الجبل الوعر تستقبل وفوداً رسميّةً ووفود سفارات، كان أبو عمار أوفى الحاضرين من خارج المكان المنغلق على نفسه كقوقعةٍ منسيّة، حضر ممثّل جمهورية لبنان ومنح المجاهد

الراحل وسام الأرزة اللبنانية بينما لم يمنحه رئيس الوزراء السوريّ أي وسام. آلافٌ، مئات الآلاف، كبارٌ وصغارٌ وعجائز من أهل المكان حجّوا لوداعه، غنّى الشباب والصبايا له، لحزنهم، لفخرهم، والتقى العشاق يومها من غير خوف.

واندلعت بعدها الحرب وتغيّر العالم كلّه. ورأى نفسه: لا شيء! لا يملك القرار حتى عن نفسه. اقتادوه إلى الزنزانة الانفرادية لسبع عشرة ليلة من رعبٍ وغضب، ليس رعب العقاب، هو رعب الشك الذي خلخل يقينه: هل رميُ رشّاشِه من شباك غرفته في الطابق الثالث عصيانٌ أم احتجاج؟! قال لقائده: «لن أروح إلى قتال الجيش السوريّ في لبنان. خذوني إلى جبهةٍ أخرى. أقاتل الإسرائيلي: نعم. لكنني لن أقاتل جندياً سورياً قد يكون أخي أو جاري».

وأخرجوه من الزنزانة ليقاتل مع مَن قاتلوا إسرائيل التي زحفتْ إلى بيروت صيف 1982، أسابيع سبعةٌ وإسرائيل تقصف بيروت أرضاً وبحراً وجواً، إلى أن طردتْ فتح إلى شتاتٍ جديد. صعد إلى ظهر السفينة المسافرة بأحمال الأسى إلى تونس، آدميّاً كسيراً، واحداً من آلاف آلافٍ يرميهم العالم من قاعٍ إلى قاع. يومها فقط لم يؤلمه أنّ حياة ليستْ على هذي السفينة قربه. سار به البحر يرشقه بموجٍ وملح، وفي صدره عصفٌ لن يكنّ ولن يرين حين حطّتْ به السفينة عند عتبات بحرٍ جديد. وفي تونس لم يكسبْ صديقاً سوى وحدته، فرّق الموتُ أخوة السلاح وفرّقهم الشتات بين قارّاتٍ ثلاث، وسلّم بعضُ رفاقه عهدته القتالية راحماً نفسه من نحس القضايا الخاسرة، وخاب في حبّ امرأةٍ تزوّجت من غيره، وغام وجهُها بين حرّ جوفه وحياد البحر، وتكسّر اللحن (يا فدائي جمّع شمل الحبايب)، خفتَ

الصوت (يا مين ياخذني داره، وأبوس منه الجبين). مرّةً وحيدةً زارته حياة في الحلم، كان شعرها أسود طويلاً كليل، وعيناها مضيئتين كنجمتين، في الحلم غابا معاً في قبلةٍ طويلةٍ كنهر.

يتذكّر؛ انقضت سنوات العطالة في تونس بين انتظار بشارةٍ أو اجترار خسارة حتى اختلطتْ عليه المسافة بين صغير الأحزان وكبيرها، في المرآة رأى تراخي بدنه وضعفه، وانحناء ظهرك حين لا تدريب ولا قتال، خبط بقبضته المرآة وعوى: «كس أمك يا حياة».

سيمضي من المنظمة التي راحت إلى تكتيك المفاوضات مع العدوّ. لا مكان له على طاولات السياسة. سيمضي، ولا يعرف أين يروح. (وفي الأرض منأىً للكريم من الأذى). لا رغبة لديه، ولا جرأة، بالعودة إلى حضن أمه خالي الوفاض: يد من وراء ويد من أمام، لا حبيبة، لا قضيّة، لا يقين، ولا ثروة في اليدين. ولا شام تناديه ولا عمّان ولا بيروت.

ولم يحوجْه أبو عمار إلى متاهة الشروح حين جاء يودّعه:

«لم تنتهِ الحرب بعد يا سبع الجبل. هذي المنظمة بيتك، ولن تغادرنا. نرسلك إلى بوخارست، وتفتح مطعماً فيها. رجالي هناك يؤمّنون لك كل ما تحتاج إلى أن ألتقيك. هناك سألتقيك»

***

ويا ناصر؛

انتهيتَ إلى بوخارست، إلى ملاذٍ آمنٍ لا حروب فيه ولا قضايا عظيمة.

ملاذٌ نظيفٌ حدّ الوسوسة، وأخضرٌ حتى الضجر، وموحشٌ حتى الكآبة...

تصحو عند الفجر، منذ مواعيد التدريب في المعسكر ترنّ ساعتك البيولوجية قبل السادسة، ترتب سريراً بارداً، تغسل وجهك بماءٍ بارد، تعلّق على كتفك منشفةً ليستْ بثقل بندقية، تشغّل المسجّل: ناتالي. (برجي بالسما، ومعلّق بنجمة)

في رومانيا تقفل الباب على زمن الحروب، لا تعرف بعد إن كنت ستستعير وجهاً أوربياً، رومانيّاً، أم هل ستقدّم نفسك هنا «ناصر» أم «سبع الجبل»، سورياً أم فلسطينياً أم شقفاً منتثرةً من كل هؤلاء، أنصافاً وأرباعاً تائهة؟ فخارج بيت الأهل وبيت المنظمة كل البلدان سواء.

هنا تلبس البدلة الإفرنجية، تودّع زمن المطامح وتتفانى في العمل، تُتأتئ بلغة الشارع الرومانيّ مخلوطةً بلكنةٍ فلسطينية، لا حيل لك على حفظ قواعد اللغة فوق مقاعد الدرس، تستعين بمترجمٍ عربيّ، فلسطينيّ أنهى دراسته في جامعات رومانيا. هنا العرب مثلك كثر، ومثلك وجدوا في مطعمك واحةً تُغني عن بلد، يشتغلون عندك بدل التشرّد أو تجارة الكشّة في الأسواق وبين البيوت، وتُطعمهم أكلاً بأسماءٍ وبهاراتٍ عربية، ودخلاً يفسح لعيشٍ أهنأ من سواه. هنا أيضاً مسرحٌ للصياح السياسيّ، لملاحم النقاش السياسيّ الذي لم يسبق له أن أفلح، صياحٌ سياسيٌّ حتى الصباح، ينتهي بمترسة كل طرفٍ خلف رأيه أشرس مما كان.

هنا أنت محارب قديم يحيا على التبغ وينتقي لنفسه ما يروقها من ذكريات.

يزورك «أبو عمّار»، تزورك البركة، يزورك «أبو خليل»، يزورك «محمود درويش». مطعمك منتدى فلسطينيٌّ للقاء والحوار والشعر واللقمة البلديّة. تسهر على راحة بالهم كذلك الحارس (أيام زمان)، تلتقط لنفسك معهم صوراً تقيم على حيطان مطعمك، بينما العالم في الخارج يسير إلى أمام، تمازح درويش، تطلب منه أن يسمعك شعراً: «سجّل أنا عربي..»، لا يغضب كما مرّةً غضب من أحد عاشقي أشعاره الثورية، يجيبك: «يا ناصر، نحن في زمن: أنا يوسف يا أبي، أخوتي لا يحبونني، لا يريدونني بينهم...»

يبادرك «أبو عمّار» بهبةٍ غالية: «هاك جواز سفرٍ روماني، خذه حصرماً في عين الإسرائيلي، لتكن أولى أسفارك به حجّاً إلى المسجد الأقصى وكنيسة القيامة». يعزّ عليك أن تجيب أنّ كل حجٍّ إليهما باطلٌ ما لن تدخل فلسطين في وضح النهار باسمك العربي وسمرتك العربية.

هنا مطر غزير في الجبال، على الأرض، وفي العيون، وعلى الطريق إلى البيت. مطرٌ يُبهت سُمرتك المحمولة من جينات أهلك الجبليين، والمضمّخة بشمس البحر وسخام الحروب، مطرٌ يُركّد عسل عينيك في غورٍ عميق، هنا زمنٌ يُعفّر رأسك بمسحة شيب، بغابة شيب.

وحدها الندبة على خدّك لا تغور، ووحدها وسامتك المهدورة تزيد مع العمر ولا تنقص.

تصحو من حلمٍ مغبش عن السويداء، المدينة التي لم تحبها، المدينة – الضيعة، نسخة مكبّرة عن خربة الذياب، في المنام تعبّ أطناناً من أكسجينها الصرف وتسري في رأسك الدوخة. في المنام

ترى كروم عنبٍ وتينٍ ولوزٍ وتفاح، تشمّ الحبق والعطرة، ترى مساكب البصل والنعنع في كل بيت، ومروج البابونج والفرفحين البريّ، في المنام ترى شراشف بيضاء كالثلج ينام فوقها زبيب أشقر له طعم الشمس وأيادي القاطفات، في المنام تتفقدّ بياطس نبيذٍ يتخمّر في غرف الكرش المهجورة، في المنام ترافق أمك إلى معصرة الدبس، إلى معصرة الزيتون، في المنام ترى بيت الميّت في وسط البلدة، ترى مجلس القرية تؤنسه عمامات الرجال ومناديل النسوة الخالصة البياض، حلقات الذكر في مجالس الدين ليلة الخميس، وحلقات لعب الشدّة كل ليلة في المضافات، في المنام تفرح مثل أهلك بولادة الأطفال وطهور الصبيان وأعراس البنات، في المنام رفوف سنونو تغادر كل خريفٍ وكل ربيعٍ تعود.

في الصحو كل غائبٍ يعود وأنتَ لا تعود.

في الصحو وحدتك رفيقتك، قد تصحبُ امرأةً لساعةٍ، لساعاتٍ أو بالكثير لليلةٍ كاملة. ما تجرّأت على تأثيث بيتك بزوجةٍ وأولاد، ولا على النسيان الكامل ولا على حبٍّ جديد. تراوغ، لن تكذب على نفسك، لم تلتقِ بعدُ بمن تنسيكَ حبّاً قديماً. حدث أن خفق قلبك لبرهةٍ وقمعته عن أكلافٍ لم تتهيّأ لها بعد. يجرفك العمل. ثم، حين يعضّك الفراغ، تناديها:

«طريقي مبسوطٌ وذهني مختلّ، كأني ظلٌّ يسير على الأرض، صوتُك قيدي في طريقي المبسوط، هاتيه محمولاً على الشوق، على الحرمان، هاتيه أحمله على أكتافي اليابسة.

تعالي أريدكِ أنت، تعالي فرساً تنادي على ذئبٍ شريد»

33

ناصر؛ يا أخي الحبيب

من بعد السلام والأشواق، أبعث رسالتي الطويلة هذي إليك، فاصبر عليها.

طرأ خالد المشّيْش على حياتي فصار مفتاحَها. يقولون يا أخي: هناك صداقاتٌ متى انعقدتْ لا تنفكّ، صداقات المدرسة والعسكرية والمنافي والسجن. لم أخرج من سنوات المدرسة بصديق، كنتُ أكبرَ سنّاً من تلاميذ صفي وأرى نفسي أقلّ منهم، ولن ألحق بهم مهما اجتهدت. خالد المشّيْش صديقي الأول والوحيد، عرف خالد أني من السويداء فجاء إليّ: «يا الله شو بحب السويدا. أنا ما زرتها ولا مرّة، بس أخوي محمد خدم عسكرية هناك، كان في منطقة اسمها الكفر، مرّة جاعوا، نزلوا عالكروم يحوشوا عنب وياكلوا، وقال إجا الضابط يتأدمن قدام صاحب الكرم ويعاقبهن لأنهن سرّاقين، نطلّلو صاحب الكرم وقللو: ليش يا ابني بدك تعاقبهم أنا اللي عزمتهم تا يذوقوا خير السنة. ومن يومها يا خالد وأنا بشوف السويدا كلها كروم»

خالد أكبر مني، أشقر ومربوع القامة ونحيل، أذبنا عتمة ليل العسكرية بأنس الحديث. شبابنا عادةً يتذكّرون أيام الجيش بمرار (هذه العبارة شطبتها رقابة البريد)، لكنني أشكرها لأنها جمعتني بخالد.

هو لم يفعل شيئاً بعينه، أجمل ما فيه أنه لم يحاول إبهاري، أتاني بسيطاً كالماء الذي ربـــي على حوافه وعميق كالآبار التي يحفرها للشرب.

وكما خططنا عند التسريح جاء خالد معي إلى السويداء ورحنا إلى المستثمر الذي اشترى الحفارة من أبـــي خالد لنشتغل عنده. اسمه «خليل أبو شال» هو صهر جارنا المرحوم «أبو ممدوح». قبل خليلُ خالدَ في الشغل ورفضني واعترض خالد: «يا عم أبو سلطان هـــاي كانت حفّارة أبوي، بعرفها حكر ووكر، وأنا وناجي اجينا ســـوى، إما منشتغل سوى أو منتيسّر سوى». على مضض قبلني خليل، ثم لم يندم حين وجدني (دبّ شغل). علّمني خالد قواعد المهنة، ثم ســـبقته في تدبير أعطال الحفّارة بفضل خبرتي النظرية من دروس المعهد.

عالم حفر الآبار ممتعٌ يا ناصر، كالمملكة الصغيرة يتقاسم ســـكانها مسؤولياتهم بدقّةٍ لا تقبل الخطأ. يأتي مالك الأرض بـــدلّال بئـــرٍ ذائـــع الصيت ليدلّ صاحب الحفّارة أين عليه أن ينصبها، ويكتبان العقد بينهما بناء على عدد الأمتار التي ستُحفر لا على مكان الحفر، فإن لم يطلع الماء يستلم الحفّار أجره بموجب العقد رغم خسارة مالك الأرض.

جماعة المستثمرين الروس ابتكروا طريقة أسياخ الحديد لكشف المياه الجوفية ولم يستغنوا عنها وعن الدلّال رغم التقنيات الحديثـــة: يحمل الدلاّل سيخين متوازيين من حديد 6 ملم ويمشي مستقيماً فوق الأرض يمسحها شمال جنوب. فوق مجرى الماء العميـــق ســـيتجاذب السيخان، ويضع الدلال أحجاراً كعلامة. ثم يسبرها شرق غرب إلى أن يتجاذب السيخان في نقطة تصالبٍ مع علامة الأحجار، هنا يجب الحفر. والعرب يستخدمون عود رمّانٍ من شعبتين لكشـــف الميـــاه الجوفية يمسك الدلّال كلّ شعبةٍ بيد ويلويهما باتجاهه إلى الأعلى بقوة

ليسبر الأرض، فوق مجرى الماء تُغالب الشعبتان قبضتي الدلال وتلتويان إلى الأسفل.

يشقّ إزميلُ حفارتنا طبقات الغضار والصخر الهشّ والرمل. طبقة الرمل هي مجاري ماءٍ تحت أرضيةٍ قديمةٍ أصابها جفاف، نُنزل التراب إليها ونخلطه برملها كيلا تميل على الإزميل وهو يحفر. ونكسو طبقة (الطالوسة) اللزجة (هذه تشبه ببنيتها بنية وطبيعة جبال الأطلس في المغرب) بأسطوانات معدنية ننزلها إليها بالكابل، ونُسمّد بفتاتها (الحُرزة) أشجار الزيتون.

بدأنا بحفر الآبار في أراضي القرى الغربية على حدود درعا، ظهرت مياهٌ سطحيةٌ ضحلة على عمق قريب استخدمناها لتغذية الحفارة التي تستهلك حوالي عشرين برميل ماءٍ كل يوم، تابعنا الحفر حتى 400 متراً حتى وصلنا إلى ماء الأحواض البحرية الغزيرة، وازدادت الأحواض عمقاً كلما اقتربنا من المدينة لتصل إلى 700 متراً تحت الأرض.

نحن ثلاثة عمالٍ يعمل منّا اثنان ويرتاح الثالث بينما تستمر الحفارة في عملها ليل نهار. نقيم قربها في الكرفان ومعنا صهريج ماء وننصب في الخلاء قربنا مرحاضاً خشبياً بباب شادر. كأنني في بيتي أستحمّ وأتفرج على التلفزيون وأطبخ ولا أتّكل على النواشف والمعلبات.

وفي مهنتنا أخطار كثيرةٌ إن لم نضع فيها كلّ انتباهنا، فهذه الحفارة كلها حديدٌ بحديد وتحتاج صيانةً شبه يومية، قد تدخل برادة تحرق العين أثناء لحام القطع المتآكلة، أو تنعطب فروعٌ من جدلات الكابل ويتأرجح يميناً وشمالاً ويقصّ ما يجد في طريقه؛ أصابع أو يداً أو رجلا.

شرد زميلنا محمد الحلبي مرّة كان يمسك بالقشاط، التصق القشاط بثيابه وظل يفتل ويلفّ محمد معه إلى أن قطعت يده

وكسرت ضلوعه. عالجه خليل على حسابه مكرهاً ثم صرفه من العمل دون تعويض. أنا لم أحب معلمي خليل منذ رأيته، إلا أنه ليس خليل وحده من يظلم عمّاله، فأعراف مهنة الحفر صريحةٌ: أجور العامل عالية، ولا حقوق أخرى له عند صاحب الحفّارة سوى علاج إصاباته أثناء العمل، ولا تعويض له على إصابته أو في نهاية خدمته.

كلنا مهدّدون بمصير محمد إذا لم نؤسس نقابة تحمينا. هذه قضيّتي التي منها أستمدّ عزمي. كان مستقبلي مجهولاً قبل مهنة الحفر، فلا وظيفة تنتظرني بعد تسريحي من الجيش، ولم أكن أكيداً أنك كنت ستأخذني لأشتغل معك في رومانيا، كنت سأجرّب حظّي ولو في الصومال إن حظيتُ بفيزا إليها. لم يكن وعيي رفيقي. أنا الآن ناجي آخر يشتغل ويقرأ، أعطتني الأرض خيرها حين اقتربتُ منها وشدّتني إليها بأنبل قيد، صرتُ جزءاً منها ومن عمّالها في السويداء وباقي المدن، سننشِئ نقابتنا معاً ونُقوّيها ليكون لها تمثيل في دول الخارج حيث انتشر الحفارون السوريون. أمامي عراقيل كثيرة، أعرف. لكنني لن أنكص، وسأنجو من سطوهم، ليتني أستطيع أن أشرح أكثر (المقطع الأخير شطبته رقابة البريد).

لم أكتب لك بعد أهمّ أخباري يا ناصر، فمنذ روى لي خالد تاريخ جده المشّيْش الأوّل تمنيتُ لو أنّ هذا المشّيْش جدي أنا أو لو أن لي جدّاً يشبهه. هل سبق وانتبهتَ يا ناصر أننا أشبهُ بنبتةٍ على بلاطة؟ نحن لا نعرف شيئاً عن جدنا الزعفرانيّ، ولا جذور لنا تمتدّ إليه. عن هذه الجذور بدأتُ أبحث، فربما تعصمني من ضعفٍ كالذي كتبت لي عنه كثيرا في رسائلك.

لن أثق بجواب أمي عن تاريخ عائلتنا، لا أثق بها منذ ربّتنا على

الخوف واستعبدتنا من بطوننا ومن أخطائنا؟

يذكر ناصر صوت أم كمال: راح ابعثك ع الدكانة وابزق هون إذا ما رجعت قبل من تنشف البزقة بتدوّد ذينتك..

يذكر ناصر يوم جمعتهم أم كمال في بيروت: «يا سندي، يا قبيلة رجالي، من منكم سيفديني بطقم صحونٍ جديد؟ كانت أنثى وحيدةً وسط سبع ذكور، يفيقون على صوتها، يلبسون ما تنتقي لهم، تطبخ لهم المنسف والمغربية والشيش برك وتخبز الفطائر وأرغفة اللزقيات، تُعطيهم ثمن التذاكر ليروحوا إلى السينما سرًّا عن أبيهم، ولا تهزأ من فضل الله لأن أبناءه جميعًا هجروا المدرسة، ولا تخبره أن كمال يدخّن، وتُقسم لكل ابنٍ في غياب أخوته أنه الأغلى على قلبها، وعليه أن يظلّ قويًّا فقد تحتاجه». وكلهم تسابقوا لافتدائها ولم يسألوها إن اشترت بالمال صحوناً أو كدّسته في عبّها.

رحتُ إلى أبي، ما زال أبي كما خبرته، لا يسرف في النوم ولا في الأحلام، يلوك مع الأقارب والجيران نشرات الأخبار وأحوال الطقس والمواسم، تكرّ مسبحة التسعة وتسعين حبّةً في يده ولا يعرف من أسماء الله الحسنى أكثر من خمسةٍ أو ستة.

يذكر ناصر المسبحة، ناصر أهداها لأبيه، وكان تلقاها من فدائيٍّ هجر القضيّة حين جاءته فرصة عملٍ في الخليج.

حياةُ أبي فراغ، يحيا على مديح الصبر، وعلى فخره ببيتٍ بناه، كلّ ما تسمعه يعيده كل يوم: «لولا خلّة الصبر ولولا فرق العملة بين الليرة اللبنانية والسورية لما أنجزت في حياتي شيئاً». لم يرَ أبي فينا فخره، ولا ربّى فينا ما يبعث على الفخر. وحدك يا ناصر من بيننا اخترت طريقك إلى قضيتك. والآن أفهم أنك حين غصباً

عني أعدتني أنا وأخي سعيد إلى المدرسة قبل رحيلك، كنت تزرع لنا بذور قضيتنا.

يذكر ناصر خيالَ والده المحنّط عند خربة المقرن الشماليّ، الزقاق الوحيد المرصوف بالحجر وحوله صفّان من بيوتٍ تتعانق تحت سقفٍ متّصلٍ على يمين الطريق وأخر على شماله، عبر السقف كان يعبر إلى بيوت الأعمام والجيران، وحول البيوت أراضي بوار قد تثمر بالقمح أو الشعير أو العدس أو القطاني أو مواسم بندورةٍ وبعجور وكوسا ويقطين، وخلفها صخورٌ تقعى كالجِمال النائخة، صخورٌ مرعبةٌ على مدّ النظر.

شوقُ فضل الله إلى الدُور المتعانقة خرّب عليه اغترابه إلى بيروت. فارقها قبل أن يعي، وبقي معلّقاً بين عالمين: حسد الأخ وأبناء العمومة على عيشة الهناء في بيروت، وعيشة بيروت التي لا يجزم إن كانت هانئة. بيروت لفضل الله هي الورشات والبيت الصفيح، لم يجلس في مقاهيها ولم يشهد سجالات مثقفيها ولا رأى المنفيين يتنفسون فيها هواء الأمان من عسف السياسات العربية. لم يدّخر نقوداً في مصارفها ولم يُبخّر نقوداً في كازينوهاتها ولم يعرف أن فيها كاباريهاتٍ لا تنطفئ أضواؤها طوال الليل بينما فضل الله يتقلّب في نومه القلق على أهبة الصحو فجراً إلى الورشة.

بلا حماسٍ أخبرني أبي أن جده تاجر دبس، وأنّ جدي مات في ريعان شبابه، وكان طلّق جدتي وعادتْ إلى أهلها وانقطعتْ أخبارها، ولم يعد له أهلٌ سوى أخيه سليمان. فتح أبي علبة التنك التي يحفظ فيها رسائل عمي سليمان من ليبيا، منذ رسالة عمي الأخيرة وأبي يبكي: «لا أظنّ عمك سيعود من ليبيا. لا أظنّ».

كلّما فتحها يكاد يختنق. إشفاقاً عليه خطفتُ الرسالة منه. رسائل عمي كلها تعجّ بأشعار الفراقيات التي حفظها بالسماع منذ كان في الخربة وما تزال تنفث أصداءها من صدرٍ مخنوقٍ هناك في ليبيا إلى صدر أبي الذي غدا مستنقعاً يسقفه باطونُ الألم.

كتب عمي: آخ يا خيّي..

لا عاد تقشعني ولا عدت إقشعك/ ولا عاد ينفعني البكا ولا بينفعك

بكرا متى قبالك مرق نعشي الحزين/ منو لحالوب ينحني تا يودّعك

بالكاد أعطاني أبي اسم جدتي: زين المحضر أبو شال من قرية مرج العكوب، ثم حرن وخرس.

معلّمي خليل تفاجأ أنني حفيد عمتّه (أي؛ الدروز سنسلة). استأذنته لأسافر إليها فاشترط أن يقتطع من أجري بمقدار الأمتار التي ستُحفر في غيابي.

والتقيتها يا ناصر حيّةً تُرزَق في مرج العكوب البعيدة، أبداً ليستْ كما وصفتها أمي، لقاؤها أغلى من أجور عمّال الحفارات مجتمعين.

كيف سأختصر في لقاءٍ واحدٍ عمراً كان يمكن أن يكون مرشوقاً بخبزها عندما تفيق، وحجل فضتها حين تخطو وصدى حكاياتها قبل أن تنام. ستّي، زين المحضر، «أم فضل الله»، زوجة سلامة، حكيمة مرج العكوب والمقرن القبلي؛ كل أسمائها حلوة. تقيم ستي في مرج العكوب وتتبع مداراتنا كلنا كالستْ سارة، تأتيها الطيور بأخبارنا نحن الساكنين ماضيها وحاضرها. أخبرتني عن يوم ولدتْ أبي، طال مخاضها فيه ثلاثين يوماً، لم تطمئنها الداية، «ستموتين مع جنينك أو تنجوان معاً»، وجاءها صوت جدي سلامة من الغرفة المجاورة فيما يده على كتاب الدين: «ستنجوان، لكنّ حياة

الوليد فضل الله ستكون راكدةً وعسيرة». سألتني جدّتي عن حدبة الباطون في ظهر أبي، وعن خيبة عمي سليمان في اغترابه. قالتْ أنّ جدي يحكي لها عنّا تحت قمر الليل: (يا زينة أولادنا بخير، لا تروحي إليهم، لا تدقي أبوابهم، فهم سيجيئون، إن لم يجيئوا هم سيأتي أولادهم). قالت أنّها تستقبل مواليد مرج العكوب وتنتظرنا وتعين الحزانى على السلوان، وتخزّم الأكتاف الموجوعة وتطبّ كاسات الهواء على الظهور المخزولة وتنتظرنا.

لو كبرتُ قرب جدتي لربما أورثتني بصيرتها التي ورثتْها عن جدي، ربما ساعدتني أن أصير طبيباً أو صيدلانياً، ربما نشأنا على غير ما نحن عليه إذ نكتفي بما يعطى إلينا.

جدتي تعرفك يا ناصر. حين أطللتُ سألتني عنك. تعال لتراها. أوصتني جدتي أن أناديك لتعود، تقول لك بالحرف: لديّ ما أودعه عند ناصر قبل أن يأخذ الرحمن وديعته، قل له أن روحاً تنتظره هنا».

خبرٌ أخيرٌ يا ناصر، هل تذكر عناد، الابن الأصغر لجارنا المرحوم ابو ممدوح، كان عناد تطوّع في الشرطة وأصبح أخي كمال رئيسه في القسم. تشاجرا، وجرح عناد بمسدسه خاصرة كمال. أخي الآن بخير، قد تتصل به وتهنئه بالسلامة إذا لم تشأ أن تعود لتطمئنّ عليه بنفسك.

واسلم لأخيك المحب: ناجي

يُقلّب ناصر نداء جدّته: «إن روحاً تنتظرك في هذه الأرض»، يقرأ ناصر نداءها كما يشتهي له أن يكون: «يا حفيدي: إنّ روحاً أحببناها معاً أنا وإياك تنتظرك؟!.».

34

من مرويات المدينة السرّية

كان يا ما كان، منذ ثمانين سنة أو ربما تسعين، تقاتلتْ عائلة «جادالله بيك» وعائلة «حمدان بيك» على الزعامة، ولم تتصالح العائلتان إلا بالمصاهرة.

جادالله بيك واسع الأرزاق وذكيٌّ بل داهية، زوّج ابنته الكبرى «كرمة» إلى حمدان بيك الوسيم والأوسع نفوذاً وبطشاً.

لم تكتمل لحمدان بيك وكرمة زينة الحياة الدنيا حين لم يرزقا بالذرّية.

لكرمة أختٌ أصغر منها بعشر سنين اسمها «روزه»، حملت روزا ولم تكن تزوّجت. استنطقتها أمها بسكينٍ على رقبتها لتعترف بابن الحرام الذي حبّلها؟

– إنه حمدان بيك، زوج أختي.

....

اختلى جاد الله بيك بصهره حمدان، قلّب مسبحته في يده وهو يستنطق حمدان بيك. وصمت حمدان فلم ينكر ولم يعترف. زفر جاد الله بيك كاتماً حقده:

«إيييه، ما صار شي إلا وصار أعظم منو. اتكلوا على الله...».

كرّتْ حبّات المسبحة ومعها أفكار جاد الله بيك المتكّئ على مخدّات الصوف المخطّطة وحده في المضافة؛ كان ارتضى حمدان صهراً لينهي النزاع المزمن بين العائلتين، وإذ هتك الخسيس حمدان ستر ابنته القاصر، وأثمرت فيها بذرته، فقد تأكّد الآن أن ابنته كرمة هي العاقر. قد يفكّر حمدان البوّاق بطلاق ابنته العاقر وينكر أنه افترس ابنته الخصبة القاصرة، وينفضح جاد الله بيك ويُسحب بساط الزعامة من تحت قدميه. لكنّه جادالله بيك؛ الداهية!

«هاتوا سلّوم المرابع لنعقد قرانه على ابنتي روزه، (للعاهر الحجر والولد للفراش).»...

لن يُرجَم حمدان بحجر، وستمضي كرمة حياتها في بيت زوجها حمدان بيك، ويبقى جادالله بيك زعيماً، وسيفرح سلّوم كثيراً بزوجةٍ بنت بيك، وبارتقائه إلى مرتبة صهر البيك، وبانتقاله من كوخ المرابعين إلى بيتٍ مجهّزٍ بزوجةٍ وجنين في شهره الثالث، وسيولد الابن في فرشة سلّوم، وستشيع العائلة أنه سبيعي، وسيكبر حاملاً كنية سلّوم المرابع، وسيولد له أخوةٌ كثيرون، ويهتف الناس إذ يرونهم معاً: كم يشبهون أباهم! وفي الليل سيتهامسون: هذا الولد الكبير لا يشبه أخوته، كأنه حمدان بيك (مخلَق منطَق)!

35

الشيء الوحيد الذي أريد قوله

يلمع خارج متناول اليد

كما الفضة في محل الرهونات..

توماس ترانسترومر – شاعر نرويجي

أسمّيها جلسةً عائليةً نادرة.

خليل هادئٌ كما لم يكن في عيشنا الطويل معاً. أقفلَ بوابة البيت الخارجية والأبواب الداخلية، وأرخى الستائر. خارج البيت بردٌ والشوارع خاوية.

بدا أنّ عائلتي رتّبتْ للجلسة في غيابي. لم يشتمني خليل و لم يشتم أمي لأنني عدتُ من عندها متأخرة. لم يسألني كيف صار حالها منذ وقعتْ وانكسر وركها وصرتُ أساعد منتهى وختام المشتّتين بين وظيفتيهما في التدريس وأشغال البيت والاعتناء بأرملةٍ هدّها ضياع ابنها الكبير في فرنسا وابنها الصغير في السجن قبل أن تقعدها السقطة عن الحراك.

اجتمعنا أول الليل أباً وأمّاً وأبناءهما الأربعة حول طاولة من خشبٍ نكّار، اشتراها خليل لسلطان منذ دخل المدرسة، ورافقتْه في

نجاحه حتى صار اليوم في الجامعة. خليل يتوسّط أبناءنا، سلطان أقربهم إليه ومستنفرٌ مثله ربما بنداءٍ داخليّ. عينا عدنان في الأرض وقحطان وغزوان يجوبان بعيونهما فضاء البيت المغلق كمن يستشعر جرس إنذارٍ بفجيعةٍ آتية.

وأنا مقابلهم وحدي.

لن تأتي زين المحضر لتجلس قربي. زين المحضر، أختُ جدي عزّات أبو شال سارق حجر العطش وقتيله، المرأة التي ربطتْ عائلة أبو شال بآل الزعفراني منذ ثمانين سنة، نامتْ راضيةً على فراشها قبل شهر، لم تفق قبل الشمس، ولم ينتبه أخوها أبو خليل وسط شروده المقيم إلى غيابها عن صباحه. اغتسلتْ قبل أن تنام، وبماء الزهر تعطرتْ ومن إبريق النحاس ضيّفتْ نفسها شراب ماء الورد، وعند الفجر أطلّ سلامة، أعطاها يده لتتبعه إلى حيث لا يفترق الخلاّن.

وناصر لن يأتي. قد سافرَ ناصرُ عن أرضنا بعد أن دفن جدته بيديه.

في جلسة (عائلتنا)، بدا خليل الذي تجاوز ستينة كأنه خلع عنه منها لا أقل من عشرين عاماً. من تحت ثيابهم، رأيتُ سرر أولادي تندمل في بطونهم وتطمس ذاكرةَ حنينهم إلى دفئي. ربما لم يشبعهم حليبي فلم تنعقد بيننا براعم العاطفة. ما أرضعتهم إلا بقدر الطاقة الآتية إليّ، وقد كانت قليلة. امتحان الحليب هو الأقسى.

اعتاد خليل إنجاز مشاريعه بنفسه، وكبر سلطان وصار له عوناً. سلطان، ابن بطني، أرخى يده قاموس «المنجد» ودفتر خرابيشي فوق الطاولة.

«من أين جاء دفتر خرابيشي إليك يا سلطان، ولماذا تخفيه تحت «المنجد»؟

أجابني وعيناه في الأرض: «كنتُ أشرح لأبـــي معنى (الأولمب) المكتوب هنا في دفترك، هو جبلٌ في اليونان كان مقرّاً لآلهتهم القديمة، فوقه شعلةٌ لا تنطفئ، هل أقرأ لكِ ما كتبتِ:

(استفاق جسدي على يديك ناراً على قمـــة الأولمـــب.... لا تفارقني.... وضّب لي في قلبك عشّ عصفورةٍ مرعوبة مـــن الفقـــد، وسأكون لك ملاذاً في سري وفي علني).

«ونحنا قرّرنا إرسالكِ إليه يا بنت مـــرهج. ألـــيس حرامـــاً أن يفارقك»؟

كمش خليل هدوءه كحفنة زيتٍ حتى نهاية جلســـة محـــاكمتي الفاصلة. لا أظنّ سيتلوها استئنافٌ ولا استرحام، فلا ريق في حلقـــي لأرافع عن نفسي.

«يا سلطان هل رأيت بعينيك أمك تمشي في السويداء العتيقـــة مع الأزعر الذي اسمه ناصر»؟

«إي يابا..»

«وبعينيك رأيتها تأكل معه في مطعم (الموعد)»؟

«إي..»

«وفي دفترها وبخط يدها كتبتْ أمك المثقفة أنها كانت معـــه في الشام»؟

«هذا خط إمي يابا..»

(أنت، سلطان، ابن بطني الذي لم يكن فاكهة بطني)

«لا أحد يعرف سريرتك مثلي، (هذا بزّك يا بنـــت مـــرهج). وأولادك ودفترك شاهدان عليكِ. صبّرتُ نفســـي منـــذ ســـنين و لم أطلّقك وآتي بامرأة جديدةٍ أهنأ معها، كنتُ أوفى منكِ يا ساقطة. لو

كان أهلك محترمين لجرّوكِ من شوارع الشام. لن أبتلي بقتلك، مؤخّرك طابق أخيكِ ممدوح، بأموالي عمّره والدك، وبأموالي سأجد زوجةً أصغر من سلطان. أنتِ طالق يا بنت مرهج»

أشار خليل بيده إلى الباب وأصبع يده الأخرى في منخاره.

طال سلطان جرابي من خلف ظهره، رماه عليّ وصفّق بحماسٍ مشيراً إلى البوابة!

(هل اهتدى خليل إلى مخبأ الجراب أم هداه إليه سلطان)؟

بشحّاطة البيت وجدتُ نفسي خارج البوابة وحولي المدى المفتوح. طال وقوفي، كعرني سلطان نحو الدرج، سقطتُ، ندهتُ: وين راحووووووا

***

ندهةُ «وين راحوا...» كانت تُرعب الذئاب الهاجمة على الأغنام في زرائبها، ندهة «وين راحوا» كانت ترعب الذئاب الآدمية إن حاولتْ افتراس أرملةٍ وحيدة، ندهة «وين راحوا» كانت تُرعِب الحرامي فيبصق لقمته المسروقة ويهرب، ندهة «وين راحوا» كانت تلمّ رجال مرج العكوب ليصدّوا سيول وادي راجل، ندهة «وين راحوا» كانت تُفزّع الرجال ليروحوا إلى الموت غير آهين. ندهةُ «وين راحوا» لم تُخرج اليوم أحداً من بيته.

***

بكاءُ غزوان في مسمعي، وجرابي يتدحرج خلفي مذ رماه عليّ سلطان..

من كلّ عائلتي هرع إلي عدنان ينهضني من أسفل الدرج، يعيد بنات قلبي إلى جرابها، يضمني أطول ما يستطيع وينسلّ إلى داخل البيت جارّاً معه غزوان وقحطان. صراخ صغيريّ يطرق رأسي أوّل خطوي في الطريق الغامض، أول طرمي حين صرتُ في عرض الشارع. الشارع كلّه لي وحدي، أنا التي ما نمتُ ليلةً في بيت خليل إلا وكنتُ أفكّر بالأسوأ، بروي أمي عن طفاشِها في زقاقات مرج العكوب يوم ضربها أبي وهي حبلى بممدوح إلى أن دقّتْ، صاغرةً، باب أمها التي تكره، وكنت أقفز فوق تفكيري، أؤجّل، أماطل، أزيح عيني مثلما يفعل سائقُ عربةٍ صغيرةٍ حين يرى شاحنةً عملاقةً مجنونة تهجم عليه ويحدس في جزء الثانية الأخير أنه لن يستطيع تفاديها.

أمشي، الدنيا أمامي دروبٌ تمتدّ في البرد والعراء ولا تنتهي إلى بيوت.

لسعةُ برد؛ لم أتناول عشائي الأخير قبل طردي، من سيحضّر لأولادي العشاء؟

ومضة دفء؛ كان عدنان يعود من تمشايات المساء وقد خبّأ لي قطعةً من سندويشته الشاورما وربع علبة الكولا: «ذوقي هذه الشاورما اللذيذة. واشربي، أنتِ تحبين الكولا»

لسعة برد؛ كم تشكّك سلطان وسألني في صغره: «ماما كيف فيي أعرف إذا كنتِ عبتعلميني صح وللا غلط؟ بابا قال لي إنو النسوان ما بيفهموا شي».

ومضةُ دفء؛ قد يتبرّع عدنان ويأخذ مكاني في تدريس أخوته.

لسعٌ وومض؛ سيكمل سلطان دروسه كأن شيئاً لم يكن، كل العواصف لا تُلهي سلطان. أعرفه منذ درّسته جداول الضرب وخرائط الدول وتاريخ العالم، منذ حفظنا معاً قصائد الاخطل الصغير وبدوي الجبل وإيليا أبو ماضي وفهمناها كلٌّ على طريقته.

أمشي، أتحسّس ندبة رأسي، قاسيةً ما تزال، تنحجب عني نبوءةُ أمي، تنحجب عني قنطرة الحجر في مرج العكوب، ينحجب ليوانُ بيت أهلي. تدق رأسي عواميد طابق ممدوح، أستذكر عدد الدرجات الهابطة إلى غرفة الكرش، أستشرف تكشيرة أمي، بربساتها، «يا ويلك من الله، راجعتيلي مطلّقة، وفوق هيك عايبة؟!..». أحاول استذكار كم يعلو سقف غرفة الكرش، كم من الضوء قد يمكنه اجتياحُ كوّتها الوحيدة..

36

خرابيشُ حياة في دفترها محبوسةٌ عند خليل، ربما مزّق خليل الدفتر، وربما ضاع.

وأنا الراوية..

أتاني أحدُ مراسيل حياة السبعين بقصاصة ورق طارتْ من شباك غرفة الكرش بحروفها وندى الحبق والقرنفل فيها:

«ليس بيت البنات خراب؛
بيتٌ لا بنات فيه لن تُروى حكاياتُه،
وأنا لم أُخلّف بنات.
والكاتب قريبٌ من الله حين يروي عمّن لا وريث لحكايته؛
اكتبي عني إليه»

كي لا يطمس الغياب صورتَك؛ كنتُ من مكاني هنا في بيت خليل أرعاك في مجهولك القصيّ، أخلقكَ طيفاً، وعلاً يشرد من غابته ويأتيني، يحملني إلى دارةٍ أخالها مكتملة، أتربع على سدرتها بطلةً تقتسم معك الكتابة والمحو، والبوح والكتمان.

على مهلٍ مضنٍ احتفيتُ بك يا وهمي الجميل كيلا يطمرني حطامي في غيابك، ولا ينطوي ما كان بيننا على ذنب المسافة وعبور الزمن.

هكذا خلتني طلتُ الذرى عشقاً، وأنجزت كل علوم الحب التي أعرف.

كنت أوقن أنك ستأتي من فرط ما ناديتُكَ، وكان يقيني مزمناً كوجدي، به فرشتُ رذاذ الصبر على حمّى الانتظار، ولولاه ما حييتُ حتى عدتَ لتلقاني.

وباغتتني؛ جئتني من فتون الحياة لا من خيالها، راودتني غزالاً أنسياً في وضح النهار. حضورك عاصفاً كان، عصياً على الاستيعاب كان. حضورُك إطلالةُ حبّ انطلتْ عليّ كخدعة حرب، ثباتُها أفقدني صوابي، وسيّرني إلى أمام، مهزومةً مبهورةً بضآلة الطيف حيال حضور صاحبه.

كنستَ من ذاكرتي عشرة الطيف وعمّرتَ على الأرض دارةً أحلى من تلك التي بنيتُ في سنين الغياب، نبتتْ هكذا مثلما تنبتُ مدينةٌ في رأس طفلٍ بعد حكاية مثيرة، وفيها نبتتْ كلُّ ورود الجنون، وتنحّى عقلي، أو ضاع؛ لا أدري، فقد فقدتُه في عداد ما فقدتُ قبل أن أستعدّ للدوران المجنون في مدارك الواقعيّ.

قبل لقاء الموج كان عليّ أن أخلع غلالة الخوف، وما كنتُ احتسبتُ.

اقتربتَ ناسكاً ماسكاً لدمعه وقلبه، هل تظنني، يا فدائيّ المهمّات الصعبة، مثلك أستطيع؟! قدومُك إعصارُ فوضى قذف بقلبي خارج سكّته. تعال إذاً واجلس هنا على مقعد الوقت المسفوح عبثاً قبل مجيئك، تعال صافحني وأعد قلبي المفرفر إلى مخبئه.

أنيقاً تجلس، كوابل الشهد، تقول: «عطشان!»، كلمةٌ واحدةٌ تنفرط حلوةً كحبة رمان، رمان تشرين الذي أحب، رمان صدري

الذي على انتظار، رمان الوعود الباذخة.

ينفلتُ صهيلٌ نازفٌ من دمي، (ضمّني، أَحِلني أثيراً خالصاً)، والرقيب الحاضر في كل وقتٍ يردعكَ عن ضمّي. تضمّ كأس الماء الذي شربتُ نصفه، تخمش قلبي بفرحةٍ مباغتة، ترشف نصف كأسي حتى القطرة الأخيرة، وأرشف رجفة صوتكِ في لفظ: (عطشان) أشفَّ من طعم قبلةٍ طويلة.

لو من يدي أسقيك كمشة ماءٍ مجبولٍ بتميمةٍ تبقيك قربي إلى الأبد.

«حقدتُ عليكَ لأنك بعتني بألمانيا»

«و لم أحقد عليك لأنكِ بعتِني بخليل»

لم أكن؛ وصرت بخير. صارت المدينة كلها لي، تحاذيني يدك بنصف لمسة وسط حواريها القديمة، أرعشُ كأني ما أزال أستشعرها منذ أوصيتني: «حياتي انتبهي لمدرستك»، كأنّ قربك أزلياً كان، كأني ربيتُ معك.

كنتَ لا أدري؛ أبحكمةٍ أم بمكرٍ أم بثقةٍ كتبتَ لي على القصاصة الصغيرة أنك تُسلم القياد لي لاختيار الزمان والمكان في هذي المدينة التي لم تدخل قلبك يوماً، بينما أنا التي تتبعكَ الآن كطيفٍ مخمورٍ يُجيدُ الإنصات ولا يُجيد سواه:

«كيف أنتِ؟»

(يهسّ الهمسُ في كبدي: أنا العطش الصرف، أنا الشوق المُصفّى)

تصمتُ، أصمتُ، أتملّى شيبَ رأسك، ذؤابات فضةٍ صهرها جمرُ الزمن والأحزان والخيبات، أتملّى الظلال السود تحت عينيك؛ أهي آثام الحرب أم القلق أم السهد أم ركام عشرين عاماً من الفراق؟

«وهل يؤلم الشوق من المدن البعيدة يا ناصر»؟

«أعيدي نطق اسمي»

(أنت لا تعرف؛ بعض الأسماء، «خليل» مثلاً، لا تصلح حتى خميرةً لليلة جوع، ألفظها بحيادٍ مثل مضغ الشوربا خالية الدسم، لا أغصّ فيها، ولا يعلق منها على طرف لساني لا طعمٌ ولا رائحة. واسمك الذي تدرّبتُ في سنين غيابك على ابتلاعه، أدّخره كالماء، أقتصد في نطقه كالراتب الشهريّ، كحبّة النعناع، كالصورة الوحيدة التي التقطها لي صاحب الاستوديو واقتصدتُ في النظر إليها لتصلك وهّاجةً مثل توقي إلى نطق اسمك)

الآن وأنتَ قربي، تؤلم روحي هذا الألم العذب مثلما آلمتّني ألف مرة حين غزوتني من غيابك كحنينٍ غامض، كوخز ندبةٍ خلّفتها ذكرى حميمة، كندمٍ حارقٍ على خطيئةٍ خالبةٍ لم أرتكبها وقد كان بإمكاني.

تقولُ: «تغيّرتُ نعم، ولم أكن ألحظ. وحيداً كنتُ، لا زوجة قربي ولا صديق، يحتاج الناس في حياتهم إلى شاهدٍ يرون في مرآته كم تغيّروا، إن غاب الشاهد فنيتْ محطّات العمر وغدتْ حياتنا نسياً منسيّا»

تقول: «تغيّرتِ وصرتِ أحلى. من محاسن الغياب أن ينجو الحبّ من آفة الاعتياد»

تحرّشتْ لمسةٌ ماكرةٌ منك بي، أضأتُ، ارتجفتُ من سيالة وصلٍ صغير لا أدري ماذا سيحلّ بي لو تنامى، أَرحتُ عينيّ على يديك، على تضاريس الكفّ التي يا ما تخيّلتها تنكمش وتتلوّى فوق سلاحٍ أو آهةٍ أو مواجع، كانت تريد وطناً وما ظفرتْ سوى بندبةٍ وعروقٍ نافرة وأصابع خشنة.

قلتَ: «اللمس أصابع الحب». صار الفضاء حولنا كله أصابع.

هذي شفتك العليا طاغية الحضور، ماذا لو قبّلني هـذا الفـم الطافح إغراءً، وانهرستُ وغادرتُ الحياة نشوى بموتٍ نبيل لـيس لي قبلهُ أدنى أمنيةٍ أو حتى رجاء؟

ألم ترأف بهشاشتي حين أطلقتَ علّيق الرغبة ناشباً في عمقـي، زاحفاً إلى صدري، تاركاً بطني يتلوّى ويفيض بمرارةٍ حلوةٍ موجعة؟

ككل لقاءات الأحبة قصيراً كان لقاؤنا الأول، وانتـهى حييّـاً كأمنية.

لا، لم ينتهِ، قد فيّق الفتنة.

***

حضرتَ على غير ما قالت (ناتالي). أنزلت برجي من نجمتـه المعلّقة، ما عدتَ غريباً ولا عدتُ غريبة مذ عدتَ وبك اصطبحتُ.

بعثتَ أخاك ناجي يطلب مني أن أوافيك إلى مرج العكـوب، أردتَ أن تحطّ عند زين المحضر لا عند أم كمال. قلتَ أنّ شوقكَ لي أعادك، وكان يناديك قبل نداء جدتك، فلا أحدَ سواك وسوى زين المحضر يكمل خيوط الحكاية المقصقصة في رسالة ناجي. أعادتْ زين المحضر أمامك سردياتها عن خربة الـذياب وسـلامة وفضـل الله وسليمان، وأوصت لك بالكتيّب الصغير (السفينة) التي خطّها سلامة بريشته. قالت لك: «إليك الملموس الباقي من إرث جدك»

ظننتَ لقاءكما انتهى، فإذا بها تُخرِج من عبّها آخر سرديّةٍ تحكّ ضميرها منذ سمعَتني أسبّك يـوم ولادة سـلطان: «كـس إمـك يا ناصر».

قالتْ لك زين المحضر: «بعد صيحة حياة نبشتُ الأرض حتى وصلتُ إلى خبرك، لكن كيف لي أن أطالك؟ اتكّأتُ على بشارة النّوَريّة، وعدتني أن ألتقي أحبابي بعد إشارتين، كنتُ ضمرتُ الفأل على نيّتي وعلى نيّة حياة، أحببتُ هذي البنت كابنةٍ لم أُنجبها. من أجلها سأُعيدك إليّ وأوبّخك..».

(حرامٌ أن يكون جسدُ امرأةٍ في أرض وقلبها في أرض أخرى. تستحقّ امرأةٌ تستغيث بحبيبٍ وهي تلد ابن رجلٍ آخر أن يُفسّر لها الحبيب لماذا اختفى).

وقلتَ لي: «لماذا قد يعود رجلٌ إلى بلادٍ رحل عنها بكامل خساراته؟ قد تُعيده أمٌّ تنتظر، أو حبيبةٌ تنتظر، أو زرعٌ ينتظر. قد كنتِ لي أمّاً وحبيبةً وزرعاً، وكنتُ أخشى أن يكون زرعي نسى، وجاءني الجواب في نداء جدتي»

***

بادرتني في لقائنا الثاني في خرائب المدينة العتيقة:

«ارمي هذي الحياة الحطام هنا وتعالي معي»

وكانت الفتنةُ استفاقتْ منذ لقائنا في مرج العكوب. صار جسدي ناراً على قمّة الأولمب، صار جسدي صديقي، كل تمريرةٍ لكفي على جلدي تبعث فيّ دماً حارّاً، كل نظرةٍ إليه، كلّ تأمّلٍ فيه صار فعل حب. أمانٌ وفورةٌ هبطا معاً عليّ، أمسكا بأصابعي، بيدي، بعنقي، بقلبي، بصدري، بسَرّتي، بمكمني، غمراني ورشَحا فيّ آتيِيْن منك. أبداً لم أشعر بهذي الفورة والسكينة معاً: سكينة الأمان وفورة الجوى. استفاق حبي لك صوفياً خالصاً وحسيا خالصاً. سأنسى

غيابك وأشكر مجيئك، أشكر رباً أعادك لي، أشكر الأناة التي هبطتْ عليه وهو يخلقك ويعلّمك النطق. منذ ليلتين وانا أسعد نساء الأرض. يلكزني قلبـــي ويحدفني عنوةً صوبك. أراك على ثوبـــي وفي مشـــط شعري وفي كحل عيني وعلى خدي وشفتي وبسمتي، أنتَ يا ســـري الجميل يا فرح قلبـــي يا ألق روحي يا أماني. مضيتُ في حلم العيش لصقك، أحاذيك امرأة عاشقةً وإنسانة وحكيمة، أطمع أن أكبر بك، أُهذّب لساني، أهندس حديثي برفقتك، أصادق عقلـــك ووعيـــك وحنكتك، وأفيض حبّاً يكفي جميع محبيّ ومحبيك.

«سأخلع هُناي وأولادي وأحمل جرابـــي وأتبعك»

«إن رحلنا معاً، لن يعنينا أن نكون أبناء هذا المكان أو ذاك»

«أحتاجكَ حتى تحتفظ روحي برائحة فلّةٍ انتظـــرتْ تفتُّحَهـــا دهراً»

«كنتِ معي هناك، أُعلّق حياتي على مشجب ابتسامتك، فقط لو تبتسمين»

***

(النقصان في الحب موتٌ آخر)، هو ما علّمتني، مـــا جعلـــني أرتاب وأنا أتأمل نفسي: (أهذه أنا؟!)

لاحقاً سأشكرك، ولكن كيف؟!

أتدري حرج التوجه بشكرٍ أو حتى بالتحية لفدائي؟

في خاطري أنت وبارودتك، وما تفعـــل البـــارودة صـــنوان. غوايتك توأمُ غواية الفدائية، وكلاكما اختراق لا يخلو مـــن عذوبـــة الألم، كلاكما تحريضٌ على ارتكاب المعاصي الفخمة.

ستقول هذا أنا كما أنا، وسأرتبك قبل أن أستوعب أنك أنتَ كما أنت.

وسأرتبك وأسأل نفسي: هل حدث وكان بيننا ما كان، أم لم يحدث؟ هل حدث أن باغتتني، فيما لم أكن أحتسب، بقبلةٍ أنبتتْ فلّةً على الأرض البكر خلف أذني؟ رسالة حبٍّ جسورة وحذرة، انبهار عودة الحب شغوفاً ولجوجاً، يقين أنّ الحبّ ما يزال يسكن هذي الأرض، أن تحطّ أصابعك العشرة على ظاهر يدي ترعشها، توقظها من خدر، وتحملها إلى فمك يهفو عليها بالقبل.

ترتعش يدي اليمنى شكراً لقبلةٍ أولى. لم تَخبر يدي الحبّ من قبلُ، لم يقبّلها أحد، لم يقل لها أحدٌ من قبل أن كلّ ما خلا أصابع الحبّ ليس أصابع. يدي لا تعرف إلا العمل، ربما أكسبها الكنس والجلي بعض خشونةٍ، ورقّتْ بك فاستجابتْ للحظة الحبّ ككل يدٍ نعّمها حرير الكسل.

وفيما ليس على معصمي إسوارة تزيّنه، صارت قبلاتك أساورَ يدي.

هل حدث أن همستَ: جسدُكِ جميل؟

بغتةً وجدتُني امرأةً مأسورةً بعبارةٍ عارية. (جسدُكِ جميل)؛ عبارةٌ بسطوة نيزكٍ أتى يضيء مدينة العتمة، طار شعري في الريح، وصارتْ قامتي زنبقاً ومشيتي غزالا، وأعلنتكَ مضرم النار ومقرئ الوحي الجديد أنْ: كفى عقلاً، أيقظي هذي الروح الجميلة من غفوتها!

هل حدث أن التقينا؟ هل جاء تموز وأغرقنا عسلاً ونـاراً في خلوةٍ يرعاها شياطين أكفاء؟ أظنه حدث، أظنني كاملة الوعي كنتُ،

لم تسُقني شياطيني. واعيةً وعزلاء من كل يقينٍ ما خلا صوت قلبي.

ثمة ما صار يبعثر وعيي. ثمة أصابع يدك اليسرى تنسرب إلى شعري، تدغدغ فروة رأسي، فيما شفتاك تزرعان جذوةً على يُمناي، جذوةً شهية اللهب، مذاقُها حلوٌ ومغيِّب، تتقّد على ساعدي، تسري إلى كتفي، إلى أذني، تورق أذني احتفاءً بقبلةٍ أولى. أولى تماماً! هل تصير الأذن هيولى منداحةً من جرّاء قبلةٍ أولى؟ تُوصيك أذني: لا تُغادرْ، ابق هنا في باب صيواني. ربما تأخر النداء أو انحبس، أو سبقه نداءٌ من عنقي فهويتَ صوبه، أعرفه عنقي الجائع وأعرف خيباته السابقة. تلوّى صدري من ظلمٍ حين انحرفتْ شفتاك صوب حفرة إبطي، تشمّها، تعبّ منها، تنازع لتهمس لي بين شهقةٍ عجولةٍ وأخرى متأنية: (هذه الوهدة أحبها. حضور رائحة الحب في لحظة الحب، ورسول الحب في الغياب). تأخّرتَ، تناديك هضبة صدري فتجيبُها: «أحبها، ثريّاتُ الذهب العالية هذه، حلمتُها النمرودة، هالتُها المنذورة للَجاجة النداء»

«هل اكتملنا»؟، أسألك. «ليس بعد»، تقول، هي جولةٌ أولى: «نامي واحلمي، سيأتي الأجمل»، تقول، أو: «لا تنامي، ظلي اسمعيني حادياً وحيداً يوقظ هذي القافلة الولهى»

كل ما حدث، حدث على الدرج المعتم الصاعد إلى المطعم.

***

أين سيلتقي محبّان في مدينةٍ نّمامة؟
مغفورٌة كل الخطايا، إلا خطيئة الحبّ غير مغفورة.

كانوا يلتقون في الخرائب والزرائب والأبنية المهجورة وخلف أغمار القمح على البيادر وفي مزارات الأولياء الصالحين.

كانوا يلتقون بخوف العراة، فلا الليل يسترهم ولا الواقعون في الحبّ مثلهم يسترونهم، ولا المشغولون بأعمالهم يسترونهم، ولا العاطلون عن الحب وعن العمل.

كانوا يلتقون بخوف، كُلّهم هنا يعرف كلّهم والجميع يخاف من الجميع.

يحب الشباب الصغار بخوف، يكبرون فيحبون برعب، يكبرون فيحبون بيأس.

طالب المدرسة يهدي فتاته وردة جوريّةً مطمورة في كتاب، أو تنهرس في يده من خوف أن يراها الرقيب، وقبل أن يرمي رسالة الغرام تحت شبّاك البنت يتلفّتُ حوله كالمخبر السري في كل اتجاه.

صاروا يلتقون في الشام العاصمة، ولم يفارقهم الخوف، ولم يختنق في صدورهم الحبّ، ولم يتعلّموا غفران خطيئة الحب.

***

سأتوجّس إذا، بفرحٍ وذعر سأجلس مقابلك في المطعم.

«كلي. لماذا لا تأكلين؟» لم تر أنت من رحلة أصابعك سوى بدايتها، استللت شوكتك وسكينك وأخذت من طبق السلطة الطازجة لقمتين وضعتهما في صحني، وأردفتهما بلقمتين أتيتَ بهما من طبق اللحم الدائخ وسط التوابل الحارة. لم أعد أحتاج التوابل، توابلك طوّقتني ودوّختني كما اللحمُ في طبقي، انسربتْ الى دمي متماهية مع ملوحته في أوج عطشي. «لستُ جائعة»، بي جوعٌ

آخر لن يطفئه إلا زحفُ أصابعك في الصحو إلى وجهي. وحـــدي رأيتُ أصابعك تتابع طريقها من صحني إلى فمي تُطعمني، تمسح عن فمي دُهن الخجل والحيرة والمتعة والذهول؛ قـــد جئـــت بـــــي إلى المطعم، هل ظننتنا في أوربا لتأتي بـــي إلى مطعم؟! لا أبـــي ولا أخي ولا خليل أتى بـــي يوماً إلى مطعم. ولا علمتُ قبلك أنه صـــار في مدينتنا مطاعم فاخرة تضيّف اللحمة في صحونٍ واسعةٍ كالصواني، أو تطعم اللحم والسلطات الفرنجية بدل الفول والفلافل والعيران.

***

رتّبتَ لي خطوات هجرتنا.

ستخطفني كما وعدتَ قبل عشرين ســـنة، ســـتُنزلني أولاً في الشام، تطعمني صفيحة لحمة بعجين في الميدان، ثم نعبر وســـط دويّ المطارق في سوق النحّاسين، ونشرب العرقسوس في أول الحميديـــة، ونأكل بوظة بكداش، ونناغي للحمامات في باحـــة النبـــــي يحـــيى ونعلك الفستق والترمس قبل أن نرميه لها كيلا تغصّ، ونأكل الفول المغمّس بالزيت، ولحم الشقف في الصالحية، آه، وستسقيني عشـــرين قنينة كولا.

ثم، وفاءً لوعدٍ قديم، ستنزل بـــي في بيروت، ستريني أطـــلال معسكرك الذي رُحّل مثلك إلى شتاتٍ لا يـــتلملم، ثم تأخـــذني إلى صخرة الروشة، تُذكّرها إن كانت نسيتْ أنّ كلّ نساء بـــيروت لا يساوين ظفري. ونرحل إلى رومانيا وأفتح باب بيتك ومن شبّاكه معاً نطرد الوحشة.

***

كنتَ تعلم إذاً أن النقصان في الحبّ موتٌ آخر.

يأتي أوان الصحو، لا أريد أن أصحو، لكني سأصحو وأغادر.

سأكتب لك: «الرائحة: أغادرك ولا تغادرني»

وتردّ: «والخيال، وهو يعيد ترتيب الحوادث»

أعود إلى بيت خليل مثقلةً بمتاعٍ حملتُه وآخر سأتخيّله. سيغمى عليّ من ثراءٍ فاضح هبط فجأةً، هديةٍ من أنسيّ وهبني في لقاءٍ واحد ما لم يستطعه جنيّ خليل في سنين.

سيمرّ وقتٌ قد يكفي لتوضيب متاعي الجديد في خزانة قلبي، كي أتمشّى فيما بعدُ، الهوينى، في قفيره الصاخب، وأعي خطورة ما أنا فيه، ما غفل عنه إغراءُ البداية، حين سيناكدني: السؤال المر: لماذا يا رب، لماذا بعثته الآن؟

ستحضر غادة السمان مُلوّحة: (في خزانة كلٍ منّا جثةٌ يخاف أن تنكشف). أين أخبّئ هداياك النمّامة؟ كيف سأخفي عشقاً فاضحاً، كيف سأسكِتُ الحلم بقبلةٍ تشطرني نصفين، كيف سيغفر لك ظهري الذي لم تنصفه بالقبل، كيف أعيد ثريات الذهب إلى حمّالتها؟

وكيف سيحيى من بعدك قلبي وقد صار يعلم أنّ النقصان موت آخر؟

***

أنا التي دعوتكَ للقائنا الأخير، أردتُه في المطعم الشعبيّ.

أكلنا الفول والخبز والمخلل. ثرثرنا كصاحبين مسافرين في قطار المسافات الطويلة.

كان موعدنا غداً إلى الشام – بيروت – بوخارست.

«لن أرحل معك. لا أستطيع»

أقوم ولا أنظر. ألقح على كتفي كلّ احتمالات الحطام وأمضي.

على الدرج أنحدر وحدي.

ربما لمحتُ سلطان على الناصية تحت المطعم، كفوهتي مسدسين يصوّب عينيه نحوي. أغمضتُ عيني وسرتُ عمياء، مثلما قد يفعل سائقُ عربةٍ صغيرةٍ يرى شاحنةً عملاقةً تهجم عليه، يحدس في جزء الثانية الأخير أنه لن يستطيع تفاديها، لا يفعل شيئاً سوى أن يزيح عينيه.

***

في طفولة وعيي أحببتكَ حتى طعنة القلب، رحلتَ قفاوي وبقيتُ على حبك.

وغبتَ عشرين سنةً، وكبرتُ ونضجتُ، وبقيتُ على حبّك

في حياتي كلها لم أفعل شيئاً سوى أن أحبك

خلّني هنا قرب أولادي، وسأبقى أحبك.

***

وحدي هنا في بيت خليل، أجلس لأكتب لك ما لن تقرأ، لأعاتبك: لماذا لم تعلّمني أن الفراق موتٌ صغير؟

ربما وصلتَ رومانيا، وأحكمتَ إغلاق الشباك على الرفيقة، الوحشة. وربما ضعتَ في الطريق.

وأنا؛ وحدي هنا، ضاعتْ ندبة رأسي، ضاع دليلي إلى موطئ قدمي. نبتتْ على خدّي ندبةٌ مكان نـــدبتك. رفيقـــاي الوحشـــة وجرابـــي الأحمر والأبيض، أهديتُك منه صورتي وجديلةَ الصـــنوبر، واستبقيتُ لنفسي ناتالي، (قالت يا خسارة هونيك فوق بالمدارات ما يلتقوا نجمين)، وبلّوطات رجاء وشميلة قمحها ورسمُها لنـــا معـــاً في بورتريه واحد واقفَين ظهراً إلى ظهرٍ كأننا لن نلتقـــي. وفي الجـــراب حجرَ بازلتٍ صغيرٍ مثقوبٍ بالبارود من أثر الديناميت الذي زرعـــه خليل في الأرض حين وسّع مضافة بيته المستعمل. وفي قعر الجـــراب هديّتك: علبةٌ بحجم الكفّ، تحفة خشب من شغل الغجر الرومـــان. يتقن الغجر رسم طواويس بهيجة، وأُتقنُ البكاء على بهجتي المهدورة، أفتح العلبة: عروة سوداء تتعلّق بها رصاصةٌ فارغةٌ كســـاها زنجـــار. أبكي على أحلى هداياك في العلبة: سلسال فضّـــةٍ يحمـــل خريطـــة فلسطين.

قلتَ لي: «أنتِ في عيني كهذي الخريطة»

وقلتَ لي: «صارتْ حزمةُ الخيبات فضفاضة أكثر من حزمـــة الاحلام، وانتهينا إلى فراغ»

***

قد أنضجك الزمن و لم يُنضجني، ما يزال خوفي وجُبني يسبقان رغبة قلبـــي.

ناداني الحب بأقصى غوايته و لم أسافر معه. قد مرّ درس (ما بعد الحب) على رؤوس نساء الأرض من قبلي، ومثلهن أنا، مرّ بـــي و لم أتعلّم.

سيظلّ يرعبني الفراق.

عدني، وإن رحلتَ من دوني، أن تظل توقظ حـــواس الأنثـــى الألف في دمي.

وخذ إليك مني في كل حين ما شئتَ من نجيمات.

وزرني، ولو غبّاً. زرني.

نجاة عبد الصمد

السويداء 2016

لا ماء يرويها

نجاة عبد الصمد

▪ روائية من سورية.

أنيقاً تجلس، كوابل الشهد، تقول: «عطشان!»، كلمةٌ واحدةٌ تنفرط حلوةً كحبة رمان، رمان تشرين الذي أحب، رمان صدري الذي على انتظار، رمان الوعود الباذخة.

ينفلتُ صهيلٌ نازفٌ من دمي، (ضمّني، أَحلني أثيراً خالصاً)، والرقيب الحاضر في كل وقتٍ يردعكَ عن ضمّي. تضمّ كأس الماء الذي شربتُ نصفه، تخمش قلبي بفرحةٍ مباغتة، ترشف نصف كأسي حتى القطرة الأخيرة، وأرشف رجفة صوتكِ في لفظ: (عطشان) أشفَّ من طعم قبلةٍ طويلة.

لو من يدي أسقيك كمشة ماءٍ مجبولٍ بتميمةٍ تبقيك قربي إلى الأبد.

«حقدتُ عليكَ لأنك بعتني بألمانيا»

«ولم أحقد عليك لأنكِ بعتِني بخليل»

لم أكن؛ وصرت بخير. صارت المدينة كلها لي، تحاذيني يدك بنصف لمسة وسط حواريها القديمة، أرعشُ كأني ما أزال أستشعرها منذ أوصيتني: «حياتي انتبهي لمدرستك»، كأنّ قربك أزلياً كان، كأني ربيتُ معك.

كنتَ لا أدري؛ أبحكمةٍ أم بمكرٍ أم بثقةٍ كتبتَ لي على القصاصة الصغيرة أنك تُسلم القياد لي لاختيار الزمان والمكان في هذي المدينة التي لم تدخل قلبك يوماً، بينما أنا التي تتبعك الآن كطيفٍ مخمورٍ يُجيدُ الإنصات ولا يُجيد سواه:

«كيف أنتِ؟»

يهسّ الهمسُ في كبدي: أنا العطش الصرف، أنا الشوق المُصفّى..

مكتبة نوميديا

ISBN: 978-614-02-1528-3
9 786140 215283

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

لوحة الغلاف الفنان منصور الحناوي